رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

عطر نسيم الصبا

تأليف

القاضي العلامة شهاب الدين
أحمد بن محمد بن الحسن بن أحمد الحيمي الكوكباني

الدار اليمنية
للنشر والتوزيع

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

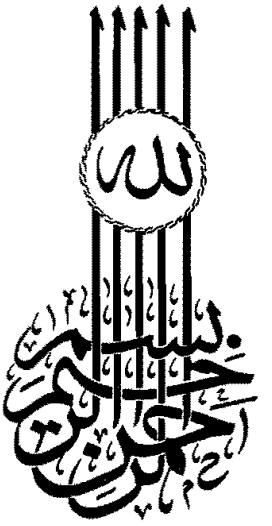
بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

عطر نسيم الصبا

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى الجديدة
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

توزيع

دار المناهل
للطباعة والنشر والتوزيع

تليفون : ٨١٤٧٠٣
٨١٤٦٩٧
ص.ب : ١٤/٥٦٤٥
بيروت - لبنان

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

عطر نسيم الصبا

تأليف

القاضي العلامة، شهاب الدين

أحمد بن محمد بن الحسن بن أحمد الحيمي الكوكباني

المتوفى سنة ١١٥١ هجرية

تحقيق

الشهيد السيد أحمد بن أحمد المطاع

الدار اليمنية
للنشر والتوزيع

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدّمة الطبعة الجديدة

الحمد لله ربّ العالمين، حمداً يملأ سماءه وأرضه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد.. منذ بدأت [**الدار اليمنية للنشر والتوزيع**] في نشر التراث اليمني، وهي تبحث جاهدة عن أي كتاب، تستطيع بواسطته أن تُعرِّف بالأدب اليمني شعراً أو نثراً، في مجال التاريخ، أو الفقه، والحديث أو النحو والصرف؛ همّها الأول والأخير هو إبراز الوجه المضيء للفكر في اليمن.

وليس هذا تحيزاً أو إقليمية ـ نحن نمقتها ـ فالفكر لا وطن له ولا حدود تسجنه ضمنها، ولكن نظراً للظروف التي عاشها اليمن وطمر الفكر اليمني ـ الفتي بموجوداته ومحتوياته، تحت ركام التخلف، والحصار الثقافي الذي فُرض عليه، فإن رسالتنا تقتضي أن نعمل جاهدين، على إخراج هذا التراث العظيم، وتعريف العالم العربي والإسلامي به.

ونحن لا نبغي وراء ذلك كسباً مادياً، بل الغاية ـ كما قلنا في كتب سبق نشرها ـ هو إرضاء القارىء والباحث، ووفاءً أدبياً للمفكر والعالم اليمني الذي أمضى أكثر سنين عمره يؤلف ويجمع ويعمل، وفي النهاية يظل هذا الجهد رهين المحبسين، الكتاب والمكتبات الخاصة التي لا يصل إليها القارىء والباحث.

وحسبنا أننا بدأنا السير، بخطىً ثابتة، وبعمل مبني على الجودة وبجهد لا يعتمد تصوير الكتاب كيف كان، وكما تركه لنا مؤلفه، بل إننا نقوم بإخراجه بطريقة حديثة تواكب العصر.. ليستفيد منه كل من اطلع عليه.

آملين من الله جلّ وعلى العون، ومن القارىء الكريم القبول، وأن يلفت نظرنا إلى أي عمل لم يكتمل.. فالكمال لِلّه وحده، هو الهادي إلى سواء السبيل.

الدار اليمنية
للنشر والتوزيع

التعريف بالكتاب

الحمد لله رب العالمين

وبعد فإني أقدم ـ لجمهرة الأدباء والمثقفين ـ تحفة أدبية رائعة، ودرة من درر الفُصحى استخرجتها من بحر الآداب عبقرية لامعة، وفكرة وقّادة، وزهرات عبقة فوّاحة، قُطفت من حقول البيان ومروج البلاغة بل أتقدم إليهم بركاز ثمين ضنّ به الدهر كل الضن ثم سخى، وهو كتاب: (**عطر نسيم الصبا**).

تفضل بإخراج هذا العلق النفيس وإظهار محاسنه وإبرازها في حلل الطباعة الزاهية، حامل لواء العلم والأدب وزير المعارف الجليلة مولانا العلّامة سيف الإسلام «عبدالله» بن أمير المؤمنين حفظه الله.

وقد أمر سموه الكريم بمقابلة هذه النسخة بغيرها والتعليق على بعض الجمل والألفاظ المحاطة بإطار من الخفاء.

وإذا صحّ ما يقال أن الكتاب يعرف من عنوانه ـ كما يستدل على

---

* ورد هذا التعريف في طبعة مطبعة وزارة المعارف سنة ١٣٦١ هـ. وقد أبقيناها كما وردت دون أي تدخل في النص.

الروض بأريج زهره وريحانه ـ فهذا «**عطر نسيم الصبا**» وكفى . . .

جمع فيه مؤلفه، بين جزالة البداوة ورقة الخيال. ولطف الحضارة ودقة التعبير، وحسن التصوير وبراعة الوصف، وسعة الاطلاع وجودة الصناعة، ومتانة الأسلوب، بعبارات فنية عالية، وتشبيهات بديعة. فيها من جمال القول وفخامته ، ورقة اللفظ وحلاوته، ما يحرك العواطف ويهز النفوس فكأنه شعر منثور، أو عقد منظوم، يشتمل على غرر من حر الكلام كقطع الروض غب القطر، وفقر كالغنى بعد الفقر، وبدائع أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب، وأرق من نسيم الأسحار وشكوى الأحباب :

حكم سحابتها خلال بنانه هطالة وقليبها من قلبه
كالروض مؤتلقاً بحمرة نوره وبياض زهرته وخضرة عشبه
وكأنها والسمع معقود بها شخص الحبيب بدا لعين محبه

والكتاب مؤلف من ثلاثين فصلاً، كل فصل منها يحوي طائفة متناسبة من أنواع الكلام وضروب القول، وشتى الصور، ومختلف المعاني، نحا فيه مؤلفه منحى الشيخ الحسن بن عمر الحلبي في كتابه (نسيم الصبا) بل سايره ومشى على نوره وجاراه في أسلوبه على منهج الروح السائدة في عصره.

تلك الروح التي رسمها ابن العميد[1] في أسلوبه، والقاضي الفاضل في رسائله، والعماد الأصفهاني في إنشائه، ونعني بها السجع والمحسنات اللفظية.

---

(١) ابن العميد هو الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد، ولد في سنة ٣٠٠ وتوفي سنة ٣٦٠ وهو من أصل فارسي كان من أئمة البلاغة وفرسان البيان وله طريقة رسمها في كتابته وعرفت بطريقة ابن العميد وهي أن تكون مسجعة قصيرة الفقرات مع شيء من المحسنات البديعية وتنميق العبارة واختيار الجمل والألفاظ واقتباس الأشعار المشهورة والأحاديث المأثورة والأمثال السائرة والآيات القرآنية، وقد ولع الناس بطريقته حتى ضربوا به المثل وقالوا: فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد.

فلم يطش سهم مؤلف عطر نسيم الصبا بل قرطس وأصاب المحز، وطبق المفصل، ووضع الهنا مواضع النقب، وأجاد كل الإجادة، وأتى بطرف البيان وعيون الآداب وسحر البلاغة في صور متنوعة وأساليب مختلفة توحي إلى نفس القارىء بما يلذ الأسماع ويبهج الأفئدة.

افتتن بجمال الطبيعة ومناظرها الخلابة، واستهوته الرياض وقد قامت خطباء الأطيار على منابر الأشجار، ومجامر الزهر تعطر أردية النسائم في الأصائل والأسحار، وصوادح الطيور تثير بأنغامها كوامن النفوس وأسرار القلوب، فاستوحى من جمالها وطيبها ونسيمها وأطيارها وأنهارها وأشجارها وما عليها من طل؛ وما تنشره من ظل، ما شاء له شعوره الرقيق وخياله الخصب، تغنى بالجمال، وشدا بالحب، وهام بليل العذار، وبريق الثغر الذي يكاد سنى برقه يذهب بالأبصار؛ وأكثر من وصف لوعته وغرامه بعيون الصباح؛ وقدود الملاح، وأحاديث الوصال، وشكوى الأحباب، وذكر الفراق والعتاب، ومعاهد الصبا، وملاعب الشباب.

فبرع في وصفه؛ وأجاد في اختياره وتنسيق عباراته؛ وكان كالمصور الفنان والمهندس الماهر في الجمع بين الصور والتأليف بين الألوان عرف كيف يصور ما يشعر به؛ ويعبر عما يجول بخاطره.

وانقاد له عصي اللفظ، وحرون اللغة؛ واتته المعاني طوعاً وانثالت على قلمه انثيالاً فجمع بين السهولة والحزونة والوضوح والغرابة ولم تشذ عنه أنواع البديع وملح الأشعار والحكم والأمثال، ولا عزّ عليه استعمال الزينة اللفظية والزخرف البياني كالتورية والاستخدام والمجاز والكناية والاستعارة وما إلى ذلك.

وقد يعمد أحياناً إلى استعمال غريب اللفظ ووحشي الكلم في أثناء ما يستحسنه الذوق ويلائم الطبع فإذا بك تعثر بالجندل، ويسف أحياناً إلى

درجة الركة بينما أنت معه في سدرة منتهى البلاغة وليس ذلك من التواء في الطبع ولا جمود في النفس وإنما هي قيود السجع وأغلال التكلف.

وصفوة القول إن عطر نسيم الصبا معرض يجد فيه القارىء جملة نماذج من البديع والبيان والأمثال وغير ذلك مما يروق للمطالع الأديب تصفحه إذ جمع بهذا الأسلوب فوائد أدبية لا يستغني عنها الأديب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ترجمة المؤلّف[1]

هو القاضي العلامة الفذ الأديب اللابس من حلل الفصاحة بردها القشيب، الناظم الناثر الخطيب أحد أفذاذ اليمن وأعلامها المشاهير أحمد بن محمد بن الحسن بن أحمد بن صالح الحيمي اليوسفي الشبامي المولد والنشأة، الصنعاني الوفاة، ينتهي نسبه إلى علامة اليمن الأكبر القاضي نشوان بن سعيد الحميري.

ولد صاحب الترجمة بشبام كوكبان سنة ١٠٧٣ ونشأ في حجر والده وعليه تخرج، وكان والده من السراة الأكابر والعلماء الأماثل، ولما شبّ وترعرع تفرّغ للدرس والتحصيل وأخذ العلم عن علماء مدينة شبام وكوكبان وبلادها وناهيك ببدور كوكبان في عصره أدباً وفضلاً.

تضافرت عوامل التربية والبيئة وقانون الوراثة في تكوين عبقرية المؤلف ونبوغه، فإن اتصاله بأولئك الأدباء الأكارم ونشأته في حضن النعمة ومهد الرفاهية ورغد العيش بحجر والده وتغذيته بعوامل التربية الفاضلة في ذلك الوسط الزاخر بالعلم والأدب، كل ذلك أوجد فيه تلك المعاني: رقة

(١) اعتمدنا في هذه الترجمة على كتاب نشر العرف لمؤلفه العلامة المؤرخ محمد بن محمد زبارة ومؤلفات صاحب الترجمة بنفسه.

المزاج، وخصب العاطفة، وكرم السجايا، وصفاء الحس.

وأوحت إليه ألواناً زخرفية من الخيال البديع، والتفكير الحصيف، والطموح الشريف.

وأسالت من شباة يراعه العبارات المنسجمة، والتشبيهات المختارة، واللفظ الرقيق، والمعنى الدقيق.

وأفاضت على لسانه آراء ونزعات فيها الرجولة، وفيها الجرأة، وفيها الاعتداد بالنفس والاعتزاز بالإباء، وفيها الإباء، وفيها الرقة والوجدان الصادق.

كان في روعة شبابه، وعنفوان قوته، مرحاً طروباً، خفيف الروح، رقيق الطبع، يجتذبه الحسن، ويستميله الجمال.

ليالي لا تنجو بنبلي خريدة وإن عزّ حاميها وجمّ عديدها
إذا ما رمتني ذات دلٍّ رميتها بعين لها منها مقيد يقيدها

وكانت نفسه هادئة مطمئنة، همها اقتناص شوارد الآداب، وارتشاف رضاب السرور، خلية من هموم الحياة وأهوالها سوى ما كان يلابسها من الموجدة على حساده ومنكري فضله وأعدائه الذين (يقطفون من مرير الحسد ثمره، وما ذاك إلا لأنهم حمر مستنفرة، يأكلون كما تأكل الأنعام، ويودون سلب ما أولانيه ربي من الإنعام، كل منهم حشي صدره وأهّابه أوغار، وظهر على قبيح منظره كدرة لونه الذي ينم عليه إذا حسد أو غار)، هكذا يقول عن معاصريه الذين لم يعترفوا بنبوغه، وقد بذّهم في ميدان البلاغة وعجزوا عن اللحاق به في حلبة البيان وهو في ميعة العمر ونضارة الشباب، ومع ذلك فهو يرحمهم لما يكابدون من وحر الصدور وعذاب الوجدان لأن

عيونهم في جنة وقلوبهم في نار.

هذه الزفرة المريرة تجدها في مقدمة كتابه هذا «عطر نسيم الصبا» على أنَّا لم نطلع على قدح أو معارضة تدل على ذلك وعلى كل حال هو أعرف بما كان يدور حوله أو لعلها أثر من آثار سن الغرور ونزوة من نزوات طيش الشباب فقد كان عطر النسيم باكورة إنتاجه الأدبي العظيم ألفه وهو في الخامسة بعد العشرين من عمره.

وأنت جد خبير بما لهذه السن من أثر في أخلاق الشباب وما تدعه في نفس صاحبها من أوهام تخيل إليه أنه بلغ بكماله ذؤابة الثريا وأعنان السماء وأن كل عين لا تراه بهذه المنزلة متعامية أو عمياء.

وإنك لتجد جمال الشباب، ورقة الطبع، ودقة الإدراك فيما كتبه حول الحب، ووصف الشباب، والقرب، والوصال، والهجر، والعتاب والشكوى، والحنين، والطيف، والرياض، والحدائق، والنسيم. وكل ما له صلة بالحسن والجمال، ولسان الحال منه تنشد:

وقالوا قد أجدت فقلت إني وجدت القول يمكنني فجادا

ثم تقلبت الأحوال بصاحب الترجمة واتصل بقصور الخلفاء ورجال الحكم أو اجتذبته تلك القصور إليها للانتفاع بمواهبه والاعتزاز بقوة قلمه، تولى منصب الخطابة وارتقى منصتها وجال في ميدان الحياة العامة وأشرف على مجاري السياسة، وعرف دخائل النفوس وغوائل الرجال.

وكان فؤاده الكبير يخفق بكثير من الأطماع الكبيرة ونفسه الوثابة تطلب ما يناسب عظمتها وطموحها وهمته العالية تسمو به إلى مجد الأسلاف ومراتب السيادة.

كدَّ روحه وأفنى لياليه في سبيل غايته (ومن خطب الحسناء لم يغله المهر):

طلب المجد يورث المرء خبلا وهموماً تقضقض الحيزوما
فتراه وهو الخلي شجياً وتراه وهو الصحيح سقيما

فاكتملت معارفه، ونضجت مباحثه وآدابه، وأصبحت فكرته الوقادة تفيض بثمار الاطلاع الواسع. فألف المؤلفات المتعددة في فنون الآداب وقد أطاعته أعنّة الكلام، وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام.

وكان يرى في نفسه فضلاً لا يراه لأحد ويشعر أنه شخصية ممتازة يجب إحاطتها بكل مظاهر الرعاية والتكريم، ويربأ بنفسه العظيمة أن تذل للحوادث وتنزل على حكم الأيام، ولكن الزمان لم يسعفه بما يريد وأبى حساده وأعداء فضله إلا تكدير صفوه وترنيق مشربه، فطغت في نفسه ثورة الحقد على الزمان وأهله وامتلأت بالتهكم والسخرية بالناس والحياة، وفاضت بالشكوى والألم ولكنه ألم النفس العظيمة التي لا تخضع ولا تستكين بل تزداد قوة وجلادة كما يقول في مقدمة كتابه (طيب السمر في أوقات السحر):

(على أني وإن لم يساعفني الزمان بما أريد، لست بحمد الله من رجال قصعة وثريد، أقنع بالدون وأكتفي، وأرد الوشل فأشتفي، إنما أنا أحوم حول أمر ما، وأهم بما لا يستطاع همّا، وأملأ صدري في اكتساب العلا غمّا، أطيل في الأطلال النداء، فلا يجيبني مجيب حتى الصداء، والدهر المانع، أكذب من صانع، يعد فلا ينجز وعدا، ويلمع خلب بارقه فلا يعقب رعدا.

ألا ليت شعري يا رباب متى أرى لنا منك نجحاً أو شفاء فأشتفي)

وانظر إلى هذه الجملة التي يصف فيها ما يلاقيه من الرزايا وشكول البلايا وكيف يتلون الدهر في معاملته تلون ليله ونهاره:

وهو الدهر ليس ينفك ينحو بالمصاب العظيم نحو العظيم

والسيل حرب للمكان العالي وفي المثال ما يغني اللبيب. قال رحمه الله:

(وكنت ممن قصده الدهر بالرزايا، ولم يعرف التفاوت بين الرتب والمزايا، أجرى نهر المجرة لإغراقي، وأضرم جمرات الغموم لإحراقي، ووجه لحربي أسنّة، وسدد أسهماً لا أجد لي منها أكنّة، وبعث لياليه المظلمة كتائب زنج لنزالي وأسلّ أيامه النيرة جيوش روم لقتالي، توهماً منه أني من الأفاضل، وممن بأسهم أقلامه لحذاق الرماة يناضل، وإني أعد من سراة الأدباء، وصدور المتكلمين الخطباء، حتى صبغ حظي في بحر لياليه الدهما، وجار في معاملتي لما عاداني ظناً ووهماً:

ألا أيها الدهر حتى متى ... تشقي بأيامك أياميه
تحقق الآمال مستعطفاً ... وتوقع النقص بآماليه
وهكذا تفعل في كل ذي ... فضيلة أو همّة عاليه
فإن تكن تحسبني منهمُ ... فهي لعمري ظنة واهيه

وكيف أنكر من الزمان طوارقه، ولا أشيم في آفاق حوادث بوارقه، وقد جفاني حتى أقاربي، وقلت في حقهم دبت إلي عقاربي، فإذا هم بحملتهم قد كدروا مشاربي، وحالوا بيني وبين ما أرجوه من نيل مآربي، فهم علي يد وما لهم في الأفضال علي يد.

إذا جفاك الأهل مع رحمهم ... فما جفا الدهر بمستنكر)

هذه الأنفاس المحترقة والروح المتألمة، والشكوى المنبعثة من أعماق القلب أخف ما جاء في مقدمة ذلك السفر النفيس.

مؤلّفـــاتـه

لصاحب الترجمة مؤلفات عديدة في فنون الأدب تزيد على الأربعين، وهو كما علمت غزير المادة واسع الاطلاع جيد اللسان حلو البيان. ومن أشهر مؤلفاته كتابه المسمى (طيب السمر في أوقات السحر) في مجلدين كبيرين جمع فيه فأوعى من التراجم، وهو من الكتب النادرة عزيز الوجود.

سلك فيه مسلك الثعالبي في اليتيمة، والخفاجي في الريحانة والمقَّري وأشكاله.

ومنها عطر نسيم الصبا[1]، والأصداف المشحونة باللآلىء المكنونة، شرح بها قصيدة السيد محمد بن عبدالله بن الإمام شرف الدين التي أولها:

إلهي بسر الذات ذاتك والأسما

وحدائق النمّام فيما جاء في الحمَّام، وشرح رسالة الواثق بالله المطهر بن محمد بن المطهر المسماة بالدر المنظوم المتضمن معاني العلوم، سلك فيه مسلك الصفدي في شرح لاميّة العجم. وله شرح على قصيدة المولى محمد بن

---

(١) نشر العرف

الحسين بن عبدالقادر التي أولها:

أهدى النسيم وذيل السحب ينسحب

ومؤلف يشتمل على ذكر الخيل وتحقيق من عرف بالرحلة إلى بلاد الشرف وعراض أقراط الذهب في المفاخرة بين الروضة وبئر العزب، وشرح على رسالة المولى عبدالله بن علي الوزير التي فعلها على نحو رسالة ابن زيدون وسماه الروض المطلول وعطر نسيم الصبا سلك فيه مسلك نسيم الصبا لابن حبيب الحلبي.

وقد ترجمه صاحب نسمة السحر والشوكاني في كتابه البدر الطالع والمولى إسحق بن يوسف بن المتوكل، والسيد محسن بن الحسن أبو طالب وغيرهم وترجمه السيد إبراهيم بن زيد جحاف في زهر الكمائم فقال: الشاب الظريف، الماجد اللطيف، خطيب جامع شبام وسليل مستنبط الأحكام، وقاضي الشريعة المطهرة الفارق بين الحلال والحرام، مقلد جيد الزمان بقلائد عقيان آدابه وملبس شخوص تلك الأسجاع لطائف نقابه صاحب الفكرة الوقادة والقريحة المنقادة.

وترجمه صاحب النفحات فقال:

«الأديب الخطيب نشأ بشبام فقرأ في العلوم حتى حققها وطالع كتب الأدب وحفظ الأشعار وضبط التواريخ وولع بكتب الإنشاء والبلاغة، فقوي ساعده في النظم والنثر وطال باعه في إنشاء الخطب والرسائل والمكاتبات وكان خطيب الجهاد مع المنصور الحسين بن المتوكل القاسم بن الحسين، قبل الخلافة وخطيب شبام في أيام المولى الحسين بن عبدالقادر ومن تبعه من أهله واستمر خطيباً عند استيلاء المهدي صاحب المواهب محمد بن أحمد بن الحسن على ملوك اليمن ولم يزل خطيباً حتى ارتحل إلى صنعاء في عشر الأربعين ومائة وألف، وكان صحبة المولى محمد بن الحسين عبدالقادر حين

خرج قاصداً لسلطان حاشد علي الأحمر بإشارة من المتوكل القاسم بن الحسين ولما وصل إلى محل الجنات من بلاد عمران، ارتقى على المنبر مسرعاً وافتتح خطبته بقوله: الحمد لله الذي جعل الجنات مأوى للمجاهدين ثم استمر خطيباً بصنعاء مع المنصور الحسين بن المتوكل من سنة ١١٤٨ ثماني وأربعين ومائة وألف، بعد أن أصيب عبدالقادر النزيلي الخطيب بمرض أقعده. وكان صاحب الترجمة من خاصة أصحاب المنصور الحسين ومن أهل الصبر لديه وممن أقبل بقلبه وقالبه عليه وكان له اقتدار عظيم على إنشاء الرسائل المطولة واستعمال البديع في خطبه، ومؤلفه طيب السمر في أوقات السحر من أحسن كتب التاريخ المتأخرة، جمع فيه فأوعى ولكنه لا يتميز حال الرجل المترجم له كلية التمييز لالتزامه فيه التسجيع من أوله إلى آخره وربما سارع القاضي رحمه الله تعالى إلى الاعتراض بما لا ورود له أو بما يتسامح بمثله أو بما قد كثر وشاع وروده والأمر في ذلك سهل».

وكان صاحب الترجمة طويل الباع واسع الاطلاع حسن المحاضرة لطيف المذاكرة طيب الأخلاق طويل النفس في الرسائل والخطب، وله ديوان شعر جمعه لنفسه وديوان آخر من شعره الملحون وديوان صغير جمعه في أنواع الجناس، ومحاسنه كثيرة.

وكانت وفاته رحمه الله بصنعاء سنة ١١٥١ هـ

بقلم الشهيد السيد أحمد بن أحمد المطاع

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

عِطْرُ نَسِيمِ الصِّبَا

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المحتوى

الصفحة

مقدمة المؤلف ٢٥
الفصل الأول: في النسيم ٢٩
الفصل الثاني: في الحمامة ٣٥
الفصل الثالث: في السيل ٤١
الفصل الرابع: في الغدير ٤٩
الفصل الخامس: في الحديقة ٥٣
الفصل السادس: في وصف الشباب ٥٩
الفصل السابع: في وصف الشابة ٦٧
الفصل الثامن: في القرب والوصال ٧٩
الفصل التاسع: في الهجرة والمطال ٨٥
الفصل العاشر: في العتاب ٩١
الفصل الحادي عشر: في البعد والنوى ٩٠
الفصل الثاني عشر: في العذل والتعنيف ١٠٥
الفصل الرابع عشر: في الطيف ١١١
الفصل الخامس عشر: في الشكوى ١١٥
الفصل السادس عشر: في الحجاب ١١٩

الفصل السابع عشر: في الخمرة ١٢٣
الفصل الثامن عشر: في السياحة ١٢٩
الفصل التاسع عشر: في صنعاء اليمن ١٣٧
الفصل العشرون: في الحَمَّام ١٤٥
الفصل الحادي والعشرون: في الحماسة ١٥٣
الفصل الثاني والعشرون: في الحرب ١٦٥
الفصل الثالث والعشرون: في تذكر الشباب ١٧١
الفصل الرابع والعشرون: في المدح ١٧٩
الفصل الخامس والعشرون: في الأدب ١٨٣
الفصل السادس والعشرون: في العزلة والخمول ١٨٩
الفصل السابع والعشرون: في الألغاز ١٩٩
الفصل الثامن والعشرون: في المكاتبات ٢٠٥
الفصل التاسع والعشرون: في النصائح والحكم ٢١٧
الفصل الثلاثون: في التذكير ٢٣٧
خاتمة الكتاب ٢٤٥

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

أحمدُ من جعل نسيم الصبا ألطف ما عذب في الأصايل والأسحار، وأرق ما خطر على رياض الخواطر والأفكار، من فصل عقد المجد بمن فضل من الأنام، وأنطق سواجع البراعة على قضب الأقلام، وأوجد في خزائن العقول جواهر تتقلد بها ترائب الأتراب، وكوَّن في معادن الأذهان ذخاير تتزين بها لبات ذوي الألباب، وطوق بنظيم درر الفصاحة نحور الدفاتر، ونعم غصون الألفات بما سقاها من معين الرقة فكانت عليها الهمزات مغردة شبه طائر. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يعتكف اليراع ساجداً في محاريب نوناتها، ويظمأ إلى ارتشاف سلسالها من شنب شيناتها، مطيعاً لباريه بملازمة الخمس في جامع طرسها الأزهر، مختالاً في حلله النضرة بقده الأسمر، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي قطع أوداج الكفر بصارم الإيمان، وأذوى زهرات الباطل بما سقاها من دم المتمسكين بذيل العدوان، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه صلاة وسلاماً تعجز جياد الألسن عن قطع مضماريها، ويتدفق على خمائل السطور عذب نهريها، ما دام يرشح جبين الروض بعرق الندى، ويبدو عقد الحياء على جيد الأغصان منضدا، ويدب في خدود الورد عذار الآس، ويلازم حلي الغيد من حبها الوسواس؛ ويخلص بنار الشقيق نضار البهار فيكاد يقطر من

النضارة، ويلبس الروض من نسج خيوط المطر إزاره؛ إزاراً انفصمت عرى الهموم لما لاحت أزرار النسرين على نضيرها، وسجفت حواشيها الرقاق بمسيح أزرق من غديرها.

وبعد، فإني لم أزل أقتطف باكورة العلوم والآداب من بين أوراق الدفاتر، وأسرح طرفي في ربيعها الذي عبق من الرغائب والغرائب بعنبر عاطر، وأشتمُّ من مسك المداد وكافور المهارق ما يتعلق نشره بأذيال شمل الشمايل، وأرتشف من صفاء غدير السطور ما عذب فحسدته متدفقات الجداول، لا دأب لي إلا الوقف على خبايا الزوايا، والاطلاع على عجايب القصص والروايا، وركوب مطايا الهمم لإدراك المآرب، ولنيل الأغراض والمطالب، فظفرت بكتاب الصدر الذي أبدع فيما أبدا، وقلّد الألسن فرائد وعطرها ندا، وتهللت لبنات فكره وجوه الصحايف، وابتسمت لها شفاه الأقدام وتثنت بلين المعاطف وشاقني ما صاغه فكان منتهى طلبي، السابق في حلبة الفصاحة الشيخ الأديب الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب الحلبي، أسكنه الله روضات جناته السنية، وأفاض على جدثه من الرحمة مشارب هنية؛ وحيًّا بوابل الحيا ثراه الذي هو العنبر الأشهب، والترب الذي ما احتوى على غير ذات المجد والحسب، المسمى (بنسيم الصبا) ولعمري إنه أهدى إلى الأرواح عرفاً طيباً، وخطر معطر الأردان، وهزّ غصون الأشجان، فمن لم يهتز لرقة ذلك النثر الذي ترنمت به طيور الأدب عن صوت رخيم، فهو من الخشب المسندة وكيف تتمايل الأخشاب من النسيم، يكبو جواد الفكر دون إدراكها، وتبهت الناظر بدور معانيها المشرقة من أفلاكها:

يا حسنها نسخة يلهو مطالعها بها لما قد حوت من رائق الكلِمِ
صحت وقد لطفت في حجمها فحكت لطف النسيم وحاشاها من السقم

فأحببت أن أنسج على منواله، وأن أحذو حذوه في مقاله، اختباراً لجواد

فكري، وتطلعاً إلى الاطلاع على ما حواه صدري؛ لا كوني ممن يعد في سلك ذلك النظام؛ ولا ممن ظفر من اللسن بسهم إذا سدد من الفكر السهام، وما كل أخضر نبت رائق، ولا كل حديقة تجود بالنرجس والشقايق، ولا كل دوحة تثمر بما يروق في الأفواه طعمه، وما كل حر يصيب من المعالي ما بلغ به عزمه، ولا كل أبيض لؤلؤ يتيم، ولا كل ما سمط عقد نظيم؛

وما كل مخضوب البنان بثينة ولا كل مسلوب الفؤاد جميل

فشرعت متوكلاً على الله في الإعانة، متكلاً عليه أن ينيلنا عفوه وغفرانه؛ وسميت ما أنتجته فكرتي، وصاغته من الإنشاء فطنتي، لما نم على مسك سرر الظبا، (عطر نسيم الصبا)؛ وفصلت فيه جواهر نثري، بنظيم نظم من شعر غيري. وأنشأته وأنا مختال في قشيب جلباب الشباب، قبل أن أبلغ من الخمس السنين بعد العشرين كمال النصاب؛ وقبول الرقة إذا هبت عطفت أعطافي بلطفها، وقدحت واري زنادي بعرفها:

أهيم إذا عاينت قداً مهفهفاً وأصبو إذا شاهدت خداً موردا

وسعدي يترع لي رحيقه، وأيامي روضة أنيقة، أستقيل تحت ظل من أوراقها ضافي، وأرد جدولها وهو من الأكدار صافي، والحبيب مساعد، وصرف الزمان عن مقامنا متباعد:

والعيش حلي طالما خطرت به أعطاف كل مهفهف مياس

وأعدائي يقطفون من مرير الحسد ثمره، وما ذاك إلا لأنهم حمر مستنفرة، يأكلون كما تأكل الأنعام، ويودون سلب ما أولانيه ربي من الإنعام، كل منهم حشي صدره وإهابه أوغار، وظهرت على قبح منظره كدرة لونه الذي ينم عليه إذا حسد أو غار:

إني لأرحم حـاسـدي لحـر مـا ضمت صـدورهمـو من الأوغـار
نـظروا صنيع الله بي فعيـونهم في جـنـة وقـلوبهـم في نـار

وهـا أنـا شـارع في المقصود، ومبتدىء في رصف هذا الشذر المنضود، فأقول راجياً للإعانة ممن إن هفا عبده عفا، وهو حسبي وكفى.

الفصل الأول

في النسيم

اشتقت في بعض الأيام، إلى أحبابي من بين الأنام، الفائقين لطفاً وأدباً، المضرمين بين الضلوع لبعدهم لهباً، فقد هجرت السلو لبينهم المتطاول، وألفت الحزن لفقد بدورهم الأوافل، صرت متيماً بحبهم رهينا، لا ينادم إلا انتحاباً وحنينا، جل همته مرافقة الهموم، ودأبه مراقبة النجوم:

رعى النجم حتى كاد إنسان عينه يكون لعرفان النجوم منجما

فتلقيت الركبان للاستخبار، ومشيت في الحمى ودمع الجفون مدرار، أخطر من القلق في الرياض، وأنثر عقيق العين على لجين ماء الحياض:

بكيت على الوادي فحرم ماؤه وكيف يحل الماء أكثره دم

فبينا أنا في هضبة مرتفعة الجناب، مخضرة الأكناف من دمع السحاب، أنهارها تبكي من رحمتي، لما رأت العبرات عابرة في وجنتي، والدوح[1] يشقق جيوبه، ويعطر من أزهاره جنوبه، إذ هبت نسيم سجسج[2]، يبتسم

---

(١) الدوح: الشجر العظيم جمعه أدواح والواحدة دوحة.

(٢) الأقحوان والقحوان: من نبات الربيع له زهر أبيض ووسطه أصفر طيب الريح وهو البابونج عند العجم، الواحدة إقحوانة وقحوانة، جمعه أقاحي، والمفلج المشقق.

لها ثغر الأقحوان[1] المفلج، ذكية الرائحة تركت الحمايم في وكنها نائحة، مخضبة الذيول بالعنبر، يسود من حسدها جسد المسك الأذفر[2]:

فلم تدع لغزال البيد خطرتها في الروض ميماً ولا سيناً ولا كافا

تنبه عيون النرجس[3] من السنة، وتخط في طومار[4] الغدير سطوراً بينة، خفقت منها ألوية الأوراق، وانطوى نشرها على ما يبعث الأشواق.

بالطي والنشر في حال قد اتصفت والطي والنشر فيما قيل ضدان

أمالت أعناق الغصون، وخلفتها لا تميل إلى السكون، تنثرها زهرها فرحاً بوفودها، وتهتز اهتزاز الخطية تحت بنودها.

ويا قضيب النقاء لو لم تجد خبراً عند الصبا منهم ما هزك الطرب

فازداد بها تضرم الأحشا، وخطر الهوى في الجوارح يتمشى، وأذكرت المتيم وما نسي، وذكرته معهداً للوصل ومأنسا:

وليس التي هبت صباً بل صبابة أمارتها أني على أثرها صب

أججت ببردها لهب الفؤاد، وأجرت الدمع كالعهاد[5]، وعطرت الأكوان، وأهاجت الأشجان، أظهرت ما خفي، وأشعلت المنطفي، وشوقت

---

(١) السجسج: وقت لا حر فيه ولا قرّ وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

(٢) الأذفر: الذكي الريح.

(٣) النرجس: زهر أبيض مستدير، لواحدة نرجسة شبهوها لاستدارتها بعين الإنسان وقد أكثر الشعراء من ذكر هذه العيون فمن ذلك قول بعضهم:

غضي جفونك يا عيون النرجس منك استحيت بأن أقبل مؤنسي
نام الحبيب ونكست أجفانه وعيونكن شواخص لم تنعس

(٤) طومار كفوعال: الصحيفة.

(٥) العهاد من العهد: وهو المطر المتتابع الذي يدرك أوله آخره.

السواجع، ونقلت عن أهل نجد ما يطيب للسامع، تجذب النفوس بالأنفاس، كأنها مغناطيس الأكياس:

يميناً إذا كانت يميناً فإن تكن شمالاً ينازعني الهوى من شماليا

أنشأت لأجلها آدابا، وتذكرت بما روته أترابا، جذبتني إلى حب الآداب، فحملتها عطراً لتحيي به الأحباب:

لقد ضعفت ريح الصبا فوصلتها فمني لا منها هبوب الشمائم
دعوا نفس المقروح تحمله الصبا وإن كان يهفو بالغصون النواعم

سحرتني منها نفحات لها لفحات في الفؤاد، وسلبتني بأنفاس تترك المتيم في اتقاد، وحملت بردا، وخطرت وقد نسج لها الشميم[1] بردا، فلولا نسيم الصبا، لاشتعلت لفقد الأحبة لهبا:

لولا نسيم الصبا عنكم يروحني لكنت محترقاً من حر أنفاسي

فبها ألهو عن التذكار، وإن كانت تظهر مني الأسرار، واحتوت على ما أغراني بالهوى، ونفثت بما يشوق إلى أهل اللوى:

سرت من بعيد الدار لي نسمة وقد أصبحت حسرى من السير ضالعة
ومن عرق مبلولة الجيب لندا ومن تعب أنفاسها متتابعة

تركتني حليف أشواق، وخلفتني في احتراق، أرتقب وفودها إلى الرياض، حتى تنصب شباكها على ماء الحياض، فأقول لصاحبيَّ قفا، واسألاها هل حملت الشفا؟

وقولا لغصن البان فليمسك الصبا علينا فإنا قد عرفنا بها عرفا

(١) الرائحة الطيبة.

سرت من حمى الأحباب وهي مريضة فما ظهرت إلا وقد كاد أن تخفى
عليلة أنفاس نداوي بها الجوى وضعفى ولكنا نرجي بها الضُّعفا

أتمسك بذيلها الممسك، وأقول أيها النسيم قد مسني من الوهن ما مسك، أنا مشتاقٌ مُعَنًّى، لا يعرف من السلو لفظاً ولا معنى، فاق في هواه بني عذرة[1]، وأقام من شحوبها[2] عذره؛ طرفه ذبيح السهاد، وقلبه كليم البعاد؛ حالي لا يخفى على ذوي التمييز، وجسدي في صفرته كلون الإبريز[3].

ولم ير طرفي قط شملاً مبدداً فقابله إلا بدمع منظم

فهل تسعدين بتبليغ سلامي، والتحية لسرب[4] آرامي[5] وتصفين لهم حالي، فعلهم يميلون لنيل آمالي، أنت قريبة العهد بالأحباب، وآخر واصل من تلك الأطناب، ماذا نقلت عنهم، وماذا تخبرين المحب منهم:

وهل نارهم بين الضلوع أم التي على فلك الأجراع تعلو وتنحط؟

---

(١) قبيلة في اليمن، اشتهر أفرادها بالعشق والعفة من أشهرهم سيد العاشقين جميل بن عبدالله ابن معمر العذري وصاحبته بثينة ومن شعره فيها:

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي وهموا بقتلي يا بثين لقوني
إذا ما رأوني طالعاً من ثنية يقولون من هذا؟ وقد عرفوني
يقولون لي أهلاً وسهلاً ومرحبا ولو ظفروا بي ساعة قتلوني

(٢) شحب لونه: تغير من جوع أو سفر أو هزال.

(٣) الذهب الخالص.

(٤) السرب، هو القطيع من الظباء وبقر الوحش، والطيور والنساء.

(٥) الآرام الظباء ومنه قوله:

رمتني. وستر الله بيني وبينها عشية آرام الكناس رميم
رميم التي قالت لجارات بيتها ضمنت لكم أن لا يزال يهيم
ألا رب يوم لو رمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم

فلما أفضيت إليها الخبر، وقضيت من محاورتها الوطر، وبثت حديثاً تقدم أمره، ومر على حلو الصبر عصره، وفتر مشيها اللطيف، واضمحل جسمها الخفيف، قلت لرفيقي، وريحان عمري وشقيقي:

أظن نسيم الجو قد مات وانقضى فعهدي به في الروض وهو عليل

فقال لي كيف تروم منها تبريد الجوى، وإزالة ما برى جسدك من النوى، وهي مريضة الجسد، لا يرجى لسقمها أمد:

تهوى النسيم عليلاً ما به رمق وكيف يشفيك ذو سقم من السقم

فقلت سبحان القادر على تكوينها المعدوم، المنشي لها إلى كل صب مكلوم، الباعث للصبا رسولاً لأهل الصبابة، المعالج بأرجها[1] المهج المذابة، من خلق ولا تعب، وأوجد ولا نصب؛ من عطّرها نشرا، وأرسل الرياح نُشرا.

(١) الأرج محركة والأريج: توهج ريح الطيب.

الفصل الثاني
في الحمامة

انتبهت ذات ليلة في السحر، وقد كحل طرفي بميل السهر، والنسيم عليلة، والنشر يتضوع من أزهار الخميلة[1] والآفاق عن الحركات ساكنة، والأنفس في مهادها آمنة؛ وأجفان النجوم مؤرقة؛ وجلابيب السدف[2] بلمع البروق منمقة، ومرآة السماء مصقولة، والرياض بعبرة السواري[3] مطلولة:

ما الطل في الروض إلاعبرة ذرفت لرحمة الليل لي من مقلة الغسق

لا يجيب المنادي سوى الصدا؛ ولا تلوح لعينه نار يجد عليها هدى؛ والليل بطيء الخطا، والصبح يمشي مشي القطا:

وتطاول الليل البهيم فخلته كسواد حظي بالنجوم مسمّرا

فتفكرت وتذكرت من نزح من الأحباب، ودمعي وقلبي مذال[4] ومذاب، لولا تصعد نار المهج، لغرقت من بحر المدامع في اللجج:

---

(١) الشجر الكثير الملتف، والقطيفة والمنخفض المنبت والموضع الكثير الشجر.

(٢) السدفة بالضم الظلمة تميمية والضوء قيسية من أسماء الأضداد.

(٣) السواري جمع سارية، السحاب تسري ليلاً.

(٤) أذاله: امتهنه.

وأدمع همـلت لـولا التـنفس مـن نار الجوى لم أكد أنجو من اللجج

أهتف من للعاني، وأحمِّل النعـامى[1] أشجاني، وأنـوح وأبوح، وأقـول هل من آس للكليم المجروح، شحيب البدن، مفارق الوسن، ملازم غريم الغرام، متجرع كأس الحمام، حافظ عهد الأحبـة في المغيب، تهزه الأريحيـة لذكرهم اهتزاز القضيب:

مكفن في ثيـاب السقـم ليس لـه مذ يمموا غير دمـع العين تغسيـل

فسمعت أنـة لطيفـة لم تـك في الحسـاب، ورنـة مشجيـة تشبـه صـوت الرباب[2]، رخيمـة الحواشي، تـدع العقل في التـلاشي، فأوجست في نفسي خيفة أن تكون من هائم بمن همت به أنا، وكلف بمن قاسيت في حبه العنى:

أغار إذا آنسـت في الحي أنـة حـذاراً وخوفاً أن تكـون لحبه

فقمت من مضجعي، ومـددت نحـوهـا مسمعـي، وتبـعت الأثـر، وتقصصت الخبـر، ومشيت في النـادي، ونـزلت أتصفـح جـوانب الـوادي؛ فرأيت حمامـة على بعض الغصـون، تنتحب انتحاب المحـزون؛ أخذت عن يعقـوب فنـون الأحـزان، وتعلمت من اسحق[3] أنـواع الألحـان، ذهبي

---

(١) النعامى: ريح الجنوب.

(٢) الرباب: السحاب الأبيض وآلة لهو لها أوتار يضرب بها.

(٣) اسحق بن إبراهيم الموصلي نسبه في الفرس. ولد اسحق سنة ١٥٠ هجرية ونشأ في حجر والده إبراهيم فحذق الغناء واتصل بالخلفاء ورجال الحكومة في العصر العباسي وكانت له مكانة عالية في العلم والأدب والنبل وعلو الهمة. وصفه أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني بقوله: (موضعه من العلم ومكانه من الأدب ومحله من الرواية وتقدمه في الشعر ومنزلته في سائر المحاسن أشهر من أن يدل عليها بوصف وسترى في مطاوي ما نورده عليك من أحاديثه ونوادره أنه ما عالج علماً من العلوم أو فناً من الفنون إلا برع فيه وبرز).
وروي عن المأمون أنه قال: (لولا ما سبق لاسحق على ألسنة الناس وشهرته عندهم بالغناء لوليته القضاء بحضرتي فإنه أولى به وأعف وأصدق وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة). =

طوقها، ياقوتي عنقها، مخلبها يخلب القلوب، وساقها بالمرجان مخضوب:

لم أنس أحمر كفها لما غدت تشدو على مخضر غصن أملد
فكأنها كف من المرجان قد قبضت براحتها قضيب زبرجد

أو كأنها كفكفت نجيع[1] المدامع عند وكفها، ومحت رسمه فأثر في كفها تصفق بالجناحين، وتشبب لأيام الرقمتين، تغرد في الدجى، وتهيم في البهيم فتسلب ذا الحجى[2]، لا يدخل تحت طوقها الكتمان، ولا تفارق الشجو والأحزان، تفاكه أهل الصبابة، ومدامعها في الخدود منسابة، تبرهن بها على دعواها، وتقيم الشهادة على هواها، تشدو على الأغصان، وتطوي ضلوعها على النيران، يثنيها الجوى من بين الأطيار، وتغني في الأسحار على الأشجار، تبكي فتيل الأحزان، وتنوح على مقرح الأجفان:

فالورق تسعدني برجع حنينها وجداً وأسعدها برجع حنيني
لا نستوي إغناء قلب فارغ كأنين قلب بالأسى مشحون
لا بل قضت إني قضيت وأدمعي غسلي فتلك بسجعها ترثيني

فتقدمت إليها، وأفضت حديثي عليها، وقلت أيها الورقا خففي النواح، فقد أثخنت قلبي بالجراح، وأطلقت دموع آماق، وشببت إذ شببت

= وكان جيد الشعر جزل القول يخرس الناطق إذا نطق ويحير السامع إذا تحدث فمن وشيه الرقيق وسلافه الرحيق قوله:

هل إلى أن تنام عيني سبيل إن عهدي بالنوم عهد طويل
غاب عني من لا أسمِّي فعيني كل يوم وجداً عليه تسيل
إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

ومحاسنه كثيرة مثبوتة في كتب الأدب وكانت وفاته في شهر رمضان سنة ٢٣٥.

(١) النجيع: الدم المائل إلى السواد.

(٢) الحجي: هو العقل والفطنة ومنه قول ابن زيدون من قصيدة له:

ليس الركون إلى الدنيا دليل حجى فإنها دول أيامها متع

نـار أشواقي، ولحنت في ألحـانك، لمـا أعربت بهـا المضمـر من أشجـانـك؛ وأغريت طرفي بالأرق، وأصليت ضلوعي نار الحرق، أنى تباريني في الـوجد والهيام، وتطارحيني فنون الكمد والغـرام، وأنا قـد جعلت أمري في الهـوى سرّا، وأنت بحت بهواك لمن في حماك طرّا، وأنا فارقت غصني وأنت عـانقت قدود الأغصان الـرشاق، وأنـا أملي هـواي من خاطـري وأنت من الأوراق، ولو كان ما تدعينه حقاً، ما وضعت على الجيد طوقاً، وتغنيت على العيدان، وسكنت من الرياض جنة ذات فنون وأفنان، وخضبت الكف بدم العشاق، وطلقت الأسى عـلى الإطـلاق، وتحليت بلؤلؤ النـدى، وتجليـت في مخضر الملابس والردا:

نسب الناس للحمامـة حزنـاً وأراها في الحزن ليست هنالك
طوقت جيدها وخضبت الكف وغنت وما الحزين كذلك

وقلت لها قد قلَّ صبري، وحـرج من الفراق صـدري؛ فهل تسمحـين بعـارية جَنـاح، فليس عليك في ذلـك جُناح؛ لعـلي أبلغ سفـح الأحبـاب، وأجاور ساكني الخيام والأطناب، فقـد نادمت حتفي؛ وفقـدت إلفي، ثم ما برحت أقطع بحر الحندس بسفن خـطابها، وأسلك معهـا في سلك أربابهـا، وأنصت لترجيعها في أعشـاشها وأقفـاصها، وأنصب حبل الحيل لاقتناصها، أسدد عن قوس الهلال حديد السهام؛ وأتوصل بإلانة العبـارة لنيل المـرام، وهي تـرتقي أعلا الشجـر، وتتقي بمراعـاتي بالنـظر؛ خوفـاً من أن تقـع في شبـاك الخدائـع، وحذراً من سيـوف الحيلة القواطـع، إلى أن حـدقت نحـو حـديقة السـما، وأوردت إنسـان عيني نهر المجـرة الـذي طـما، وإذا نـرجس الشهب قد ذوى، ومطرف[1] الظلمة قد انطوى، وذنب سـرحان[2] الفجـر

(١) المطرف مثلث الميم: الرداء من الخز وهو ما جعل في طرفيه علماً وجمعه مطارف.
(٢) ذنب السرحان: الفجر الكاذب.

قد تسرح وجفن الشرق بعد الانطباق تفتح، وانساب غدير الصباح، وتضوع كافور الفلق وفاح، ولاح للعيون بياض ثغر الآقاح، وغمض طرف السهى بعد السهاد، واندك من أركان الليل العماد:

وكف الصبح تلقط ما تبدى بجيد الليل من درر النجوم

وطار غدافي[1] الظلام، ومدت الشمس عنقها لرشف ريق الطل من ثغر زهر الكمام، وقطف عنقود الثريا من روضته، واستكمل الذراع ذرع شقته، وخطرت نسيم البكر، وترنمت الطيور في الشجر:

وقام في الدوح لنعي الدجى حمائم تطربنا بالصياح
مذ ولد الصبح ومات الدجى صاحت فلم ندر غنا أم نواح

ووهى جلد الغسق فلم يبق تحته طائل، وبدت الغزالة تجر من الأشعة بالسلاسل:

فما طويت به شبك الدراري إلى أن أظفرتنا بالغزالة

فقدست من لم يشمله فِنى ولا فَنا، فالق الأصباح وجاعل الليل سكنا.

---

(١) الغدافي: شديد السواد.

الفصل الثالث

في السيل

أشار إلي بعض أخداني، في يوم ثمر المسرة فيه داني، والأفراح متوالية، ورتبة الانشراح متعالية، والنفوس مسرورة، ومجالس الأنس بسكنه معمورة، أن أحضر مقامه، وأقبل إكرامه، لندير الأحاديث بيننا، ونجتني من غصن الاجتماع غض المنى، نتنادم ولا نتندم، ونجعل وقت اللذة هو المقدم، فشمرت إلى إجابته ساعياً، ولبيت داعيه واعياً، وخطرفت[1] إليه على عجل، وتلقيت مقالته بأجل، وأتيت إلى منزل بدره وشمسه، وانتهيت إلى معقل لذته وأنسه، فتلقاني بالقبول والإقبال، واستبشر لحضوري استبشار الروض للغيث الهطال:

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ثم لما استقريت جلا لنا أسمر القهوة في بياض الفناجين، يحاكي دخانها في الكأس هدب عيون العين:

لله محكم قهوة تجلى لنا في أبيض الصيني طاب شرابها
فكأنما هي مقلة مكحولة ودخانها من فوقها أهدابها

(١) خطرف: أسرع إليه في مشيه والخطريف كقنديل السريع وكعصفور السريع العنق بفتح النون والمتخطرف الواسع الخلق الرحب الذراع.

ثم قال لي هل لـك أن تتنزه في روضـة أريضة، نسيمهـا عليلة وأجفان نرجسها مريضة؛ تجلو الصدا، وترد من الأحزان الردى؛ حديقة غنّـا، غرّيـد الطيور بأغصانها غنىً، أثنت عليهـا الصبا بلسـان من النشر طيبة الأنفـاس، وبعثت منها برداً وسـلاماً تـطوف به عـلى الجلاس، يجـول بأكنـافها كـل نهر منساب، وتنحدر على خدود وردها دمع عيون السحاب:

ولا يـزال حنـين النبت تـرضعـه حوامل المـزن في أحشاء أرضيهـا

فقلت الأمر إليك، وزمام طاعتي في يديك، رأيك محكم العرى، فانظر ماذا ترى، فقال: أرى الخروج إلى بديع تلك الحـديقة، والنهـوض الى التمتع من الثمـار الأنيقة، ثم أمـر بعض الخدام بـإحضار الجيـاد للركوب عليهـا، والاستعانة بها على الوصول إليهـا، فحضرت الجـرد العتاق، التي لا تبـاريها النسيم في اللحـاق، وعليها خلع من أجـود الملابس، يكـاد لنعومتهـا أن لا يتمكن من اقتعـادها الفـارس، كأنها تسبح من حليها في لـج من لجين، أو تسيح عليها عين من العين[1] فامتطينا صهوات تلك السـلاهب[2]، وأطلقنا أعنتهـا لنيل المـطالب، فمشينا في واد مـرجـه أخضر، نسجت وشيـه أيـدي المطر، نار شقائقه بالماء مؤتلفة، وأزهاره في منظرها مختلفة:

مـا بـين منثـور أقـام ونـرجس مـع أقحـوان وصفـه لا يـدرك
هـذا يشـير بـإصبـع وعيـون ذا تـرنـو إلي وثغـر هـذا يضحـك

نسيمه معطرة، وفصوص فيروزج أغصانه بنـظار البهار مسمـرة؛ دوحه يرقص لتصفيق الجداول، وثمره قريب من يد المتنـاول؛ دمع الندى في جفون زهره يجول، والحمام تغرد بين أوراقه وتقول:

---

(١) هي الدوائر الرقيقة على الجلد.
(٢) السلهب: الطويل جمعه سلاهب وسلاهبة.

تبسم ثغر الزهر عن شنب القطر ودب عذار الظل في وجنة النهر

أترجُّه خرط من النضار، وبطاحه سفك فيها دم الجلنار[1]، عذَّر بالآس، وتقلد من الأقاح بعقود الماس، وبه سفرجل؛ إن سفر نجمه من الأشجار جلّ، رائحته مسكية؛ وأنفاسه عنبرية، صورته كالعاشق، وعرفه يذكر بالأحبة كل ناشق، وكثير من أنواع الزهور والرياحين؛ التي لا تخلو منها الرياحين، فمن أخضر كالعذار، وأبيض كثنايا الغيد عند الافترار، وأحمر كالوجنة المصبوغة بالعندم[2]؛ وأصفر كلون المتيم؛ وأسود كعيون الرداح؛ التي ليس عليها في قبض النفوس جناح، ومن ورق منعم، وطل كاللؤلؤ المنظم:

والطل في سلك الغصون كلؤلؤ رطب تصافحه النسيم فيسقط
والطير يقرأ والغدير صحيفة والريح تكتب والغمامة تنقط[3]

فأوينا الى ظل وارف، وعمدنا إلى تحت شجرة عليها طير السعادة واقف، لا نترقب حدوث الوجل ولا نسمع المنادي من الطيور والأنهار لكثرة الزجل، كل منا من ملابس الفرح كاس ومن الهموم عاري، والساقية والنهر حولنا جارية وجاري، كأنه لهذم[4] جُرد من غمده، وتجاوز في قطع أسباب الانكاد غاية حده:

والنهر كالمِبرد يجلو الصدا ببرده عن قلب ظمآن

---

(١) الجلنار: بضم الجيم وفتح اللام المشددة: زهر الرمان.

(٢) العندم نبات يصبغ به يقال له دم الأخوين أو البقم ومنه قوله:

فكرت ليلة وصلها في هجرها فجرت مدامع أعيني كالعندم
فطفقت أمسح مقلتي في نحرها من عادة الكافور إمساك الدم

(٣) هذه لابن الساعاتي المتوفى سنة ٦٠٤ بالقاهرة وأولها:

بتنا وعمر الليل في غلوائه وله بنور الفجر فرع أشمط

(٤) اللهذم السيف.

فقال لي رفيقي: أيها النديم، الذي طباعه ألطف من النسيم، ما تحفظ في وصف الأنهار، وماذا تقول في حسن هذه الأشجار والأزهار، فقلت الخُبر يغني عن الخبر، وكيف أقول في شيء عيي منه اللسان وتحير البصر:

سقياً له روضاً قدود غصونه تختال في الأبراد من أوراقها
جُنت به ورق الحمام صبابة أو ما ترى الأغلال في أعناقها

فبينما نحن في افتضاض بكر البدائع، واستخبار نسيم الروض عن حال الحبيب المقاطع، نلهو بما يروق، ونتناول كؤوس المنادمة في الصبوح والغبوق[1]، إذ هبَّ حرجف[2] عاصف، ولاح على منازل الخيف برق خاطف، يذكي أوار[3] اللهب، ويقدح من الاشتياق زند العطب، يبتك بصارمه عرى الاصطبار، ويلدغ القلب بلسان من نار، يشجي العميد، ويلقي إنسان العين في بحر الدمع المديد، يبكي إذا تبسم، ويذيب القلب الصلدم[4]، ويمزق ثوب الوقار الفلقم، يثير قديم الهوى، ويبيد خميس الجلد والقوى:

يا بارقاً بأعالي الرقمتين[5] شرى لقد حكيت ولكن فاتك الشنب[6]

---

(١) الغبوق كصبور: ما يشرب بالعشي وغبقه سقاه فاغتبق.

(٢) الحرجف: الريح الباردة الشديدة الهبوب، قال الفرزدق:

إذا اغبر آفاق السماء وهتكت ستور بيوت الحي نكباء حرجف

(٣) الأوار: التوهج قال المنخل اليشكري:

لا تسألي عن جل ما لي وانظري كرمي وخيري
وفوارس كأوار حر النار أحلاس الذكور

(٤) الصلدم: الشديد.

(٥) الرقمتين: من أسماء الموضع التي افتن الشعراء وأطلقوا لخيالهم العنان في وصفها فمن ذلك قول ابن الخياط:

وبالجزع حيٌّ كل ما عنَّ ذكرهم أمات الهوى مني فؤادي وأحياه
تمنيتهم بالرقمتين ودارهم بوادي الغضى بأبعد ما أتمناه

أما خفوق فؤادي فهو عن سبب وعن خفوقك قل لي ما هو السبب

وما زال يسوق جحافل السحاب على الوهاد، ويقودها بسلاسل العهاد، ويضرب ضخم عنقها، ويهديها إلى أوضح طرقها، وينثر عقودها المنتظمة من لآلي القطر على الأقطار، ويقدح بواري زنده أحشاءها فتجود بالأمطار، والرعد يزجرها بصوته الفازع، ويحثها على المشي المسارع، يزأر عليها زئير الأسد، ويجمع منها ما شرد، وهي ترفل في حلتها الدكنا[1]، وتمشي مشي الهوينا:

والغيث كالملْك يرتج الوجود له والبرق راياته والرعد جاويش

حتى بلغت إلى منتزهنا الخصيب، وطنبت على أرجاء مقامنا الذي راق لكل أديب، ونشرت مطرفها عليه، وحثت نجبها من بعد إليه؛ فجادت بلؤلؤها اليقق[2]، وأخمدت برذاذها[3] جمر كل قلب قد احترق، وكللت تيجان الدوح الباسق، وطرزت ديباج السوح الرائق، وقلدت من جوهر نداها جيد الأغصان، وجمعت بين مائها ونار شقائق النعمان[4]، ونقطت ما كتبته في صحيفة الغدير أيدي الشمال، واستمرت على بكائها في الغدو والآصال:

ترى لحنيني أم حنين الحمائم جرت فحكت دمعي دموع الغمائم

---

(١) هذه من قصيدة لابن الخيمى مطلعها:

يا مطلب ليس لي في غيره أرب إليك آل التقصي وانتهى الطلب

(٢) الدكنا: المائلة إلى السواد.

(٣) يقق ككتف: شديد البيان.

(٤) الرذاذ: المطر الخفيف.

(٥) شقائق النعمان: نبات أحمر الزهر.

فسالت الأباطح، وانقطع الاتصال بالصمادح[1]، وأضحى الماء جاريا، واحتمل السيل زبداً رابيا، وتحركت الأكم والجبال الشوامخ، وتزلزلت أقدام الحيطان الرواسخ؛ والسيل يسرع السير، حتى كاد أن يتقدم الطير، يتدرب في الأودية، ويزحزح الأندية، يضيق منه الفضاء الدهمج[2] وتخوض منه الرياض في اللجج، تغص بشرابه الوعور، وتكاد منه الأرض بسكانها أن تمور، يدك العامر، ويبهر الناظر:

حتى إذا بهر الأباطح والربى نظرت إليه بأعين النوار

بلغ من الأشجار أعلى القمم، ومشى على بساط الروض بغير قدم، وافترس الوحوش في غابها، وبدا في يومه الذي كيوم الوغى بها، وتحلى بدرر زبده النظيم، وما برح في كل واد يهيم، يسبح ويسيح ويروح فيريح:

يتابع الخضر في شريعته فاعجب له إن أمره عجب
إذا لقته السفين يخرقها وهو لعمر الغلام ينتهب
لكنه في الجدار خالفه يزلزل الجدر وهو منتصب
ما زال ما سار في تقلبه وهو على ذاك ليس ينقلب

ثم بعد ذلك تمزق صوب الغمام، وغاض الماء بعد مجاوزته الأكام، وأماطت الشمس من السحاب خمارها المذهب بالبروق اللمَّع، وابتسمت وعيون النور تبكي بدموع همَّع، وطلت بنضارها لجين الجدول الصافي، وجددت برد الأنوار الضافي، وضحكت لها الأرجاء بثغر من البرد نظيم، وانتشر من الأزهار عطر الشميم، فحمدنا من لا تدركه العيون، القائل للشيء كن فيكون، المودع في قراطيس السواري جمان قطرها، (الذي أنزل

(١) الصمادح: الطريق الواضحة.
(٢) الفضاء الدهمج، الواسع السهل والعظيم الخلق من كل شيء.

من السماء ماء فسالت أودية بقدرها)؛ ولما انقضى مجلس الاجتماع؛ وحان الفراق والوداع، وجنحت الشمس للغروب عن الأبصار، ورفعت مجرور ذيلها عن الأقطار:

وأمسى أصيل الشمس ملقى من الضنى على فرش الأزهار في آخر العمر
بكته حمامات الأراك وشققت عليه الصبا أثواب روضاتها النضر

فتأهبنا للانتقال عن المقيل، وركبنا خيول الرحيل، ولثمنا تراب تلك المعاهد المأنوسة، ولبسنا دروع الاحتمال لنوائب الدهر المحسوسة، وأضرم كل منا نار ضلوعه، وقال مخاطباً لدموعه:

ويا جواري دموعي يوم فرقتنا على خدودي بسم الله مجراك

وحيينا تلك الملاعب، وأغدقنا العبرات على تلك المشارب، وأودعنا العقول الذهاب، وقلنا رعياً لأيام اللهو والشباب:

وقمنا وسلمنا على الدوح كرهة فردت علينا بالرؤوس غصونه

الفصل الرابع
في الغدير

إجتمعت بشخص من السيارة، قد قضى من السياحة أوطاره، فقلت له: أخبرني بأغرب ما رأيت في الاغتراب، وأعجب ما وقفت عليه من العجاب، فقال: لم أر مثل غدير، وردت ماءه النمير، والهاجرة قد واصلت حرها، والسماء قد منعت عن الأرض قطرها:

والطير من مستبشر ضاحك فيه ومن مكتئب نادب
وصادح أنساً إلى حاضر وهاتف شوقاً إلى غائب

والعرامس[1] حوله كارعة، والطيور تلم إلى ناديه مسارعة، والوحوش تحشر إليه، والنسيم تنسج درعها عليه، وتصقل صارمه، وتنقي مواخره وقوادمه، وجوانبه خافقة، وأطرافه مضطربة ناطقة، ديباج شطه من الخضَر، وحصباؤه من الدرر، قلبه صافي، وزهره يضحك إلى وجه الموافي:

عاينته مثل الحسام وظله يحكي الصدا والريح مثل الصيقل

يذهب منظره بالهموم، ويزيل عن نازليه الكلوم، ويجذب الأفراح، ويطاوع الرياح، ويروي الصدا، ويجود على الأفئدة بالندى، ويسكر

(١) العرامس: الناقة الصلبة وكعماس الماضي الطريق.

بشرابه، ويعطر الجنوب بترابه، ويمثل للوارد شخصه، ويريه كالمرآة كماله ونقصه، إذا لاح به الهلال مشرقاً، خلته في بحره العذب زورقا، وإن توشحت في السماء النجوم، حسبتها في لجة تعوم:

يوهم ذا العين البصيرة أنه يرى ظاهر الأفلاك في باطن الأرض

أشبه وجوه الحسان، فطرفه من النرجس وعذاره من الريحان، ووجناته من شقائق النعمان، وثناياه من الأقاح، وريقه من العذب القراح، أديمه ليِّن، وقعره من صفائه بيِّن، ولوحه لامع كالأسياف، وأمواجه في كنافها كالأرداف، كرعناه لما ظمئت الأفئدة، وقصدناه لما أحسسنا نار الجوانح متقدة:

ولما احتمت عني الغزالة في السما وعزَّ على قناصها أن تنالها
نصبنا شباك الماء في الأرض حيلة عليها فلم نقدر فصدنا خيالها

كأنه سوالف غلام صقيلة[1]، قبل أن يدب نمل عذاره في وجنته الأسيلة، تتحدر إليه الأنهار، وتوافيه بما ألقت إليها يد النسيم من قلائد الأزهار:

ونهر رق بالأهواء حتى غدى طوع النسيم بكل أمر
إذا سرقت حلي الزهر ألقت إليه بها فيأخذها ويجري

وحوله حديقة، منظرها لطيف ونسيمها رقيقة، متنوعة اللباس، متضوعة الأنفاس:

---

(١) السوالف جمع سالفة، وهي صفحة العنق من ناحية مقدمها ومن الفرس هاديه أي ما تقدم من عنقه: والعذار أول ما ينبت من الشعر على العارض: والأسيل اللين الطويل والصقيل الأملس، وللمؤلف رحمه الله:

وعذول لج في عذلي إذ لم ير الخال على الخد الأسيل
لو رأى وجه حبيبي عاذلي لتفاصلنا على وجه جميل

أذن القمري فيها عند تهويم النجوم[1]
فانثنى الغصن يصلي بتحيات النسيم

ثمارها دانية، وأكف وفادها من كل شيء جانية، وأشجارها مورقة، وعيون نرجسها من الحياء مطرقة:

والغصن يحكي النون في ميلانه وخياله في الماء كالتنوين

ثم قال لي: هل لك في ورده، وقطع المفاوز لقصده؟ فقلت له: نعم، ثم صحبته ماشياً على القدم، متشوقاً إلى ما ذكر، قاطعاً موامي السفر، مجتهداً معه في السير، مسابقاً من الاشتياق للطير، زاجراً للمطي، عن السير البطي، قائلاً اللهم أنت الخلفية في الوطن، والمصاحب لمن ظعن، والموصل للمريد المراد، والمنيل الغرض للقصاد، حتى وصلناه آمنين، وأنخنا بسفحه النجب سالمين، فرأيت من ذلك الغدير، ما يرجع منه الطرف وهو قرير، وما يقصر عنه المادح ويعجز عن استكمال وصف محاسنه الشارح، فقضيت منه مأربا، وقلت له مخاطباً:

يا عين أمالي إذا استجمعت أني إلى مورد لقياك صاد

وشكرت أيادي الدليل، وفزت من القصد بكل جميل، وبهت طرفي لعجائبه، وشغل فكري بالتأمل في رغائبه، وأقمنا في تلك الربوع، إلى أن أذن الله لنا بالرجوع، فعمدنا حامدين له على ما وهب، شاكرين على ما منح من قضاء الأرب.

---

(١) التهويم: النوم القليل، وهوَّم الرجل هزّ رأسه من النعاس، قال البحتري:

وليلة هومنا على العيس أرسلت بطيف خيال يشبه الحق باطله
فلولا بياض الصبح طال تشبثي بعطفي غزال بت وهناً أغازله
وكم من يد الليل عندي حميدة وللصبح من خطب تذم غوائله

الفصل الخامس
في الحديقة

لما وفد الربيع وقد تزينت له الرياض، وغازلته بعيون نرجسها المراض، وقلدتها الأنواء عقد الزهر المنضود، وحاكت لها خلعة حاكت رقيق البرود، واخضرت الهضاب والبطاح، وطلعت شموس الانشراح، ورقت النسيم وزفت عروس النعيم:

وتحدث الماء الزلال مع الصفا فجرى النسيم عليه يسمع ما جرى
فكان فوق الماء وشياً ظاهراً وكان تحت الماء سراً مضمرا

واهتزت أعطاف الاجتماع، ولطفت مما شاهدته العين الطباع، وتواصل الأحباب، وتقطعت بين القلوب والهموم الأسباب، دعتني المسرة للمزار، ونادتني الحدائق بنغمات الهزار، فقمت إلى نحوها قاصدا، ولبيت داعيها مسعدا، وأخذت بكف الحبيب، وقد غفل عنا الرقيب، وقلت له: هل تسعد أيها البخيل؟ محباً قد كاد يفنى جسمه النحيل، إلى وصالك الذي هو المنى، وقربك الذي تجرعت لنيله كأس العنا؟ فقال: لا أرى شيئاً غير المبادرة، ولا أود إلا المنادمة والمسامرة، فمشينا طالبين سفحاً رحيبا، إلى أن وصلنا إلى حديقة دهماء تضوع درمكها طيباً[1]:

(١) تضوع الشيء: تحرك وانتشرت رائحته ومنه: =

روضــة مـن قــرقف أنهارهــا وغنـاء الـورق فيهـا بـارتفــاع
لا تلم أغصــانها إن سكــرت فهي مـا بـين شــراب وسمـاع

تدبجت أرجاؤها بالزهور، واصطخبت[1] على أغصانها الطيور:

الطير فـيـهـا مـغرم شـيـق وجدول الماء بها صــب

إمتد فضفاض ظلها، وتساقط من أكف ورقهـا لؤلؤ طلها، وفـرشت بها أرائك الأراك، واشتبكت رماح فروعها أي اشتباك:

والدوح تحسب كل غصن مزهر منه إذا شدت الحمـائم مزهـرا

تضرجت خدود شقيقها ووردها، وأكـرمتنا أزهـارها بنشـرها وبشـرها، وابتسمت تلك الـروضة بثغـر الأقـاح الشنيب، ومـدت معصم نهرهـا وهـو بكركم[2] الأصيل خضيب، وأجلستنا على عيون أزهارها الزاهرة، وأقعدتنـا على حلة نباتها الفاخرة:

قـد أتينا الـرياض حـين تجلت وتحلت من الـنـدى بجمــان
ورأينــا خــواتم الــزهــر لمــا سقـطت من أنـامـل الأغصـان

= تضوع مسكا بطن نعمان إن مشت به زينب في نسوة عطرات
وقامت تراءى يوم جمع فأفتنت برؤيتها من راح في عرفات
والدرمك: التراب الناعم، والقرقف: الخمر.

(١) بالخاء المعجمة من اصطخاب الطير وهواختلاط أصواتها.
(٢) الكركم: الزعفران الهندي، والأصيل من بعد العصر الى الغروب جمعه آصال وأُصُل وأصائل قال الشاعر:

أنظر إلى لون الأصيل كأنه لا شك لون مودع لفراق
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد خمشت خداً من الإشفاق

وقال لسان حالها: أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم يا أجلاء الأخلا، زورة من غير ميعاد سابق، ودنو من غير حاد ولا سائق:

ومالت بها الأغصان نحوي وسلمت وألقت على رأسي نثاراً من الزهر

ومشينا على فرش من خضريج[1] أوراق، وارتشفنا من رائق المحاورة غير مبالين إن تكدر ورد غيرنا أو راق، وقعدنا على جدولها، وأسمعنا صوت بلبلها:

فالورق قد غنت على عيدانها لحناً فأعربت الغرام المضمرا

فوجدناها قد احتوت من الزهر على أنواع متغايرة[2]، تتعثر اللسان دون وصفها حائرة، فمن ورد أحمر الأردان، أخضر الأوراق والأغصان، رتبته على غيره علية، وشوكته على سائر الأزهار قوية، كأنه وجنة خمشها[3] الخفر، وكادت تدمو من لطفها بالنظر، يدفع الأنامل عن اقتطافه بمخالب شوكه، ويزعم أنه من خد الحبيب منتظم في سلكه:

وتعرض الورد الجني لخده فأذاقه في الحال موتاً أحمرا

---

(١) الخضريج: المطبخة.

(٢) قد أبدع المؤلف في وصف أزاهير بستانه ولا إبداع الصفي حتى لتكاد وأنت تقرأه تبصر أغصانه وتقطف ثماره وتشم ريحانه وتراشقك بلحاظها جآذره وغزلانه، ومن أجمل ما جاء في وصف الزهور قول صفي الدين الحلي:

قد نشر الزنبق أعلامه وقال كل الزهر في خدمتي
لو لم أكن في الحسن سلطانه ما رفعت من دونه رايتي
فقهقه الورد به ساخراً وقال ما تحذر من سطوتي
وقال للسوسن ماذا الذي يقوله الأشنب في حضرتي
فامتعض الزنبق من قوله وقال للأزهار يا رفقتي
يكون هذا الجيش بي محدقاً ويضحك الورد على شيبتي

(٣) خمش الوجه خدشه ولطمه.

ومن أبيض ناصع، ومن نرجس ذابل، حسنه وافر كامل، يفاخر عيون الملاح، ويرنو إلى خد الشقيق فيتركه كالجراح.

كـأنـه ذهب من فـوق أعمـدة من الـزمـرد في أوراق كـافـور

ومن بنفسج أزرق، لا ينكر حسنه غير الأحمق، ارتفع مجلسه وسما، وحكى بلونه السما، يرفرف من مرور النسيم، ويزعم أنه يشاكل عذار الغلام الوسيم:

زعم البنفسج أنه كعذاره حسناً فسلّوا من قفاه لسانه

ومن بهار[1] أصفر، يبهت الناظر إليه ويبهر، عسجدي الجلباب، كأنه صورة عاشق في مجلس العتاب، أو دنانير من ذهب، ضربت بعد أن زال درنها وذهب:

سألت البهار الغض مالك أصفرا فقال لأن القلب مني راهب

ومن زنبق[2] كالكؤوس، ومنثور تتوق له النفوس، جواهره مختلفة الأشكال، وحسنه تضرب به الأمثال، وفل يفل جيش المسك الأذفر، ويجود بنشره المعطر، كأنه أنامل مخضوبة، من كف غانية رعبوبة[3]، ومن ريحان كالطرر، وأقحوان كالدرر، إلى غير ذلك من الأزهار، التي اختلف لونها في الأبصار، ومن الثمار على ما أينع، وبادر في طيبه وأسرع، وحلا في الأفواه طعماً، وتغاير لوناً وإسماً، والنهور فيها جارية، وعيونها صافية.

---

(١) البهار: نبت طيب الرائحة جعد له فقاحة صفراء تنبت أيام الربيع يقال له عين البقر.

(٢) الزنبق: دهن الياسمين وورد له رائحة الورد.

(٣) رعبوبه: ناعمة بيضاء جمعها رعابيب.

وعيونها كم قال هدب نباتها ما للنباتي[1] مثل سرح عيوني

كأن كل نهر لجين ذائب، أو طرس كاتب، أو سيف قاطع، أو جبين به بدر الجمال طالع، أو قطعة من الماس[2] الجميل، ثقبتها الغمامة بأبر الودق المستطيل:

وكأن ذاك النهر فيها معصم بيد النسيم منقش ومكتب

والطيور تغرد على دوحها، وتتردد إلى سوحها، بلابلها تبعث دفين البلابل، وتنوح بين أوراق الخمائل، وتذكر بمن نزح عن العين، وتشجي المهجور فتدينه إلى الحين:

هذي الحمايم في منابر أيكها تملي الهوى والطل يكتب في الورق
والقضب تخفض للسلام رؤوسها والوهر يرفع زائريه على الحدق

فتمتعنا بثمارها، وجنينا من أزهارها، وشدشدنا معاطف الأغصان وهي عوابث، وما لنا ثالث أنا ومن هو للنيرين ثالث، حبيب ثغره كحبب الكاس، وجبينه يسطع كالنبراس[3]:

---

(١) النباتي نسبة إلى النبات، وكان الشاعر الأديب جمال الدين بن نباتة كثير الافتنان والتصرف في اسمه وأنه مأخوذ من النبات أو من السكر النباتي وله وقد أهدى إلى صديق سكراً:

جدت وأفحمتني بما قد سمعت من لفظك المواتي
فاقبله ذا سكر بياض إن عجز السكر النباتي

(٢) الماس: من الأحجار الكريمة وقد غلط المجد من يقول الماس وأورد صاحب أقرب الموارد الكلمة في باب الهمزة وعند إيراده إياها في باب الميم قال وحقه أن يذكر في باب الهمزة خلافاً للمجد.

(٣) النبراس: المصباح ومنه:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

من الغيد لو كـان الملاح قصيـدة لكان سنا خديه للشمس مـطلعا

شمـائله لـطيفـة، وأردافـه ثقيلة وأردانـه حفيفـة، طـاف حـول عينيـه الـوطف[1]، وحكى البدر نـوراً وحاشـاه من الكلف، إذا كسر جفنه كسـرا، خضع له قيصر وكسرى.

وحـاجبه نـون الوقـايـة مـا وقت على شرطها فعل الجفون من الكسر

ريقه في روحه كالراح، وقوامه يخجل مثقفة الـرماح، أديمـه يكاد يقـطر من ماء النعيم، وخصره يحذر من الترف أن يعقده النسيم.

قد رق لي خصره المضني فناسبني فقلت خير الأمور الأنسب الوسط

يفـاخر الأقحـوان بالثنـايا، والنـرجس بعيونـه التي تسوق إلى عشـاقهـا المنايا، والورد والشقيق بخدوده، والسفرجل والرمان بنهوده، والمنثور بقلائده وعقوده، والتفاح بنكهته، والغصن بقده عند خطرته:

هو الغصن لكن بالهوى فيه خاطري على خطر لما مشى وتخطرا

والبنفسج بحلله الموشية، والأوراق بأرديته المحشية، وما زلت أتفكه في كـلا الجنتين، وهي الحـدائق ووجـه الـرشـا المصـون عن العـين، حتى دنـا الإرتحال، وتحول علينا ذلك الحـال، فرجعنـا إلى منزلنـا، وعدنـا إلى أهلنا، متـأسفين عـلى ما مـر بعد مـا حلا، محـزونين من الأوقـات عـلى مـا خـلا؛ فواوحشتاه لسالف الدهور، وآه على أيام اللهو والسرور:

آه واوحشتي لأحشاء قلبي وقليل قولي على البعد آها

---

(١) الوطف: محركة كثرة شعر الجبين والعينين.

الفصل السادس
في وصف الشاب

وفد عليَّ إلى منزلي، غلام هو عن العيوب خلي، بدر ما منازله غير الطرف والقلب، ولا دأبه غير إيجاب الأفئدة والسلب؛[1] أعربت عن السحر أعيانه، وإن كانت قد بنيت على الكسر أجفانه، إذا ادعى البدر بهجته دعي الأحمق، أو طعن البنفسج في حسن عذاره قيل له السنان بل العدو الأزرق، شهد قده أن كل صب برمحه قتيل، فقبلت شهادته في شرع الهوى لأنه غصن يمكن له التعديل[2]، فتفكرت في جلاله، وتأملت في جماله؛ وإذا له قامة هيفا، لها من الحسن سهم أوفى؛ تهتز كالرماح، وتميل عن محبها مع الرياح:

---

(١) السلب والإيجاب: من مصطلحات المناطقة فالكلية الإيجابية هي التي لم يدخل عليها ما يدل على النفي والسلبية هي المنفية.

(٢) في هذا التعديل خلاف فإن القاضي عبدالقادر بن أحمد النزيلي أعل رواية القد القويم لأنها عن النسيم بقوله:

ناديت من أهواه يا غصن النقي ... هل عادل القد القويم يميل
فأجاب من بالغصن شبه قامتي ... قلت النسيم رواه وهو عليل

وله:

سألت غصن البان عن قطعه ... وأي ذنب كان في حده
قال شكا الريم لقاضي الهوى ... أني سرقت الميل من قده

وحـاكمت النسيم عـلى مـرور بعـطفيـه فمـال مـع النسيـم

وجبين ساطع، به بدر الجمال طالع، تـدور الوجـوه حيث ما دار بـدره الذي فضح الشموس، كأنما هو قبلة الحسن أو مغناطيس النفوس:

جبينـه البـدر والمـريـخ وجنتـه وفي عذاريه ما في الليل من حبك

وحواجب مقرونة، المهج بها مفتونة، سوادها حالـك[1]، وقوسهـا لكل غضنفر[2] مالك:

في حـاجبيـه وعينيـه ومنـطقـه شبه من القسْيِ والأسهام والـوتر

وجفن تضرب بسيوفه الأمثال، وتخجـل من سهامـه النبال، عجبت لـه وقـد ظل متكسـراً، كيف أضحى على القلوب ظـالماً متجبـراً، عيـونـه عـلى البطش قوية، تزعم أنها البرية من سفك دم البرية:

وواحـربـاً ممن غـدوت بلحـظه قتيل الأسى ما بـين نصل ولهـذم
شهيـداً ترى لي فـوق وجنته دمـا روائحـه للمسـك واللون للدم

ووجنات هي بطراز العذار معرجة، وبدم الأفئدة مضرجة، وردها ناشر مطلول، وشقيقها بدم المحبين مبلول:

متـورد الـوجنـات مـا حييتـه إلا ارتـدى ثـوب الحيـاء مـوردا
ألقيت إكسـير اللحـاظ بخـده فقلبت فضـة وجنتيـه عسجدا[3]

---

(١) الحالك. الشديد السواد.

(٢) السيد الكريم والأسد.

(٣) الإكسير: ما يلقى على الفضة ونحوها تحيله ذهباً؛ من خرافات الأقدمين، والعسجد الذهب، يعني أنه ما حيا ذلك الوجه الجميل إلا احمر من الحياء وتوردت وجناه من الخجل، وألـطف من هذا وأبدع قول بعضهم:

نظرت إليه نظرة فتحيرت بدائع فكري في بديع صفاته =

وعذار يسبي العذارى، ويدع القلوب في ليله حيارى، ملمسه كالحرير وشكله كالليل فوق خد كالصبح منير، جعله بين الملاح كالعلم، وخطت حروفه بقلم الريحان فجلَّ الباري ماذا رقم:

قالوا آسل عنه أما شاهدت عارضه في الخد أخضر قلت النفس خضرا.

وثغر عذبت ريقته، وحسنت خلقته، به ثنايا كالنجوم، ولمىً تسكر منه الخرطوم، براق وضَّاح، كأنه عند الابتسام طلوع الصباح:

لا يعرف العطف إلا أن مبسمه يفتر عن درر الأسلاك في نسق

وخصر سقيم، منطقته مكللة بالدر اليتيم، عبث به النحول كالمضنى، وكاد كصبه أن يفنى، كأنه حين يبدو رقة وضنى، متيم عبثت فيه الصبابات فبادرت بالقيام إجلالاً لبدره، وسارعت إلى تقبيل كفه وثغره، ثم قعدنا للمحاورة، وجنينا من روض الأنس أزاهره، وبين أيدينا أنواع الزهور، ما بين ورد ونرجس ومنثور، والأطياب نافحة، والأطيار على الغصون صادحة، والسرور نديمنا، والسعد يدني منا المنى، والليل قد أرخى ذوائبه، والجو قد أظهر كواكبه:

والبدر في أفق السماء كدرهم ملقى على ديباجة زرقاء

= فأوما إليه الوهم أني أحبه فأثر ذاك الوهم في وجناته

ولإمام المتكلمين إبراهيم بن سيار النظام في المعنى وهو غاية في الإبداع نسيج وحده في لطف الخيال ودقة المعنى وحسن السبك وذلك قوله:

توهمه طرفي فآلم خده فصار مكان الوهم من نظري أثر
وصافحه كفي فآلم كفه فمن لمس كفي في أنامله عقر[1]
ومر بفكري خاطراً فجرحته ولم أر جسماً قط يجرحه الفكر
يمر فمن لين وحسن تعطف يقال به سكر وليس به سكر

(١) العقر: الجرح.

فلما تحققت لطف طباعه، وميلانه إلى حديث الرقايق واستماعه، فإنه يهتز إذا شاهد في الحمى برقا، ويلين إذا سمع تغريد الورقا:

يلين إلى أن يجرح الوهم خده وتغرق في ماء النعيم غلائله

سلبني ما شاهدت من سجيته، وملكته قلبي يفعل فيه بمشيته، وهمت في ليل حبه، ورضيت بذل الروح عوضاً عن قربه، وعلق فؤادي بهواه، وجعلته مقره ومثواه، وتمسكت بذيل العشق لأجله، وقنعت بطيفه فضلاً عن وصله، وأذبت حشاشتي بنار الهيَام، وقلت أنها برد وسلام.

وبعت رشادي بغي الهوى لأجلك يا طلعة المشتري

وأغرقت إنسان عيني في بحر دموعه، وأمرت قلبي أن يلازم طول خضوعه، ووردت مورد الحب والهوى، وطويت ضلوعي على نار الجوى:

فمن نار قلبي لو ترامت شرارة إلى الأفق ليلاً رد فحمته جمرا

وأغريت جسدي بالسقام، ونهيت مسمعي عن استماع الملام، ولبست خلع الخلاعة، ولازم قلبي ارتياعه، وزاد جمر غرامي في الالتهاب، وصرت حليف الشجون والانتحاب، إذا شممت برق الغور[1] وهو لامع، غصصت من الشجو بالمدامع:

من غص داوى بشرب الماء غصته فكيف يصنع من قد غص بالماء

فلما علم أني قد صرت به مفتونا، وبحبه صبًّا مرهونا، وأن عيونه قد ملكت قيادي، ونار خده قد قدحت واري زنادي، وعذاره قد قيدني بسلاسله، وقدَّه قد سلبني بتمائله، وثغره قد أسكرني بخمره، ومسك خاله قد رنحني بنشره، وقوس حاجبه قد أصابني سهامه، وأقحوان ثناياه قد أذابني ابتسامه، وعقيق مبسمه قد بهرني، وبلور عنقه قد أسرني، أطال

(١) الغور: القعر من كل شيء وكل ما انحدر مغرباً من تهامة.

الوقوف لديَّ، وأنعم بقربه علي:

وبات بدر الدجى سميري في ليلة أشرف الليالي
يملأ باللفظ والثنايا سمعي والطرف باللآلي

وغازلني بفاتر طرفه، ونزه عيوني في رياض ظرفه، وأمال عطفي بنسيم شمائله الرقيقة، وقطف لي من بستان أنسه نرجسه وشقيقه، واستقر في منزلي بدره الذي سلب ذوي النهى، وسمح بزورته الطويلة ولكنها:

زورة ما شفت غليلا ولكن علمت جمرة الفؤاد الوقودا[1]

ولما نوى النوى، وأراد الارتحال إلى العقيق واللوى، وهزته الأشواق إلى مسكنه، وجذبته أيدي الأسفار إلى وطنه، أبكاني فراقه وأشجاني، ونجَّش[2] عليَّ أحزاني وأشجاني، أنيني أيقظ من في مهاده، ودمع حزني أغرق حزَن[3] الحمى مع وهاده، أمسى حائراً في غسق الهموم، وساهراً يحرس بنفسج[4] السماء ونرجس النجوم:

كنت أرعى البدور حتى إذا ما فارقوني أمسيت أرعى النجوما

فلهفي على أيام الوصال، وآه على ليالي القرب التي مرت كالخيال، أسرعت في التفريق فما شفت، وبادرت بالمرور فما وفت، فيا نسيم الروض

---

(١) يقول: إن زورته الطويلة أعقبت اشتعال نار جواه وأسعرت جمر هواه عندما سل عليه سكين البين وارتحل إلى حيث لا تراه العين، ولعمري لقد أحسن من ادخر الدمع ليوم النوى كما فعل بعض المتيمين وإليك قوله:

لبكاء هذا اليوم صنت مدامعي وكذا العزيز لكل خطب يذخر
يا ساكني وادي العقيق فدتكمو عين مدامعها عقيق أحمر
بنتم فما استعذبت بعد حديثكم لفظاً ولم يحسن لعيني منظر

(٢) نجش الصيد: أثاره والنار أوقدها.

(٣) الحزن: المرتفع من الأرض، والوهاد المنخفض.

(٤) البنفسج: نبات زهره طيب الرائحة.

البارد؛ هل ينعم بإعادة اللقاء ذلك الغزال الشارد:

وهل من طريق لاجتماع كوانس بهم نجم أفراحي على الرمل طالع

فقد عبث بي الهيام، وأنحل جسمي الوجد والغرام، وأذاب فؤادي الأسف، وشارفت على الهلاك والتلف، وغزرت في الخد دمعتي، وسهرت في الليل مقلتي:

لي مقلة مذ غاب عنها بدرها[1] ترعى منازله عساها أن ترى
لولا انسكاب دموعها ودمائها ما كنت بين العاشقين مشهرا

وطال انتظاري لما لا يعود، وقنعت من الدهر بالوعود، وأبى قلبي الانقلاب، ودعوت صبري فما أجاب:

ولقد دعوت الصبر يوم ترحلوا ليعينني فدعوت غير سميع

وتعللت بعسى ولعل، ومنيت النفس بالأمل، وأردت من طرفي المنام فما هجع، وعذلت قلبي عن التذكر فما استمع:

وأقول للقلب الذي لا ينتهي عن حبه أبداً ولا يتجنب

---

(١) يقول: إنه مذ غاب عنه الحبيب لم تبرح العين عالقة بمنازله متطلعة الى رؤيته يغالب وجده ويكتم هواه لولا وشاية الجفون بتهطال الدماء وإرسال الدموع التي طالما باحت بأسرار النفوس ودخائل القلوب، فكانت لقوم سلوة وعزاء عند ثورة الوجد وقهر الصبابة. ولآخرين مثار حسرة، وداعية افتضاح وشهرة، كما يقول المؤلف، ولله العباس بن الأحنف حيث يقول:

لا جزى الله دمع عيني خيراً وجزى الله كل خير لساني
نمَّ دمعي فليس يكتم شيئاً ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طي فاستدلوا عليه بالعنوان

ولأبي نواس:

قد تسترت بالسكوت وبالإطراق جهدي فنمَّت العينان
تركتني الدموع نصب المشيرين وأحدوثة بكل مكان
ما أرى خاليين للسر إلا قلت ما يخلوان إلا بشاني

قد كدت أنك لا يسميك الورى قلبـاً لأنـك عنـه لا تتقلب[1]

إن مر بي النسيم أطلت التأوه والحنين، وإن غردت الورق أشجت قلبي الحزين، وإن لمع البرق أذكى في فؤادي النار، وإن حدا الحادي أظهر مني كامن الأسرار، لم أزل أكثر السؤال عن ساكني العقيق، وعيني لا تبرح تلازم التحديق إلى الطريق.

وأعين الزهر نحو الباب ناظرة وقد صغت أذن السوسان للطاق

---

(١) المعنى أنه لما أحس بثبات القلب على الحب وقدرته على الاحتفاظ بكل ما ارتسم في سويدائه من صور الوجد ولوعة الغرام: عرف المناسبة بين الاسم ومسماه وأنه إنما سمي قلب لعدم تقلبه ـ لا ـ (لأنه يتقلب).

وهنا قد يستحسن الوقوف للتأمل في معنى الكلمتين وهل في خيالات الشعراء ما يصح الاعتماد عليه في فهم أغوار النفس الانسانية وما تنطوي عليه من أغراض وتحويه من عواطف، وهل الذكرى والحنين من الصفات اللازمة للقلب؟ أم النسيان والسلو، أجل كلاهما يرمي إلى غرض صحيح وقد أثبت علماء النفس أن ذاكرة الحس تبلى ويذهب ما فيها ذهاب أمس الدابر؟

أما ذاكرة النفس فلا تبلى ولا يطرو عليها النسيان: وقد أجاد أمير الشعراء في مقالاته التي سماها أسواق الذهب عارض بها أطواق الذهب لجار الله حيث يقول: «من البر يا قلب أن تذكر، فمن بي إلى الفائت المندثر، ولا تأل ذكري ولا تدخر، فما زلت يا قلب تقضي الحقوق، وتذكر العهود فتجزيها التلفت والخفوق، حتى كأنك قلبان اثنان، قلب مع الماضي مختلف العنان، وقلب يساير ركب الزمان.

بعيشك قل لي من علمك رد الأحلام، ورجوع القهقرى في نواحي الأيام،؟! ومن رسم لك الإلمام، بدمنة عيش أو برسم غرام،؟ ومن علم الدم وصل الحبال (العهود)، وحمل اللحم ما يوهن الجبال، من الحنين إلى سالف خال، والبكاء على دارس بال،؟ وما سلطانك يا قلب حتى تدني الممعن في بعده، وتجده وإن تطاول العهد على فقده، ومن علمك أن تتحدث، وتقلب الأقدم والأحدث، وتذكر الصبا وأيامه، وأوديته وآرامه، وبساطه ومدامه، هو الله الذي صوّرك فأدقّك، وقدر خفوقك ودقّك، » الخ . .

فيا سقام جسمي فقداً له لا تبق ولا تذر، ويا جفوني لا تلازمي غير الأرق والسهر، ويا نار الغرام في الفؤاد، لا تبرحي في التهاب واتقاد:

ويا دمع فض وجداً بذكر خدودهم فإنك ماء الورد إن ذهب الورد

الفصل السابع
في وصف الشابة

جذبتني أيدي الأشواق، إلى أن أجيل في الحدائق الأحداق، فمضيت مستقبلاً بعض المنتزهات، التي تثير لرقة صباها الصبابات، فقعدت أقرأ من طرس نهرها حواشي النبات:

أيا حسنها روضة قد غدا جنوني فنوناً بأفنانها
أتى الماء فيها على رأسه لتقبيل أقدام أغصانها

والوُرق تملي غرامها من الوَرق، والزهر شاخص الحدق؛ وعيون النرجس معتلة، والبقاع مخضرة مخضلة، ينتثر عليها الطل كدمع العشاق، وتخطر بها الرياح كالقلب الخفاق، والنسيم تروي حديث سقمها عن خصر الحبيب وجفنه، وتسند لطفها وعطرها إلى شمائله وردنه، وتقبل عذار الآس، وتمر رقيقة الجسم والأنفاس:

ومرَّ بيَ النسيم فرقَّ حتى كأني قد شكوت إليه ما بي

والغصن يتمايل من الغرام ويترنح كشارب المدام، بعد أن لبس ديباج ورقه، ووضع طوق الزهر على عنقه:

وأصابه مثل التوسوس بالصبا فغدا عليه هزاره يتلو الرقى

والطيور تترجم عن النسيم ما نقلته من الأحباب، وتشجي كل نازح

بالانتحاب، والشمس تمسح بردائها دموع الأمطار، من عيون النَور وخدود الجلنار؛ فابتهجت لذلك المنظر الباهي، وانشرحت إذ شاهدت الروض في برده وهو زاهي:

والشمس قد ألقت طرازاً مذهباً من فوق نهر مثل كمّ أزرقا

ولم ألبث إلا بمقدار انطباق الجفن وانفتاحه، بعد أن أخذ القلب في انشراحه؛ حتى رأيت الأغصان قد خجلت واستترت بالورق، وشاهدت الأترج والسفرجل والنهار قد اصفرَّ من الفرق، والنرجس قد بهت طرفه، والورد قد احمرَّ خده وضاع عرفه، فأرسلت طرفي إلى منتهى الحديقة، فرمقت شابة قد أقبلت تتأود في غلائلها الرقيقة، تمرح في مشيها فتتعثر بأطراف الحلل، وتظهر زينتها فلا توصف بالتقصير والخلل، ظبية عوهج[1] خدلّجة تخطر من التيه ساحبة فضل بردها الهبرج، بهكلة خرعوبة[2] علطميس رعبوبة، صنتع[3] سحلوت، عانكٌ قوامها سمروت، رهيدة[4] غانية، جميلة زاهية؛ شطبة[5] غادة، حسنها خارق للعادة؛ جارية رطيبة، غصن سقى ماء الشبيبة، لا تقنع بالنجوم أن تكون قلائد لجيدها، ولا نثاراً

---

(١) العوهج طويلة العنق: خدلجة مشددة اللام: المرأة الممتلئة الذراعين والساقين: بردها الهبرج: المشي السريع الخفيف والمختال والمخلط في مشيته. والضخم السمين والموشى من الثياب ومنه:

يتبعن ذيالاً موشى هبرجا فهن يعكفن به إذا حجا

(٢) المراد الغضة الناعمة كالبهكنة، والخرعوب: الشابة الحسنة الخلق الرخصة أو البيضاء اللينة الجسيمة: والعلطميس الحسنة الخلقة اللحيمة الرقيقة العظيمة العظم والقوام: والرعبوبة، البيضاء الناعمة.

(٣) الصنتع بالعين المهملة: الشاب القوي، والسحلوت ـ بالحاء المهملة كزنبور: المرأة الماجنة، والعابك بالنون المعجمة: المرأة الناشرة، والسمروت الطويل.

(٤) الرهيدة: الشابة الرخصة الناعمة.

(٥) الشطبة: السعفة الخضراء وبالكسر الجارية الحسنة الغضة الطويلة، والغادة المتثنية ليناً.

على أقدامها إذا مشت لزيارة عميدها:

وما رضيت سود الليالي ضفائراً عليها ولا أن الهلال لها ظفر

هضيمة الحشا، طرفها من أسفنط[1] ريقها قد انتشى، كم لها في حيها لفرط حبها من قتيل، بثينة حسن ما الصبر عنها جميل[2].

لا أرتضي بالشمس تشبيهاً لها والبدر بل لا أكتفي بالمكتفي

قمر اقتبست الغيد من بهجتها، فلذا لم تبرح لها في الاستخدام عند طلعتها، صفاء ماء محياها فلم تخالطه كدرة، وضعف جفنها فأرسلت سهامه على حين فترة؛ لها شكل حسن، زانه من دون أترابها العسن[3]، يجول نهر ساقها خلال خلخالها، وتغني لها إن تثنت حمائم أشلتها وأفلالها، تقلدت باللؤلؤ ولم تستح من ثغرها، وتختمت بالياقوت والماس ولم تكتف باوجانها وصدرها، إن رنت ردت كل طرف مبهوتا، وإن نكست قرطيها خلتهما هاروتاً وماروتا، مقنعة يتقنع بها المتيم، وجهها ربيع ووصلها محرم.

ذكرت فصغرها العذول جهالة حتى بدت للناظرين فكبَّرا

---

(١) الأسفنط: الخمر.

(٢) جميل العذري اشتهر بحب بثينة ابنة عمه ولذلك عرف بجميل بثينة، ومن جيد شعره فيها قوله:

ألا ليت ريعان الشباب جديد ودهراً تولى يا بثين يعود
فنغني كما كنا نكون وأنتمو قريب وإذ ما تبذلين زهيد

ومنها:

إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي من الحب قالت ثابت ويزيد
وإن قلت ردي بعض عقلي أعش به مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جئت طالباً ولا حبها فيما يبيد يبيد
جزتك الجوازي يا بثين ملامة إذا ما خليل بان وهو حميد
وقلت لها بيني وبينك فاعلمي من الله ميثاق له وعهود

(٣) العسن: الطول مع حسن الشعر والبياض.

لها قدّ قد قدَّ القلوب، وملد[1] بمثقفه الأفئدة قبل خرق الجيوب، لا يستطيع ابن رشيق[2] بإحاطة أوصافه البديعة، ولا يقابله الغصن إلا ويظهر لديه خضوعه، ناعم رطيب، متأود كالقضيب، غصن يخضع له الأسل، مزهو بالحلْي مؤرق بالحلل، لولا خوف جوارح لحظ ترسل السهام، لغنت عليه سواجع الحمام:

على قدها قلب المتيم طائر وفي شرك الأجفان بالسحر واقع

رمح يحدث في الجوانح الطعان، لولا أن مقلتها سوداء لقيل هي السنان، لم أر قبله غصناً أثمر بدرا، ولا جسماً من الماء حمل من القلب صخرا، أزرى بالأسمر المتمائل، وطال على الغصن فما بقي تحته طائل:

ومن عجب أني بعادل قدها أجن ودمع العين دوني المسلسل

وغدائر[3] بالغدر معروفة، وبالليل العظلم موصوفة، تقيد بخنبعها[4] الخصر السقيم، وتخط على الرمل أشكال الاجتماع بليلها البهيم، كأنما أنا

---

(١) الملد والملدان محركتين: الشباب والنعمة والاهتزاز.

(٢) ابن رشيق: أديب مشهور من أدباء المغرب له كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده وله شعر حسن منه قوله:

ولما بدا لي أنها لا تحبني وأن هواها ليس عني بمنجلي
تمنيت أن تهوى سواي لعلها تذوق صبابات الهوى فترق لي
فما كان إلا عن قليل واشغفت بحب غزال أدعج الطرف أكحل
وعذبها حتى أذاب فؤادها وذوقها طعم الهوى والتذلل
فقلت لها هذا بهذا فأطرقت حياء وقالت كل عائب ابتلي

وله:

إن كنت تنكر ما منك ابتليت به فإن برء سقامي عز مطلبه
أشر بعود من الكبريت نحو فمي وانظر إلى زفراتي كيف تلهبه

(٣) الغدائر جمع غديرة: وهي ضفائر الرأس، والعظلم كزبرج الليل المظلم وتعظلم الليل أظلم واسود جداً والعظلمة الظلمة.

(٤) الخنبعة كقنفذة: مقنعة صغيرة للمرأة ومشق ما بين الشاربين.

أملي لها شكواي من الغرام، وهي ترقمه في طرس الأرض بالأقلام، ذوائب تذيب، ربيعها من ماء الملاحة خصيب، غريبة حالكة هي للمحبين مالكة، كأنها لواء أسود، حملته ليعلم أنها بين الملاح علم مفرد، وبأطرافها عذب يثير العذاب، وتسلب القلب الذي هو بنار الهوى مذاب، حرير مشوب بالعسجد، لا يزال من شغفه بها يدور على القد:

وترسل شعراً لو رآه ابن أدهم لراح بظلماء الغرام محيرا[1]

وفرق لا فرق بينه وبين الصباح، إن ضلت العالم في ليل الشعر هداهم نوره الوضاح، كأنه من الصبح السافر، عموده المستبين الزاهر، وطرة سلبت الخلق طرا، وزينت بسينها[2] طرس الغرة الغرا، كأنها مبرد من سُبَج، أو ورق ريحان صغار تضوع بالأرج، وصدغ دبَّ عقربه[3] فلسع أهل الهوى، ودفع من مد كفه لجناء ورد الأوجان وقد نوى:

ولله أصداغ حكين ليالياً مضت فعلى الحالين هن سوالف

وجبين زاهر، طلعت شمسه ولم تمح ليل الغدائر، ساطع واضح الآيات، ظاهر الحجج والبينات، البدر يخضع لجماله، ويقر لبهجته وجلاله:

أعاين من محاسنه ودمعي طلوع الشمس في اليوم المطير

---

(١) إبراهيم بن الأدهم الزاهد المشهور وأحسن من هذا قول كثير:

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت كلامها خروا لعَزَّة ركعاً وسجودا

(٢) السين المراد بها الطرة ومنه قول الحريري (لو لم تبرز طرته السين، لما قنفشت الخمسين): والسبج جمع سبجة، كساء أسود.

(٣) عقارب الأصداغ: الشعر المتدلي ما بين العين والأذن شبهوه بالعقرب ومنه:

قالوا حبيبك ملسوع فقلت لهم من عقرب الصدغ أم من حية الشعر
قالوا بلى من أفاعي الأرض قلت لهم وكيف تسعى أفاعي الأرض للقمر

وحواجب لا يرتقي ابن هلال إلى خط نونها[1]، كم فوقت عن قوسها سهماً وما الغرض غير قلب مفتونها، كأنها محاريب تسجد نحوها وجوه العشاق، أو أسوار وضعت لتمنع الأفواه عن تقبيل الأحداق، وعيون هي المُنية وفيها المَنية، تحرس بصارمها ما حوته الثنية، السحر فيها يقظان، والجفن منها وسنان؛ ناشطة إلى القتال وهي كسلى، ومكحلة وهي كحلى:

زادت على كحل العيون تكحلا ويسم نصل السيف وهو قتول

لا تبلغ السيوف مضاء حدها، ولا تعد في سلك ندها، وكيف وهي التي تقوى على القتل مع الفتور، وتأمر القلوب بالهوى والسيف كما يقال مأمور، إن كسرت جفنها جزمت باستلاب الأرواح، وأدارت تلك الأحداق ما لا تديره الأقداح:

حظي من الدنيا هواي بجفنها يا شقوتي منها بحظ أسود

وخد أسيل منظره أنيق، حديث حسنه مسند إلى شقيق[2]، يعجز عن

---

(١) تشبيه الحاجب بالنون لطيف مستملح ومنه:

لا تقل لي لا فمكتوب على وجهك المشرق نوراً نعم
نونها الحاجب والعين بها طرفك الفتاك والميم الفم

(٢) هو سيف بن عبدالله بن الحرث بن نوفل: وابن الوردي هو زين الدين عمر كان شاعراً أديباً نحوياً فقيهاً مؤرخاً ولد بالمعرة سنة ٦٨٩ ومات بحلب سنة ٧٤٩ وله شعر متوسط، ومن أشهر شعره لاميته المشهورة في الحكم ومطلعها:

اعتزل ذكر الأغاني والغزل وقل الفصل وجانب من هزل

ومن شعره:

دهرنا أمسى ضنينا باللقاء حتى ضنينا
يا ليالي الوصل عودي واجمعينا أجمعينا

وله:

أنتم أحبائي وقد فعلتمو فعل العدا
حتى تركتم خبري في العالمين مبتدا

حصر محاسنه ابن الوردي الفصيح، فلا يبلغ شأو ما يستحقه من المديح، ورده الأحمر حمي ببيض الأجفان، من بديعه طباق الماء بالنيران، إن جال فيه ماء الخفر زاد جمره وقوداً، وإن رنت العيون تقلد من رشح العرق عقوداً، جل نار غرام الفؤاد من جلناره الفاقع، جلنار يهدي نشره القلوب إلى الهوى وهو ضائع، تفرج الكرب والطرف لما بدت رياضه، وتدفقت من ماء الوسامة حياضه:

لا شيء أعجب من تلهب خدها بالماء إلا حسنها وتعففي

وخال عمه الحسن والجمال، فهو من الملاحة غير خال[1]، نقطة كل الوسامة في شكلها، ما رأيت في الخدود الندية من حظي بمثلها، ولا تخيلت قبله خالاً عبد ناراً، وسكن من الأوجان[2] جنة جرت تحتها مئات الحسن

---

(١) الخال أخ الأم، والخال السحاب الذي لا مطر فيه والبرق والثوب الناعم، وشامة في البدن: وللقاضي العلامة الحسن بن أحمد بن عبدالله عاكش الضمدي قصيدة طويلة جمع فيها معاني الخال وهي كثيرة وأول هذه القصيدة:

نسيم الصبا هبت وقد لمع الخال فهزت غصون الروض إذ جاءها الخال
وغنى هزار الروض شجواً وصفقت أكف زهور الورد إذ رقص الخال

وقد عارض هذه القصيدة، السيدالعلامة الأديب أحمد بن محمد الضحوي بقصيدة سلك فيها مسلك عاكش قال فيها:

تبدت فخلنا أنه أومض الخال وماست فغار البان والرند والخال
يرنحها سكر الشبيبة والصبا ويظهر في أغصانها الزهو والخال

والأصل في هذا قصيدة لابن بطرس النصراني أولها:

أمن خدها الوردي أفتنك الخال فسح من الأجفان مدمعك الخال
وأومض برق من محيا جمالها لعينك أم من ثغرها أومض الخال

وعراضها للشريف موسى العاملي ومطلعها:

سقى الخال من نجد وسكانه الخال وأزهر في أكنافه الرند والخال
فلي بين هاتيك الربوع خريدة هواها لأحشائي وحق الهوى الخال

(٢) المعنى ان ذلك الخال المقيم على الوجنات الوردية كالعابد لنارها فهو لا يريم وقوفاً ولن يبرح عاكفاً، وقد أجاد العكوك في تشبيهه الخال براهب بيعة قطع الليل تهجداً فقال: =

أنهارا؛ كأن دينارى خدها وزنا فخف أحدهما عن الآخر، فوضع فوق الذي خف منهما قيراط من عنبر، أو كأنه مسمار من سبج مصنوع، سمر به صحن الخد الذهبي خوف الوقوع، أو كأن قلم التصوير مذ خط نون الحاجب المقرون، أعجم بنقطته تلك النون.

وخال شقيق الخد إن لم أمت به فلا أم لي إن كان ذاك ولا أب

وثغر يفتر لؤلؤه هزؤاً بعقود النحور، كأنما عني مبسمه الرسول بالحديث المشهور، وهو قوله من تختم بالعقيق[1] لم يزل في بركة وسرور، تحوم حول مورده طيور الخواطر، ومع عذوبة مائه فكم أظهر من الثنايا يتيم الجواهر، أظمأ إلى رشف مبسمه، وأشتاق إلى طول لثمه:

أسدُّ بطول اللثم فاها مخافة على ليلتي أن يهجم الثغر بالصبح

= وكأن ذاك الخال راهب بيعة قطع الدجى في ليله متعبدا
أو بلبل أضحى بروضة خده لولا جوارح مقلتيه لغردا

أو كأن صنجة من عنبر وضعت لحفظ الموازنة بين الخدين وفي تشبيه الخال بنقطة العنبر يقول بعض الأدباء:

له خال على صفحات خد كنقطة عنبر في صحن مرمر
وألحاظ بأسياف تنادي على عاصي الهوى الله أكبر

وللصفدي في تشبيهه بالمسمار:

دون عطف الصدغ خال سلب الصبر وبزه
فغدا قلبي رهيناً تحت مسمار ورزه

وبعض الأدباء يقول إن الخال نقطة ذال الصدغ:

نقطت صدغك ذالا فالويل من شكل ذلك
لو أن ذلك ذالي سجدت شكراً لذلك

(١) جاء في العقيق بعض أخبار انتقدها رجال الحديث منها: تختموا بالعقيق فإنه أول من شهد لله بالوحدانية، الخ وقد ضمن معنى الخبر الفقيه أحمد بن حسن بركات فقال:

من كان يعتقد الولاء لحيدر ويحب آل محمد تحقيقا
فليلبس الحجر العقيق فإنه حجر لآل محمد مخلوقا

ريق تـظمأ المهـج إلى رشفه، وتكـل مرهفـات القـرآئـح دون وصفـه، يفضح الفيهج[1] المعتق، ويزري بشراب السكر المروق، يقول لها راشفـه يا هذي، ماذى ريقة رائقة بل ماذى[2].

وأخبـــرني أتـــرابهـــا أن ريقـهـــا على ما حكى عـود الأراك لذيـذ

وعنق تغار منه الغزال، ويثنيه حال الالتفات الدلال.

وعنق قد استحسنت دمعي لأجله وفي عنق الحسناء يستحسن العقد

وصدر تنهد[3] فأبكى عشاقه، وترك القلوب من الإشفاق عليه خفـاقه، زانتـه نهود أوضحت مجاز الحسن بتحقيقهـا، وجذبت بحبهـا لب عشيقهـا، نقلت عن الـرمان أحـاديث جمـالهـا الـرقيق، كـأنها أكـر من البلور سمـرت بالعقيق، ومعصم يعصم الخاطر عن سواها ويجلب كل خلي إلى هواها، كأنه نهر منساب، أو لجين مذاب:

لهـا معصم لـولا السـوار يصـده إذا حسـرت أكمامهـا لجرى نهرا

وبنان بانت بحبها الأعذار، ونمَّ بها الوجد على الأسرار، ناعمة رطيبة، لم تزل من دم عشاقها خضيبة:

ظبي كأن بنانه من صبغه النقش المزرد

---

(١) الفيهج الخمر ومكياله.

(٢) الماذي العسل أو الأبيض منه.

(٣) تنهد ونهد صار ذا نهود: وللمولى العلامة الحسين بن عبدالقادر الكوكباني رحمه الله:

نهدت فانشق جيب «العنتري» وسبت مني فؤاداً قسوري
لا تلوموا واسألوا ما فعلت قبل هذا عبلة في عنتر

وألطف منه قول بعض المعاصرين:

ونهوداً أحكمت أزرارها كطيور حبست في قفص
تطلب الوثب ولا تسطيعه فهي والصياد رهن الغصص

سمك من البلور أمسك في شباك من زبرجد

وخصر فيه اختصار، له منطقة من الأبصار، يشكو جور الردف والغلائل[1]، ويغدو من لطيف نفس النسيم كالمتمائل.

وجهلت موضع خصرها من سقمه جهل العواذل من سقامي موضعي

أهدى لمحبيه السقام، وسلب بدقيقه حبات قلوب أهل الغرام، قد كاد لنحافته يوضع الخاتم فيه مكان الوشاح[2]، أو أن تعقده عند خطرتها الرياح:

سل خصرها عن طول ليلة شعرها إن السقيم بطول ليل عارف

وقد زانها من الحلي الفاتن، ما تبخل بمثله المعادن، تسجع طيوره على غصن قدها المياس، لم تضعه في جيدها إلا لازمه من الوجد بها الوسواس:

كم قال لي حليها لما رأى ولهي خذ في وقارك واتركني ووسواسي

حللها موشية بالعسجد، ولؤلؤها منتظم كثغرها المنضد، ومنطقتها لنحول الخصر واهية كذمامها، وأقراطها خافقة كقلب مستهامها.

كأن الثريا والهلال تقاسما جمالها من قرطها وسوارها

وشاحها قلق، لما به من حبها قد علق، وخلخالها صامت سكّيت، كأنه متيم أودع عقله التشتيت، أو كأنه لما شاهد جمالها الفائق، دهش فانعقدت

---

(١) الردف معروف، والغلائل واحدها غلالة بالكسر شعار تحت الثوب ومنه:

أقبلت في غلالة زرقاء لازودية كلون السماء
فتأملت في الغلالة ألقي قمر الصيف في ليالي الشتاء

وفي الردف يقول بعض الشعراء:

إن العزيز علي حقوك إنه بالردف حل منك لا يحمل
فخذي له جسمي ماكن وشاحه إن العليل بشكله يتعلل

(٢) الوشاح: أديم ينسج عريضاً ويرصع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقها وكشحها.

لسانه فليس بناطق، أو كأنه منصت لما ترويه عن الأقراط والأطواق سود الضفائر، ومستمع لما نقلته إليه من الأخبار والسرائر:

إذا ما اشتهى الخلخال أخبار قرطها فيا طيب ما تملي عليه الضفائر

عرف مسكها فائح الأريج، وردنها ساحر المنظر البهيج، مرآى أرديتها متنوع، وطيب شميمها من جيوبها متضوع.

وشى المسك إذ زارت فلا كانت الظبا ونم عليها احلي لا خلق التبر

فقمت إلى لقائها في الحال، وسألتها أن تدور بيننا كؤوس المقال، فجلست تستميلني بشمائل أرق من النسيم، وألذ من ثوب الصحة على جسد السقيم:

ثم قالت أنت عندي في الهوى مثل عيني صدقت لكن سقاما

وقد تفضل الكأس على الإبريق، بفضلة ما أرجعت من شرابها ممزوجاً بالريق، فحين خامره خجل لما وجده أعذب مما اشتمل عليه من المدام، فلذا استعجم عن النطق فرجع صوت فأفاء وتمتام، ثم قلت لها دمي لك حلال، فاحكمي بما شئت يا أخت الغزالة والغزال.

وطوِّلي من عذابي في هواك عسى يطول في الحشر إيقافي وإياك

وما زلت أجتني ورد أوجانها، وأقتطف نرجس أجفانها، إلى أن قامت مسرعة إلى الوداع، فطوت ما نشرناه من راية الفرح بالاجتماع، وتركت الجسم من سقامه كالعود، وأجرت الدمع في الخدود:

وكأن الحبيب يوم وداعي ودموعي للبين تحكي الفريدا
علق العقد فوق خدي وأوصى أن يخلا كذاك حتى يعودا

والنهار قد فال كافوره وكان طيب المنتشق، والليل قد عبق عنبره لما وضع على جمرة الشفق، والشمس قد فك من راحة السماء رهنها، واصفر

على الأرجاء لونها.

ما اصفر وجه الشمس عند غروبها إلا لفـرقـة حسـن ذاك المنـظر

فمشيت معها للتشييع، وقد غرق الفؤاد في بحر التصديع؛ فلولا خوفي من واشي النسيم أن ينم إلى العـواذل، ومن الـورد والشقيق أن يغـارا في الخمائل:

لأعـدت تفـاح الخـدود بنفسجـاً لثـماً وكـافـور الترايب عنبـرا

وقد زادت في الهيام والولوع، وابتسم جفنها بثنايا الدموع، فرأيت عجيبة من دمـع عيونها التي أذكـرت بسحـر بـابـل، وهي استقـطار مـاء الـورد من النرجس الذابل، غرقت شباك أهدابها المنصوبة لاقتناص أهـل الهوى في يم دمعتها، وتكلل ياقوت خدها بلؤلؤ عبرتها:

فلم أدر أي الـدر أنفس قيمـة أمـدمعها أم ثغـرهـا أم كـلامهـا

فتلهفت بعد بعدها لنور بدرها، وشببت للإبـرق واللوى وما ذاك سوى ثغرها وشعرها وأشجاني ذكر العـذيب وليس هو غـير ريقتها، وتـأسفت على العقيق وما هو غير شفتها:

أوَرِّي بذكر البان والرند والنقى وسفح اللوى والقصد في السر أنتُم

الفصل الثامن
في القرب والوصال

ولعت بمحبة شادن لطيف، كريم السجية شريف، البدر دونه في الإشراق، والظبي يقصر عنه في الجيد والأحداق، له قوام عادل، وعذار سائل:

وصدغان كالدالين ذا مهمل وذا بنقطة ذاك الخال قد صار معجما

وحواجب مقرونة، وخدود عن ابتذال وردها مصونة:

وثغر يكاد سنى برقه بأبصار عشاقه يذهب

وكان يواصلني في كل ساعة، حتى أبدى لي تجنبه وامتناعه، فحرج صدري وضاق، ومنعني الوجد عن المنام وعاق، وما زلت صباً يصب صيِّب دموعه، ويضرم على أيام القرب نار ضلوعه:

فإن بكى في قفار خلتها لججاً وإن تنفس عادت كلها يبسا

ومع ذلك فإني جنحت إلى الاحتمال، وقبلت منه كثرة المطال، وتلقيت فعاله بصدر رحيب وسيع، وصبرت منه على صده الشنيع:

علماً بأن اصطباري معقب فرجاً فأضيق الأمر إن فكرت أوسعه

أعلل بالأماني النفس، وأقول لعلها قد تذهب أيام النحس، وأرتقب

الوصل وأقترب، وأنادي الدهر السالف وإن لم يجب:

سود الليالي به سرت ولو ظهرت في حسن وجه زماني كن خيلانا

والحبيب مساعد بقربه، وراحم متيم حبه، فما استفدت من أيام التلاقي، إلا تأسفي عليها في عمري الباقي:

لا واخذ الله ليالي اللقا فإنها أصل الأسى الموجع

حتى عطف الزمان، وأراد أن يعيد لي الوصل كما كان، ونشقت روح الفرج من كربي، وعلمت أن قد غفر لي عند من فتنت به ذنبي، فلم أشعر في بعض الليالي، إلا ورسوله قد أتى لي:

وافى وللظلماء بحر أسود ملأ الفضاء من الكواكب جوهرا

وقال لي: قد أسعدك دهرك من بين الملا، وجاء بالبشارة لصب يتقلا بنار القلا، ومشى إلي وهو يمرح تيهاً، وناولني قطعة من الرق مكتوب فيها:

أنعم فإن الدوح يا مالكي حمل من أجلك ما لا يطيق
يرقبك الطير على غصنه وأعين الأزهار نحو الطريق

فزاد استبشاري، ونهضت مطرحاً قراري، وسعيت على الراس، فلما أتيته قابلني بالاياس، ومسك الليل قد تضوع وروض السماء بأزهار النجوم قد توشع[1]:

والبدر منتصب ما بين أنجمه كأنه ملك في صدر موكبه

ووجدته في مقام أنيق، وروضة احمرت بها خدود الشقيق، وذبلت بها عيون النرجس، ولبست الغصون من ورقها حللاً كمخضرِّ الأطلس:

---

(١) الوشع بفتح فسكون: زهر البقول، والوشع ما يتفرق في الجبل من النبات واوشعت الأشجار أزهرت.

وروض قد أتت فيه معان تطيب به الندامى والمدام
تسامره النسيم إذا تغنت حمائمه وتسقيه الغمام

وبهر بهارها، وسحّت أنهارها، وانتظم طلها عقودا، ونسجت لها الغمامة برودا، وتضوع نسيمها بالند، وكادت قيان طيورها أن تلحن في ألحانها لما رأت يد الشمال قد:

كتبت سقيماً في صحيفة جدول لولا الغمامة صححته بنقطها

وذر على عنبر تربها كافور ألمّا، ورشح سفحها بعرق الرذاذ وإن لم تلم به الحمى، ودارت بأنامل غصونها كاسات الجلنار، وزاد عذار سوالف سواقيها في الإخضرار، وقد طال من وكر الزهَر، نسيم الصبا وهو بَليل الجناح بالمطر، والغصن يرشف من القطر زلالا، ويتثنى تيهاً ودلالا:

تثنى الغصن أعراضاً وعجباً على نهر يذوب أسىً عليه
فرقَّ له النسيم وجاء يسعى ملاطفه ومَيَّله إليه

فسامرته على زهور وأطياب، ونادمته على علوم وآداب، تارة يحييني بالنرجس والآس، وآونة يدير علي من رقيق حديثه الكاس، ويراميني بالورود، ويسمح لي بلثم الخدود، ويتبسم لي بثنايا كأنها اللآلي، ويتوجع لي من عدم وصالي، ويستغفر مما جنى، ويستعطف خاطري مُماجنا، ويتأسف على ما سلف من الجفا، ويقسم لي بأنه لا يعود إلى عدم الوفا:

خلونا فكانت عفة لا تعففاً وقد حجبت في الحي عنا الموانع
سلوا مضجعي عني وعنه فإننا رضنا بما يخبرن عنا المضاجع

وأنا أهز غصن قوامه بنسيم العتاب، وأبكي حال شكواي بدمع كوابل السحاب:

ولـرب لـيـل زارني متـلفـتـاً حـذراً كـما لفت الغـزال بجيـده
فضممتـه عنـد اللقـا حتى التقى دران: در مـدامـعي وعـقـوده

وأتوجع مما لاقيت، وأتأوه مما قاسيت، وأقـول حفظت عهـودي ولكنك أضعتها، وصنت شروط حبك وما رعيتها، ما خطر جديد هجرك ببالي، ولا أنَّ ودك مما تخلقه الليالي، وأنه سراب كاذب، وخاطر عـلى خاطـرك ذاهب، ونسج أوهى من نسج الخِدرْنق[1]، وشراب غـير معتق، وقد اشتهـر غرامي بك اشتهار قفا[2] وأسكنتك في عيني عساك عن العيون أن تخفى:

خبأتك في عيني لتخفي عن الورى لذلك قالوا إن في العين إنسانا

وما برحنا متمتعين بـالأزهار والثمـار، مؤكدين للود بـالعتب الذي أرق من نسمـات الأسحار، فـائزين من كـل لذة بنصيب، آخـذين من كل شيء بـطرف عجيب، مبـدلـين العيـون النتـرة عن نـومهـا، واصلين تلك الليلة بيومها، في منازل محروسة الجناب، عزيزة المنال بالحجاب:

تلك المنازل لا شرقي كاظمة ولا العقيق ولا شعب الغوير ولا..

رحبـة المعقـل، أمـل المقبـل، مسكن الأفـراح، مـزيلة الأتـراح، جنـة الأبصار، مزملة من نباتها بثياب الإخضرار:

ويـوم قـد قـطعنـاه بـروض يضـاحـك زهـره شمس النهـار
كـأن نهارنـا طـلق المـحـيـا صبيـح الـوجـه مخضر العـذار

نتعـاشر بالـزهور، ونصغي لتصفيق النهـور، ونطرب لتغـريد الحمـام، ونتناول أزرار الورد من الأكمام، وأود تقبيل خد ناعم الملمس، لولا أصابع المنثور وعيون النرجس:

---

(١) الخدرنق: العنكبوت أو العظيم منها.
(٢) القفا وراء العنق كالقافية، والقفا، أو قفا آدم جبل.

كيف السبيل بأن أقبل خد من أهوى وقد نامت عيون الحرَّس
وأصابع المنثور تومي نحونا حسداً وتغمرنا عيون النرجس

والحبيب يقول لي خفف في عتابك، واصبر على ما جرى من قبل في جنابك، وإن كان قلبك ملآنا، فإن للحيطان آذانا:

واكتم أحاديث الهوى بيننا ففي خلال الروض نمام

حتى استكملنا من الوصل ما فات، وقطعنا ذلك المقام ما بين خذ وهات، وقد كتم الزيارة الحجل والسوار، ووشى النطاق والوشاح بالمزار:

كتم الزيارة حجله وسواره ووشى عليه نطاقه ووشاحه

فقلت له مولاي قد حصل المقصود، وقد أطفيت من قلبي ما أضرم من الوقود، فأذن بالعزم لمتيمك، واسمح بالانطلاق لمغرمك، وإن حان لك وداعي، فإني شاكر لك وداعي، فلست ناسياً لزورتك أبدا، ولا معرضاً عن ذكرها سرمدا:

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا سرائر وُدٍّ يوم تبلى السرائر

الفصل التاسع
في الهجرة والمطال

الحب طبع القلوب وشانها، والهجر حرقتها وأشجانها، ولما كان قلبي يزيد على النسيم في لطفه، ويميل إلى الهوى وفيه عين حتفه، ولعت بشادن وافر الجمال، لطيف الطبع مليح الخصال:

ثاني المعاطف كنت أول عاشق في حبه ولكل شانٍ أول

شريف النسب، عالي الرتب، فكان يسامرني في البهيم، ويمتع نظري بوجهه الوسيم، ويرغب في مجالستي، ويشتاق إلى مساجلتي:

كنا وكان لنا عيش فأعقبنا شجواً فيا ليت لا كنا ولا كانا

إلى أن جنح إلى قول العواذل، فهجرني وهيج مني البلابل، ومال ميلة الأغصان، ومنع وصله عني بعد ما كان، وقلاني فقلاني[1] بنار الأسف، وقاطعني فزاد به الكلف:

ألف الصدود فلو يمر خياله بالصب في سِنة الكرى ما سلما

قابلني بالنفار، بعدما حل مني القلب وعقد الاصطبار، وملك قيادي، وتمكن من فؤادي:

---

(١) قلى اللحم، أنضجه في المقلى.

وأعـرض لما صـار قلبي بكفه فهلا جفاني حين كان لي القلب

وما زال ينفر عن عاشقه العميد، ويخلف في الوعد ويصدق في الوعيد، حتى صرت في ليل الصد أهيم من مجنون، وفي بحر الدمع أسبح من نون[1]، إذا ذكرت بالعقيق سوالف أيام غضه، أجريته فوقها من دمعتي المرفضَّة:

فأبكي بدمع بلَّ وابله الثرى على أنه ما بل بعض غليلي

واتخذتني الهموم كالأغراض، وأنحلني الصدود والإعراض، فلو وضعت في رؤوس الأقلام، لما غيرت من رقمها حرفاً لشدة السقام، أو ألقيت في خمرة الكاس، لما اغتص بي شاربها من الناس، أو ولجت في عين أرمد أليم، لم أره وهو بذلك عليم:

ولو أن ما بي من جوىً وصبابة على جمل لم يدخل النار كافر[2]

---

(١) النون: الحوت.

(٢) المعنى أنه قد تضاءل حتى خفي شخصه وفني جثمانه أو كاد، فلو قذف به في مقلة أرمد لما شعرت به، ولو حل ما به من جوى الحب ولوعة الصبابة بجمل لدخل من ثقب الابرة لنحوله وامتنع دخول الكافر النار إشارة إلى قوله تعالى ﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ وهو من باب التعليق بالمحال كما لا يخفى.

وللشعراء في وصف النحول مبالغات، فيها دقة يبعد مؤداها، ويعز على الأديب جناها، فمن ذلك قول بعضهم:

ماذا على الطير إذا أبلى الضنى جسدي فخف لو حملتني في خوافيها
أن يعقد الطير عن حملي لكم وسرت ريح الصبا فاطلبوني في مساريها
تلقي لكم جسداً لو أن علته يدعى المسيح لها ما كاد يبريها
لقد تضاءل حتى لو قذفت به في مقلة ما أحسته أماقيها

وللأديب الجراح بن شاجر الذروي من قصيدة مطلعها:

أبكت جفوني فاترات الجفون وسال دمعي من عيوني عيون
وأنحلت جسمي حتى غدا في دقة الشعرة سقماً ودون
لو قلم ألقيت فيه لما غيرت ما سطره الكاتبون =

إن تذكرت عيشي الأخضر، أجريت في مصفر خدي دمعي الأحمر، فجرع الهجر مريرة، وأيام المسرة قصيرة، والمطال قد طال، والحبيب قد مال، والهاجر قد جاوز حده، ونكث بعد طول المدة عهده، فلو حمل الصخر أشواقي لذاب، ولو علم الحبيب ما لقيت منه لتاب، فإنه لم يكد يتخفف ولهي به، ويبرد الفؤاد من حر تحرقه ولهيبه، وقد جار على القد العادل، حتى رثى لي الشامت والعاذل:

ورقَّت لي الآصال واعتلت الصبا وأبكى حمام الأيك فرط توجعي

طوَّل في إعراضه، وأبدل بسطه بانقباضه، وقطع عني حتى مكاتبة عبده الرفيق، وأحرمه التمتع بلفظه الرقيق، ونسي ما تقدم من العهود، وانثنى في المودة وكذاك الغزال الشرود، وقد كان بدا لي الوصال منه بالنور فغار العدى، ثم أولاني الهجر بالجزْع فما عدا مما بدا[1]، ما رعى الميثاق، ولا رحم صبه المشتاق، ولا خاف من ربه، ولا اكترث من عظيم ذنبه، فقد أتلفني القلق، ونغص معيشتي ادكار الدهر الذي سبق، وخدد الدمع الخدود، وتلفت في تقاضي الوعود، لم أستفد من الهجر إلا كثرة الترداد، ومعاودة الماطل لاستنجاز الميعاد:

يعجبني مطل غريم الهوى لطول ترادي إلى الماطل

فيا منية الفؤاد، قد زاد منك التجنب والبعاد، وتمادى هجرك، وصح لي غدرك، وخاب الظن فيك، وأثر قول معنفيك، وصرمت حبل سلواني،

= لولا خيالي بيِّن لم يبن شخصي ولا أبصره المبصرون

وللمتنبي:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

(١) عداه الأمر: صرفه وبدا ظهر أي ما الذي صرفك عما كان بدا وظهر منك، وهذه الكلمة نص عليها الشريف الرضي رحمه الله أن أول من سمعت منه الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

وأرقت دمي القاني، وأرّقت أعياني؛ فإن رضاك يا منيتي أعياني، وأغريت بي الهيام، وحجرت عني المنام:

تصارمت الأجفان منذ صرمتني فما تلتقي إلا على عبرة تجري

أحرقتني بنارك، وأحرمتني سَني مزارك، وأضربت عني صفحا، وطويت عن مجالستي كشحا، وأغريت عذاب النوى بي، وكلت منك سيوف صبري النوابي، ملت بلا سبب، وواخذت بقول الكاشح وقد كذب، وضميت الصدود إلى الغرام، وزدت وافر تجنيك على ثقيل الملام:

فجمعت أثقال الصدود إلى الهوى فوق الملام على فؤاد موجع

وبطشت بسيف بعادك، وفليت جيش صبري بتحول ودادك، وأثرت الأشجان والكروب، ومزقت سوابغ تجلد القلوب، ووكلت بالعيون الدمع والسهر، وبالأفئدة الوساوس والفكر، وبالجسم السقام، وباللسان التشبيب بالنظام، طالما نحت في الليل الدجوج، ورقبت الفلك فإن الوسن في مقلتي عزيز الولوج:

والنجم أقرب من لقاك منالـه عندي وأبعد من قلاك مغيبه

إذا هبت النسيم أودعتها أشواقي فتغدو وأنفاسها كالسعير، وإن بدا البدر وقفت مستخدماً لمراعاة النظير، أتخيل شخصك في الظلام، وأمثل أشباحك في قالب الأوهام، وأمر على الفكر السليم، تذكر لقاك وساعات النديم:

نقضت ليالي الوصل إلا ادّكارها وغاب حبيب القلب إلا خيالـه

وأعلل نفسي بالأماني، وأقول لعل الحبيب أن يعطف ولو جفاني، ذهب بالعقل تجنيك، وهدم منازل القوة توليك، وأغرق العين في دمعها، وسعى

ما بيني وبين حياتي بقطعها، تالله لقد تعذر اصطباري، وذهب جليل وقاري:

وقد تغير عهد الحال من جسدي وما لحال عهودي فيك تغيير

وتنغص عيشي الرغيد، ولان من رحمتي الصعب الشديد، وأبكى منظري الحمام، وخفيت عن النواظر والأوهام، وجرَّبت الهجران، وتطعمت سهر الأجفان، وعرفت قدر الوصل الذي سلف، ودنوت إلى الهلاك والتلف، فاسمح بوصلك ولو مرة، ولا تطع يا حالي الدلال أبا مرة[1]، وأنجز في وعودك ـ وعودك بالملاحة مورق، وبادر بالتلاقي وبدر جمالك مشرق، ولا تسمع قول عاذل مذَّاق، فلا يعرف بطعم مرارة الحب إلا من ذاق، أما رأيت فعال عيونك بي حين فتكت في، فعساك ترق لي مما جرى فتكتفي، أحرمتني وصلك، وكثرت في مواعيده مطلك:

فكأنني ألف ولام في الهوى وكأن موعد وصلك التنوين

أرفق فقد ملكت، وأعدل فطالما في سبيل الجور سلكت، وتعطف فهو شأن الغصون من اللين، وتلفت فهو سجية الظباء العين، فقد طلق النوم مقلتي ثلاثاً قبل الدخول، وآلى أن لا يراجع ما دام يدرك مبالغاً في الأفول، وقد كنت أذم الوصل لوجود الرقيب، فمن لي بهما الآن بعد طول المغيب:

يذم المحبون الرقيب وليت لي من الوصل ما يخشى عليه رقيب

---

(١) كنية إبليس.

الفصل العاشر
في العتاب

أيها البدر المنير، والظبي الغرير، والمعرض بلا سبب، وكثير الصدود والغضب، والمايل إلى الأعداء، والباذل في بعاده جهدا، والمتجني على محبه، والباخل عليَّ بقربه، والثاني عنانه عن الوفا، والمولوع بالنفار والجفا، ترفق فقد غادرت من دمعي سائلاً لا ينهر، وخلفت من لآليه في الخدود يتيماً لا يقهر:

فارفق بصبٍّ مغرم يا شادناً لولاك ما عرف الغرام له حشا

دموعي عليك جارية، ومهجتي في ظلام الأسف سارية، وأقلامي عابثة تقريضها عتابا، وفؤادي لا يعرف لسلوانه أسبابا:

وجوانحي ملئت عليك تأسفا هذا وهن إلى هواك جوانح

يا معرضاً قلبي عليه ومدمعي هذا مقيم هوىً وهذا نازح

أما آن أن يلين غصنك، ويفتح لأسيرك سجنك، ويظعن عنا النوى، ويرجع لنا ذلك الوصل في الهوى، ويطلع نجم السعادة، ويروي المعنى من قربك فؤاده، وينقشع غيم الإعراض، ونصيب من أمانينا الأغراض، ويتصل الحبل المبتوت، ويزول هذا الحال الممقوت؟؟، جنحت إلى قول عذالك، وقابلت المقيم على محبتك بتحول حالك، وأرجعت الصفو

رنقا[1]، وفصمت عرى المحبة الوثقى، وألبستني بُرد التحسر على ما مضى، وطويت قلبي على حر تذكر أيام الغضا:

يا غزالاً كناسه كل قلب أوَ ما تنظر الأسود أسارى
وترى الناس من عذاب تجنيك سكارى وما هُم بسكارى

هل وهمت من صبك، نسيان العهد والسلو لحبك، أو ميله إلى غيرك، أو إظهار مكنون سرك:

أنت المقيم بقلبه فلو انه أفشى هواك لكنت عالم سره

فلا تعاقب بغير برهان، ولا تؤاخذ بالظلم والعدوان، وتحرق فؤادي، وتمزق ثوب رقادي، وتنحل بدني، وتثير شجني:

فهواك في طي الجوانح مودع وعليه من شفتيّ باب مقفل

حتى متى تخلف عداتي، وترضي بفعلك عداتي، وتوالي أيام صدك، ويجور علي عادل قدك، وتجرعني مرارة النفار؛ وتمنعني الاقتطاف لثمرات المزار:

حتام أتلف في هواك إلى متى؟ أو ليس ما قد ذقته يكفيني
يا ماطلاً دين الوصال ومهجتي رهن لديه والديون ديوني

علام هذا الاجتناب؟!، وإلام عدم الاقتراب؟! فاعطف علي بالوصال، وارع ذمامي ولو بالمقال، وعاملني معاملة المتلطف؛ وأجب على شكواي بجواب متعطف:

انظر إلي بعين قد قتلت بها وداوني بالتي كانت هي الداء

---

(١) الرنق: الكدر ومنه:

تمتع من الدنيا فصفوك لا يبقى وخذ ما صفا من عيشها ودع الرنقا

آهي من واضح ملالك!، ولهفي من طويل مطالك!، هب أني قد جنيت ذنباً، أما يكفي ما جرى في الماضي من عقاب العقبى،؟ فكيف وما لي ذنب إلا حفظ العهود، ومراعاة شروط الهوى حال الصدود:

أبداً بحبك لم أبح مع أنها كادت جميع جوارحي أن تنطقا

أخفيت هواك، ولم أبح به لسواك، وكتمت ما حوته جوانحي، من الصبابة حتى من جوارحي:

كتمت هواكم عن جميع جوارحي فلم يدر ما تحوي عليه الأضالع
ولم تدر أحشائي على من زفيرها ولم تدر ما أجرى الدموع المدامع

فلِم أثرت لوعتي، وسلسلت حديث دمعتي، وبخلت حتى بطيف الخيال، وانقبضت عني حتى من السؤال، وغيبت شمس انشراحي، بليل من هجرك لنورها ماحي، وفرَّقت ما بيني وبين المنام، وألفت ما بين جسدي والسقام، وأثرت كربي، ومزقت بأعراضك قلبي:

قد كان لي قلب ولا ألم واليوم لي ألم ولا قلب

عطلت فرسان اصطباري، في ميدان من صدك طويل المجاري، وأعدتني من النحول خيالا، وأوليتني تجنباً وملالا، ونثرت حلي حالي، وتركت كل إنسان يرق لي حتى عذّالي:

تغير مني كلما قد عهدته سوى حسن عهد في هواك وموثقِ
وفي بعض ما أشكو إليك كفاية ولكنني أشكو إلى غير مشفق

الفصل الحادي عشر
في البُعد والنوى

رماني زماني بسهم محارب، ففرق بيني وبين الحبائب، وقد كنت ممتعاً بوصالهم، جانياً لثمرات جمالهم، حتى تغيرت الأيام، واسترجعت ذلك الأنعام:

وأصبح الربع قفراً لا أنيس به للعين والقلب إلا الدمع والجزع

وحجبوا عن طرفي الساهر، ودنوا من شعب رامة وحاجر، وسكنوا المنحنى وهو ضلوعي، وحلوا سفح العقيق فسفحت بمثله دموعي، وتوطنوا الغضا وهو قلبي الحائر، وأودعوني من الأسى ما لا أستطيع حمله الجائر، وأضرموا في القلوب نار الأشواق، ونزحوا لما نزحوا ماء الآماق:

وساروا يؤمون الكثيب وخلفوا الكئيب المعنى في الديار مضيعا

ومالوا إلى الميل عن الأوطان، وحملوا ذاتهم الأظعان، فقامت تسير وهي كالعشاق، وتطوي المهامه لشدة الأشواق:

واستقلت ظهورها ببدور طال في ظلمة الدياجي سراها
وظباء عهدي بها في قصور فإذا بالظباء وسط فلاها

واشتاقوا إلى الفراق، وجرعوني من البعد شراباً مر المذاق، وأزعجهم

الحادي، وبانوا عن نظري وما بانوا عن فؤادي:

لا تسأل الراكب عنه فهو في خلدي مذ بان عني وعن حالي فلا تسل

ركبوا سفائن العيس في بحر السراب، وخلفوا عشاقهم في بكاء وانتحاب؛ وسمحوا في مجلس الوداع بالوصال، لعلمهم بأن الحياة إلى يوم عودهم أمر محال، رحلوا ودمع العيون ذارف، وتركوا صبهم أتْيَم من المرَقّش وأحن من شارف[1]:

وحدا بهم حادي المطي فلم أجد قلبي ولا جلدي ولا صبري معي
ودّعتهم ثم انثنيت بحسرة تركت معالم معهدي كالبلقع
ورجعت لا أدري الطريق ولا تسل رجعت عداك المبغضون كمرجعي

وودعوني وفي الحزن أودعوني، فعنفوني أيها العذال أو دعوني، فقد أخذوا منامي وأعاضوني دمع عيوني.

زموا وقد سفكوا دمعي ركائبهم فكدت أغرق ما زموا بما سفكوا
وراعني يوم تشييعي هوادجهم والعيس من عجل في السير تبترك[2]

وسلبوا مني الفؤاد، وتركوني أهيم في ألف واد، وأشمتوا بي عداتي، واستصحبوا معهم حياتي:

في ذمة الله ذلك الركب إنهمو ساروا وفيهم حياة المغرم الدنف
فإن أعش بعدهم فرداً فيا عجبي وإن أمت هكذا وجداً فيا أسفي

---

(١) الشارف: من النوق المسنة الهرمة، والمرقش هو: المرقش الأكبر واسمه عمرو وقيل عوف بن سعد بن مالك ينتهي نسبه لبكر بن وائل: شاعر جاهلي لقب بذلك لقوله:

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم

وهو أحد عشاق العرب المشهورين وصاحبته ابنة عمه أشماء، قال ابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء أنه كان يحسن الكتابة بالحميرية.

(٢) تبترك: تجتهد.

أكرر ذكرهم، وأصون سرهم، وأتأوه على عصر اللقا، وأعد موتي بعدهم خيراً من البقا، وأطيل الدمع في الأطلال، وأكثر عنهم السؤال، وكنت أتوجع من الهجر مع الاقتراب، فمن لي الآن بدنو دار الأحباب، ويغلق دون وصالهم الباب:

وما كنت أخشى أمس إلا من الجفا وإني على ذاك الجفا اليوم آسف

أهيم إن مررت بمساكنهم الداثرة، وتأخذ قلبي الحسرة لخرابها بعد أن كانت عامرة، وأتأسف على بدور غابت عن منازلها، وأعتبر من رياض ذوت إذ رحلوا أوراق خمائلها:

لعمر أبيها لو رأت أمس موقفي على الدار أبكي رسمها حين أقفرا
رأت حافظاً للعهد غير مضيع وحباً على هجرانها ما تغيرا

أستخبر عن تلك الأطناب، وأطلب من واصفها الإطناب، يطربني حديث وصلهم القديم، ويهزني إذا غنى بذكرهم النديم:

ويعجبني رمل المنجم باسمه وما ذاك إلا حب من حل بالرمل

أجزع على أوقات بالجزع حلت، وأتجرع كأس الممات لأيام بالأجرع خلفتنا ورحلت، مرت علينا كالسِنة، لا كأيام البعاد فساعتها كالسَنة، وتقضت ونحن في غفلة عن حصرها، وسكرة من اللهو عن عامها وشهرها، نلهو عن ربيعها بورد الأوجان، ويشغلنا عن عدها عد محاسن الأبدان، حيث الرياض وارفة، ودمعة الطل ذارفة، والأغصان ما بين ساجدة وقائمة، والحمام على النهور حائمة، ومسمعي من حديث الأحبة مشنف، ومنزل الاجتماع مهيأ مزخرف:

ورباه حالية يكلل رأسها زهر الربيع بلؤلؤ من عقده

أنوح على أيام قربهم، وأرتقب النسيم علها تحييني بنشر طيبهم، وأدعو فلا يجيبني غير الصدى، وأناديهم فلا يلبيني سوى الردى، وأحن في الآثار، وأتردد إلى رسم الديار:

وما أنا بالمشتاق إن لم أقف على ربوع ديار رسمها للبلى نهب
فأبكي وأبكيها إلى أن أرى لها بخدي أخدوداً يسيل به عذب
لعل رياض الحزن تضحى نضيرة فيرتع فيها من ظباء الحمى سرب

أطيل السهاد، وأتوجع من البعاد، وأميل إلى التناسي فلا تطيعني جوارحي، وأرتقب في الظلام كي أرى نار خيامهم وإن كانت تشب في جوانحي، طرفي مسكن للدمع والسهاد معا، يراقب النجوم في الليل فإذا عاين السهى دمعا:

يا غائباً مقلتي تهمي لفرقته والقطر إن حجبت شمس الضحى انسكبا

أغص بالماء القراح، وأشكو سقامي حتى على الرياح، وأتعلل بأن الدهر وإن بالغ في منعنا، فقد يرق فيتفضل بجمعنا:

وعسى الليالي أن تمن بنظمنا عقداً كما كنا عليه وأجملا
فلربما نثر الجمان تعمداً ليعود أحسن في النظام وأكملا

فقد فنيت أسفاً على ما أولت ليالي دنوهم وحبت، وضاقت علي الأرض بما رحبت، وحال الحال، وعز الاحتيال، وانقطع من الأحباب كتاب ووصال، واستبشر العدو لذلك وصال، وضعفت مني القوى، وتحكَّم فيَّ الجوى، وهجرت مهادي، وطلق مقلتي رقادي؛ وتكدر علي مشرب الهوى، وتمرَّر رطب عيشي من النوى، واستغرق عقلي الوسواس، وأغرق أرداني الدمع الرجّاس:

وقفت أحلي الأرض من فيض أدمعي فجاء العذارى يلتقطن المدامعا
يغرن على تلك اللآلي لأنها بقية ما أودعن مني المسامعا

وكتمت لوعتي فما أمكن، وأوضح النحول سري وأعلن، وانفصمت عرى جلدي، واستوطنت الأحزان خلدي، وكحلني الأرق بميل بعد ميل، وهجرني الصبر الجميل.

من الصبر قلبي مذ نأيتم مفرغ على أن همي فيه أضحى مفرغا

طال في بيداء الكآبة سفري، وانقضى في الحسرات عمري، وأندك ربع سلواني، وأعرضت عن أهلي وجيراني، وطلقت مجالس السرور والاجتماع، وملت إلى التوحش والانقطاع، ونادمني الفكر الدائم، وأشجاني تغريد الحمائم:

وقد زاد أشواقي إليكم حمائم وما كنت أدري أن شيئاً يزيدها
مطوقة من زرقة الفجر قمصها ومن حلكة الليل البهيم عقودها
ولو قد أعارت حين شاقت إليكم جناحاً به تطوى على النأي بيدها
تقلدت منها منة تغتدي لها مدا الدهر في طوقين جيدي وجيدها

لم يتركوا لي بعد أخذهم قلبي الذائب، إلا طيف خيالهم الكاذب:

فكأننا لما عقدنا للنوى حلفاً بغير رهائن لم نقنع
فرهينتي معهم فؤادي دائماً والطيف من سلمى رهينتهم معي

فيالله ما أمر البعاد، وأحلى ساعة اللقا لذوي الوداد؛ وأهنا عيشنا السالف، وأطيب وقتنا الذي كنت بمقداره غير عارف:

وما أبدع البين المشتت بيننا ولو جمع الشمل الشتيت لأبدعا

الفصل الثاني عشر
في التشبيب

عرض لي ذكر الزمان السالف، حيث رغائب اللهو والزخارف، وحيث الحبيب مقيم، وحيث المدامة والنديم:

فللمودة فيما بيننا نسب إلى الوصال وحبل الهجر منقطع

ليال مرت والحوادث نائمة، وطيور الإقبال حائمة، ووجه الدهر غير عابس، وحلي الغيد مولوع بالوساوس، والخلاعة مقبولة، والمنادمة موصولة، وسفح الكثيب مدبج بالزهور، ومعطّر بنشر رمله ذيل الجنوب عند المرور:

ما فيه ساع سوى الساقي وليس به على الندامى سوى الريحان نمام

فأمعنت الفكر ذاهلا، وأجريت الدمع وابلا، ووقفت متحيرا، وبأذيالي خوف العداة متسترا، أتأسف جداً، وأُجاوز في التأوه حدا، وأجاوب الورق إذا ناحت، وأذوب شجناً إذا أسرارها باحت:

تذكرني الورقاء بالرمل معهداً فهل نجم أفراحي على الرمل طالع

وتشدو على عيدانها فتثير لي كمائن وجد ضمنتها الأضالع

أتعلل بعليل الصبا، وأحملها سلامي إلى جيرة ذلك الخبا، وأقول آه على أيام بحلوان مرت، وسحبت أذيالها عجباً وجرت، وأنالتنا المنى من المراد، وأخمدت من نار غرامنا وريّ الزناد:

وبذات الطلح لي من عالج زورة أذكرها ما اخضر طلح

يـوم منا الـركب بـالـركب التقى وقضى حـاجتـه الشـوق الملح

حيث اتخذنا النسيم رسولا، وتركنا سيف الأحزان مفلولا، وجاذبنا الغصون قشيب أوراقها، وقاسمنا الطيور ثقيل أشواقها، وحركتنا دواعي الصبا، تحريك الغصون بالصبا، وتوجهت إلينا المطالب من كل فج عميق، وطارحنا الهزار بتغريده في الروض الأنيق، وزارتنا المسرة، وأهدت لنا الليالي كل ما هو للعين قرة:

حبذا منزلي على السفح قدماً وزماني وجيرتي وشبابي
حيث لا واشياً سوى عبق الز هر ولا ساعياً سوى الأكواب

لهفي على ما مضى، بسفح العقيق والغضا:

فكم مر لي فيه حلاوة ليلة فكانت شبيه الخال في وجنة الدهر

حيث الروض كالعروس، يمرح في وشي منسوج من مختلفات الغروس، وأنهاره مصفقة، وأغصانه بقلائد الأزهار مطوقة، ونسيمه باردة، وظبيته غير شاردة:

تحنو علي غصونه ويرق لي فيه النسيم

والأحباب واصلون، ونحن منهم بالإحسان مقابَلون، وأغصان الشبيبة، بماء البشر رطيبة، ومتين الوصل متصل، والتقاطع فيما بيننا منفصل، في وقت نضير، وزمان ليس له نظير:

سقياً له إذ كنت فيه مفكهاً في ظل عيش كالنسيم إذا سرى
وقطعت باللذات حلو ثماره حتى عضضت على النوى فتمررا

حين الجو بالعنبر ناسم، وثغر الأقاح باسم، والقطر ينثر جواهره، وطلعة الإقبال زاهرة، وطرف النرجس وسنان، وشنب الرذاذ باد على ثنايا الأقحوان:

والزهر يلقاني بثغر باسم والماء يلقاني بقلب صافي

والهمة مصروفة إلى الراحة؛ والصب ناشر أفراحه، والحبيب مساعف، وظل التلاقي وارف، والدهر كله انشراح، والأيام مطاوعة على حسب الاقتراح، والعيش رغيد، والمحب خال من التفنيد، ومنازل اللقا عامرة، ونسيم السعد عاطرة، وبرد الغيم مطرز بالبروق، ومورد اللهو يروق، والهضاب ذات فنون وأفنان، والغصون ناعمة بماء الأمزان:

تكاد يدي تندى إذا ما لمستها وتنبت في أطرافها الورق الخضر

حيث صارم النهر مجرد، وسجع الشحرور مردد، وذهب الأصيل ذآئب، والشمل مشتمل على الحبائب، والدار دانية، والأكف لثمر السرور جانية، وريحان الصبابة غض، ودمع الندى على وجنات الورود يرفض، والمنادمة محبوبة، والأحاديث بالهوى مطلوبة، والمنازل مأهولة، والعواذل أفكارهم مشغولة، سقياً له من زمان، مر على المستهام في أمان:

لهوت به والدهر وسنان ذاهل وغصن الصبا ريان لدن المعاطف
وذيل رداء الغيم يخفق والصبا تهب وموج النهر ضخم الروادف
يطير بنا فيه شراع كأنه إذا ضربته الريح أحشاء خائف
وقد بلَّ أعطاف الثرى دمع مزنه تحير في جفن من النور واطف
زمان تولى بين كأس تليدة تدار وعيش بالحداثة طارف

رعياً لما سلف، في تلك المنازل والغرف، من دهر كان مطاوعا، وللرغائب متابعا:

لم لا أشبب بالعيش الذي سلفت أوقاته وهو باللذات موصول

الفصل الثالث عشر
في العذل والتعنيف

ما شعرت في بعض الأيام، وأنا مغرم مغرى بالهيام، مفارق في الليل للهجود، مفتون بالعيون السود:

ألا قاتل الله العيون فإنها تثير على الأحشاء كل بلية

مشغول بمليح كالبدر الساطع، والنجم الطالع، يفوق أبناء دهره في الجمال، ويزيد عليهم في كمال الخصال وخصال الكمال:

فما كل زهر ينبت الروض طيب ولا كل كحل للنواظر إثمد

إلا بعاذل قد أقبل، بقول لا يسمع منه ولا يقبل[1]:

---

(١) يقول المؤلف: إنه كان يستعذب تعذيب الحب، ويستمري مرعى الصبابة ويأنس بالدلال العابث، والجوى المبرح، ويخضع كل الخضوع لسلطان الحب القاهر واستبداده العظيم، يعد ظلمه عدلاً، ويحسب جوره رفقاً، فكيف يصغي لعذل العاذل أو يسمع كلمة نصح أو تعنيف وهو يرى السعادة في ظلال الحب، والحياة في لوعة الغرام، ونشوة التتيم والهيام، أو أنه لا يستطيع الخلاص من إشراك الهوى وحبائل الجفون لأن ذلك مما لا يملك فانتزاعه انتزاع لقلبه وسلوانه لا يدخل تحت طوقه. وللعشاق في هذا الباب أساليب متنوعة كقول صردر:

ولقد عرضت على السلو جوانحي الحرى فلم يرهن دار مقام
كيف السلو وليس يسلك مسلمعي إلا حنين أو بكاء حمام

وللطغرائي: =

وذي عذل في الحب لا هو ناظر إلى حسن من أهوى ولا أنا سامع

وقال لي أنصت لما أقول، إن كنت من أرباب العقول، وممن يستمع المشورة والنصيحة، ويستملي أحاديث الهداية الصحيحة؛ ويعلم الصواب؛ ويجنح إلى طريق المتاب، ويتابع من يبصره السبيل، ويعمل ببراهين الدليل، فقد رقيت لك مما جرى، وأشفقت عليك لمّا بان عنك الكرى، ورثيت لك من النحول، وقلقت حين نكث العهد محبوبك الملول، وبكيت لمّا جفاك، وأشجاني تخلُّفه عن وفاك، وزادت حسراتي لما رأيتك مهجورا، وأضرمت نار الأحزان في ضلوعي لما غدا عارضك بدموعك ممطورا:

وأشد ما بي في القضية شامت قد جاءني في صورة المتوجع

فأعرض عن حبيبك كما أعرض؛ وارفض العشق فإنه أجرى دمعك المرفض، وجانب منازل الملاح، ولا تصب بعدها إلى العيون الوقاح:

وقال أما يرعوي سامع فقلت أما يستحي مبصر

ثم قلت له دعني من ملامك وشاني، فإنما أنت عدو وشاني، عَدِّ عن نصحك فهو غير مفيد، واترك اللوم والتفنيد:

= خليلي هل من مسعد أو معالج فؤاداً به داء من الحب ناكس
وهل ترجوان البرء مما أكنه فإني ـ وبيت الله ـ منه لآيس
هوى لا يديل القرب منه ولا النوى ولا هو من طول التقادم دارس
سرى حيث لا يدري الضمير مكانه ولا تهتدي يوماً إليه الهواجس
إذا قلت هذا يوم أسلو تراجعت عقابيل من أسقامه ووساوس

ومنهم من يستعذب اللوم ويستحسن التقريع لذكر الحبيب كقول بعضهم:

وقف الهوى لي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة حباً لذكرك فليلمني اللوم

ولأبي نواس:

أحب اللوم فيها ليس إلا لترداد اسمها فيما ألام
ويدخل حبها في كل قلب مداخل لا تغلغلها المدام

دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى فإذا عشقت فبعد ذلك عنفي

لا تشغل نفسك بما لا يجدي، واطرح ما أبديت تكن للمعروف خير مسدي، أعرض عن حديث الملامة، وجانب منزلي إن كنت طامعاً في السلامة:

يا عذولاً يلومني في هواه ما رأت مقلتاك طرفاً كحيلا
لو تأملت في اللواحظ مثلي كنت في معرك الغرام قتيلا
كم فؤاد في العشق مثل فؤادي أخذته العيون أخذاً وبيلا

لا تكدر بالي، ولا تعترض ما رأيت من حالي، ولا تعد علي من ذلك كلاماً، ولا تتبع ملامك ملاما، ولا تنهاني عن رقة الطباع، ولا تأمرني بترك ما لا يدخل تحت طوقي عنه الامتناع:

ولو كان لي في سلوة الحب مذهب سلوت ولكن سد عني طريقه

لا تفتح علي باباً لا طاقة لي به، ولا تنهر صباً سائل دمعه جرى لذكر أحبابه، ولا تضع كلامك حيث يضيع، ولا تناد محباً غير سميع:

فلم لا نهيت الثغر أن يعذب اللما ولم لا أمرت الصدر أن يكتم النهدا

لا تحاول أمراً هو محال، ولا تبصِّر من هو أعلم منك بجواب السؤال، عنّفت المغرم وعذلت، وعدلت إلى طريق الجور وما عدلت، وأغريت بتحذيرك، وأخطيت في تعبيرك، فابسط المعذرة، لمن فتن بطلعة مقمرة:

هي سنة العشاق فابسط عذرهم إن كنت عذري الهوى عَشاقا

إن تخيلت مني السلوان، كان خيالك كالشراب للظمآن، فإني لست ممن يفعل فيه التأنيب، ويثنيه عن الغزل والتشبيب:

يا لائمي لك في الملامة دينك الـ ـواهي ولي في الحب أقوى دين

فاترك اللوم لمحب يرعى عهوده، ويبذل في التوصل إلى الحسان مجهوده

وينافس في الغرام، ويفارق لأجل الغيد طيب المنام، ويسمح بنفسه في الهوى، ويسلسل دموعه إن شتت شمل أحبابه النوى، ويرمي بخاطره في الأخطار، ويهزه كل لطيف حتى نسيم الأسحار، ويسكر إن جاء الرسول بميعاد زيارته، ويقبل ثغر كل عذول متى ذكر الأحباب بملامته:

سكران من قهوة الساقي ومقلته فاترك ملامك في السكرين يا صاح
وارتك بعيشك أثقال الملام فيما حملت وزري ولا كلفت إصلاحي

كيف أسلو وأنا مشتاق، وأضحك ودمع العين مهراق، وأنسى من استوطن فؤادي، وأجانب مَن رهينتي عنده رقادي، وأترك من طبع قلبي على عشقه، وليلي ونهاري محلو لك فرعه ونير فَرقه، وأميل عمن في يده زمامي، وأحيف عن أكيد ذمامي، وأحرم مقلتي التنزه في رياض الجمال، وأمنع نفسي عن التمتع بوصل من ليس له مثال، فمن لي بإضمار العشق بعد إظهاره، وكيف لي بتنكير حبه وقد عرف بألف قامته ولام عذاره، فاطرح ملامك، ودع في العذل كلامك، فإني ما عشقت إلا شمساً غير خافية، وبدراً صفات الحسن فيه وافية، وإنساناً هو للعين إنسان، وشخصاً على مثله تليق الأشجان، وتذوب لحبه حبات القلوب، وتبادر شمس الحياة بالغروب، وتسفك الدماء المحقونة، وتذلل الأعزة لطلعته المصونة:

قل للعواذل ما في العشق من حرج وللَّوائم ما في الحب من باس
فهل تعشقت شمساً غير نيرة وهل تعلقت غصناً غير ميَّاس

فإن أردت الحذر فعلى قلبك، وإن شئت السلامة فخف شرَك حبك، وبعد ذلك علم العاذل، الذي هو في مقالته غير عادل، إني لست ممن يخون، بل يحفظ شروط الود ويصون، وإن كلامه منبوذ بالعَرى، ونصحه منفصم العُرى، وأن السمع عن تعنيفه شارد، وأن لفظه عندي أبرد من البارد:

يطوف بسمعي لفظه وهو بارد وفي القلب ما فيه من الوقد واللفح

فأخذ إزاره وقام، وقال ما أردت إلا اختبارك بالملام، وعزم لما لم يبلغ الرجا، وراح من عندي كما جا.

الفصل الرابع عشر
في الطّيف

هزني الارتياح، إلى خليل من أهل السماح، فقمت قاصداً لمنزله متشوقاً إلى معقله، والليل قد أرخى ذوائبه، وأظهر من نحره كواكبه:

والليل تجري الدراري في مجرته كالروض تطفو على نهر أزاهره[1]

والظلام حالك، والأرجاء مجهولة المسالك، والسبل خالية، والسماء بقلائدها حالية:

والنجم للأفق الغربي منحدر كشعلة سقطت من كف مقتبس

فانتهيت إليه، وقرعت الباب عليه؛ ففتح مسرعا، وقال أهلاً بمن دعى، فلما اطمأن لديه خاطري، وقر بمشاهدته ناظري، وأخذنا في المنادمة،

---

(١) البيت من قصيدة لكمال الدين بن النبيه الشاعر الأديب المصري المتوفى سنة ٦١٩ وأول هذه القصيدة:

باكر صبوحك أهنا العيش باكره فقد ترنم فوق الغصن طائره
والليل تجري الدراري في مجرته كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب على يده محلق تملأ الدنيا بشائره

ومنها:

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنماً وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلي أوائله لكنه ربما مرت أواخره

وتنازعنا برد المعالمة، قال إني أحب لك الإعلام، بحديث إلى مثله تتوق الأعلام، كنت في بعض الليالي، مرتقباً من سعاد لوصالي، فهمت بالإسعاد، والدنو إلى مضطرم الفؤاد:

ثم خافت لما رأت أنجم الليل شبيهات أعين الرقباء[1]
فاستنابت طيفاً يُلمُّ ومن يملك جفناً يهمّ بالإغفاء

أرسلت إلي طيفها، وأصحبته عرفها، وأعاضتني عن الشراب بالسراب، ولم تبال من صبها بالعتاب، فنادمتني في الأحلام، وواصلتني في خيال الأوهام، وظننت ذاك صدقا، واستمسكت بعروة من السرور وثقى، وخمد رسيس الجوى[2]، وسكن مني لاعج الهوى؛ وانشرحت صدرا، وعاد العسر يسرا، وثملت سكرا، ومرحت طرَبا، ووجدت إلى السلوان سببا، وأزهر غصني بالأفراح، واحتسيت المسرة بالأقداح، وزدت شغفا، وهمت كلفاً، وحمدت الأيام على جمعنا، والإنالة بعد منعنا، حتى انتبهت من منامي، وتحققت أني كنت في أضغاث أحلامي:

وما كان يدري الطيف قبل طروقه بأن انفتاح الجفن عني حجابه[3]

فحزنت بعد السرور، وتلهفت عليه بعد المرور، وقنعت به عن الوصال، وأنشدت قول من قال:

---

(١) ومن بديع تشبيه النجوم قول بعض أهل الأدب:

زارني في الدجى فنمَّ عليه طيب أردافه لدى الرقباء
والثريا كأنها كف خود أبرزت من غلالة زرقاء

(٢) الرسيس: الشيء الثابت.

(٣) من بديع ما قيل في الطيف، قول عبدالصمد بن المعذل:

وصل النوم بيننا بعد هجر فاجتمعنا ونحن مفترقان
غير أن الأرواح خافت رقيباً فطوت سرها عن الأبدان
منظر كان لذة القلب إلا أنه منظر بغير عيان

وقنعت بالطيف الكذوب إذا غدا منها الوصال لصبها متعذرا[1]

وأسفت على إلمامه، وتأوهت على مسليات أحلامه، وضقت عليه ذرعا، وأرَقت بعده دمعا:

لم أنس طيفاً زارني وانثنى عني وقلبي بعده يخفق
وما كفى حتى دموعي غدت من خلفه تجري وما تلحق

فقلت له: هذه سجية الكلف، تورد مورد الأسف والتلف، وتمنح وتمنع، وتصل وتقطع، فالحب سلطان جائر، وخليل بك غادر، وسبيل غير حميد، ورأي لم يكن بسديد، ثم أنه أخذ يذاكرني، وبحديثه العذب يسامرني، إلى أن خطر نسيم السحر، وغردت طيور الصباح في الشجر، وتبسم ثغر الفجر من شرقه، واتضح من شعر الليل نير فرقه، فانفصلت عن مجلسه الأنيق، ورجعت قاصداً قارعة الطريق.

---

(١) يقول: إنه وإن عز الوصال وتعذر الاتصال فإنه يقنع بطيف الخيال، ولله ابن زيدون حيث يقول:

لا تقطعي صلة الخيال تجنباً إذ فيه من عوز الوصال سداد
ما ضر أنك بالسلام ضنينة أيام طيفك بالعناق جواد

الفصل الخامس عشر
في الشكوى

صحبت رجلاً من الأعيان، كان مولوعاً بحب الحسان، يهيم بالقدود، ويصبو بمحمر الخدود، ويسحَر بالعيون، ويتعلق بالشجون، ويذوب بمرسل الذوائب، ويطلق في الهوى دموعه السواكب، فعلق بحب خشف ساحر، إلى الصدود آنس وعن الوصال نافر:

أشد نفاراً من جفوني عن الكرى وأضعف من عزمي على الصبر ميثاقا

فاتقد منه الفؤاد، وتسابقت شهب دموعه وحمرها في الطراد، وصبا إلى الصبا وهام، وعرف حقيقة الغرام، فقلت له أيها الخليل الجليل، ما بالك تكتم وجدك الدخيل:

ولا بد من شكوى إلى ذي صبابة يؤسيك أو يسليك أو يتوجع

إلى متى كتم الهوى، ومكابدة الجوى[1]، واخفاء الحب من الصديق

---

(١) للشعراء ـ في شكوى الحب وآلام الصدود ـ مذاهب مختلفة، فمنهم من يميل إلى الشكوى ويرتاح إلى الإعلان بنوازع هواه وأعراض صبابته وما يضطرم بين جوانحه من نيران الجوى، ومنهم من يؤثر الكتمان ويعتصم بالصبر والتجلد ولا يبوح بهواه إلا لمن وقع قلبه في شراك حبه أو لعالم سره ونجواه، ومنه قول قيس بن ذريح:

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا إلى الله بعد الوالدين يتيم =

وإظهار التجلد لدى الـرفيـق؟ قد نطق دمعك بالأسرار، وقلبك الخافق قد أضرم النار:

قد كاد يخفى الحب لولا دمعك الـجاري ولولا قلبك الخفاق
فعسى يعينك من شكوت له الهوى في حمله فالعاشقون رفاق
لا تجزعن فلست أول مغرم فتكت به الوجنات والأحداق
واصبر على هجر الحبيب فربما عاد الوصال وللهوى أخلاق

فافض إلي المكتوم، وامل علي ما هو في صحف خاطرك مرقوم، فقال لي: أما الحب فقد أحرقني، وفي بحر المدامع أغرقني، وأنحل جسدي، وحل عرى جلدي، وأشعل الأشواق، وحملني على النوح مع ذوات الأطواق:

فقف أبثك ما لان الحديد له فإن علمت فقل هل صرت داوودا

أنا صب مستهام، لا يعرف طريق الخلوص من الهيام، رقمت في صدره سطور الكلف، وتعلقت به علاقة الأسف:

علاقة حب كنت أكتم بثها إلى أن أذاعتها الدموع الهوامع

يتيم جفاه الأقربون فدمعه غزير وعهد الوالدين قديم

ويعجبني شكوى ابن عمار الأندلسي حيث يقول:

من عاشق يشكو صباباته إلى محب هائم مثله
كلاهما صب إلى إلفه حران ظمآن إلى وصله
يا رب عجل جمع هذا بذا وقرب الشكل إلى شكله

وقوله:

أنا في عذاب من فراقك سكران من خمر اشتياقك
صب الفؤاد إلى لقا ئك وارتشافك واعتناقك
لا تحسبيني إن سلو ت لما توالى من فراقك
هذي جفوني أقسمت لا تلتقي ما لم تلاقك
فصلي جميل الظن بي وثقي فقلبي في وثاقك

أشكو إليك أيها اللبيب، كثرة شوق قلبي الكئيب، وهجر المنام لأجفاني، وأعراض أحبابي وخلاني:

ومن كنت أشكو الصد قبل بعاده فمن لي بأن يدنو ويبقى صدوده

فالحبيب قد نزح، وبعده للدمع قد نزح، ولم يرع العهد القديم، وبخل بسلامه حتى مع النسيم، واختصر مسرتي، وأطال جنح ليلتي:

قد طال ليلي في هواه فلا أرى سحراً وهذا من أدلة سحره

سفك دمي، وأثار ندمي، وضاعف النفار، ولوى عنانه عن المزار، تركني طريحاً لوجده، وعزم على ركوب المطي لوخده:

وما أنس لا أنس الديار ووقفتي على الترب منها خاضعاً متمرغا

أنا مسلوب الجنان، مؤرق الأجفان، في حبيب غاب، ومليح عاب، يسطع من جبينه نور بدره، ويجر على الأرض ذيل شعره:

يغيب فأقفو أثره ويدلني على الأرض رسم من مساحب شعره

فهل عندك من طريق، إلى إنقاذ المحب الغريق، فقد حان منه العطب، واضطرم جحيم فقده والتهب، وكاد دمعه الجاري، أن يقدح زنده الواري، ويعرب لعذّاله، ما هو مستور من أحواله:

فبين الرضى والسخط والقرب والنوى مجال لدمع المقلة المترقرق

فقلت له مالك من طبيب، غير صبرك على الحبيب، فقابل جفاه بالقبول، فأنت من أرباب العقول، ولا تكن عن التغاضي باللاه، واصبر وما صبرك إلا بالله.

الفصل السادس عشر
في الحجاب

طمح مني الفؤاد، إلى محبة غادة تصلح للوداد، قليلة المثال، يعز لها في الغيد الأشكال، محياها روضة اللبيب، وأرب الأريب، شعرها كالظلام، وجبينها كالبدر في التمام، وقوامها كالغصن عند الاعتدال، وطرفها فاتر يرسل النبال:

يسعى ورا لحظها قلبي ومن عجب سعي الطريدة في آثار مفترس

أخلاقها غضة، أرق من وجنات الورود وبها مدامع القطر مرفضة، حسنة المحاورة، بديعة المسامرة، تلد فكرتها من الأدب، ما يعز على ولّادة[1] منه الأرب، حكت النسيم لطفا، والقضيب عطفا، والغزالة نوراً

(١) ولادة بنت محمد الملقب بالمستكفي ملك الأندلس ينتهي نسبه إلى عبدالرحمن بن الحكم المعروف بالداخل والملقب بصقر قريش قال ابن بسام: «كانت ولّادة في نساء زمانها، واحدة أوانها، حضور شاهد، وغزارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب، على أنها سمح الله لها، وتغمد زللها، طرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، لقلة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها، كتبت، زعموا على أحد عاتقي ثوبها:

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها =

والغزال جيداً وطرفا، علقت بها في أيام، وفؤادي صب بالهوى مستهام:

يقيض لي من حيث لا أعلم النوى ويسري إلي الشوق من حيث أعلم

فأدركت منها صدّا، وأولتني ملالاً وبعدا، وأرسلت أستار الحجاب، وأذالت دوني النقاب، وغربت شمسها عن منزلي، وأفل بدرها عن مقلي، وصدت بلا سبب، وأبدت النفار والغضب، وتجنت بالاجتناب، وبعدت بعد الاقتراب، وازددت بها كلفا، وهمت بها مع الجفا:

إني لأعشقها ولم أر وجهها والشمس تمنع نورها أن تبصرا

تمنعت عن محبها، واختفت في الكلل عن صبها، وانثنت في العهد الأكيد، وبتكت بصارم الهجران حبل السلوان المديد، وانقبضت بعد الانبساط، وانفردت بعد الاختلاط، وكدرت المشارب، وأذوت حدائق المآرب، وسلبت الرقاد من الأجفان، وعلقت سمط الدمع على الأوجان:

جيراننا كنتُم في الرقمتين فمذ بعدتُم صار دمعي بعدكم جاري

منحتني هياما، وغادرتني مستهاما، وشردت الوسن، وسعَّرت في الحشا

= وكتبت على الآخر:

أمكن عاشقي من لثم خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

هكذا وجدت هذا الخبر وأبرء إلى الله من عهدة ناقليه، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه، من أشهر عشاقها ابن زيدون له فيها غرر القصائد وأخباره معها كثيرة مشهورة ورسالته التي كتبها إلى الوزير أبي عامر بن عبدوس لما هام بعشقها وهذى باسمها وأراد زاحمته في حبها أشهر من نار على علم، ومن جيد نظمها ما كتبته لابن زيدون وذلك قولها:

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر

وبي منك ما لو كان بالبدر لم ينر وبالليل لم يظلم وبالنجم لم يسر

ومما ينسب إليها:

لحاظكم تجرحنا في الحشى ولحظنا يجرحكم في الخدود

جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا فما الذي أوجب جرح الصدود

نار الحزن، وأطالت الكآبة والالتياح، وأزالت السرور والارتياح، وسلبت الجنان، وأورثت الأشجان، وأثارت الكمد، وفصمت حبل الجلد، لكنها وإن هجرت، وفي العهد الأكيد غدرت، وجرعتني بالصد الصديد، وأبدلت الوصل بهجر غير حميد؛ وجنحت عمن أسكنها جوانحه، وتركت الجراحات في كل جارحة، وملت ومالت، وحلت عرى الود وحالت، وتشبثت بقول الكاشح اللئيم، وألقت المغرم بها في عذاب الجحيم، وأغلقت أبواب الوصال، ولم تسمح حتى بطيف الخيال، وأكثرت في التجني، فالمحب قنوع ولو بالتمني[1]:

---

(١) ليس وراء الاكتفاء بالتمني غاية وهذه الظاهرة إنما يلجأ إليها المحب في حالة اليأس القاتل، وقد يتعلل بعضهم بالخيال وبالوعد الكاذب وبالوهم وبمجرد الذكر وحضور المحب في ذهن محبوبه كقول عبدالله بن الدمنة:

وقد قلت للعواد كيف ترونه ... فقالوا قتيلاً قلت أيسر هالك
فإن ساءني ذكراك لي بمساءة ... فقد سرني أني خطرت ببالك

ومن الرضا بالمنى والتعلل بالوهم قول ابن زيدون:

أما منى نفسي فأنت جميعها ... يا ليتني أصحبت بعض مناك
يدنو بوصلك حين شط مزاره ... وهمٌ أكاد به أقبل فاك

وفي القنوع بالطيف يقول بعضهم:

فإن تمنعوا ليلى وحسن حديثها ... فلن تمنعوا مني البكا والقوافيا
فهلاً منعتم إذ منعتم حديثها ... خيالاً يوافيني على النأي هاديا

ولجميل:

وإني لأرضى من بثينة بالذي ... لو أبصره الواشي لقرَّت بلابله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضي ... أواخره لا نلتقي وأوائله

ومن التعلل بالوعد الكاذب قول ابن الفارض:

عديني بوصل وامطلي بنجازه ... فعندي إذا صح الهوى حسن المطل

ومن ألطف ما جاء في هذا الباب وأشجاه قول قيس بن ذريح في عينيته المشهورة وذلك قوله:

فلا خير في الدنيا إذا لم تواتنا ... لبينى ولم يجمع لنا الشمل جامع =

وهبكم منعتم أن يـراهـا بعينــه فهـل تمنعون القلب أن يتمنـاهـا

أنا راض منها مع جفاها، ومع الميل إلى عدم وفاها، وقانع بما سماحها أولى، وسواء عز دنوها أو لا، فالحب بعاد واقتراب، ودنوٌّ وحجاب.

= أليست لبيتي تحت سقف يكنها وإياي هذا إن نأت لي نافع
ويلبسنا الليل البهيم إذا دجى ونبصر ضوء الصبح والفجر ساطع
تطأ تحت رجليها بساطاً وبعضه أطأه برجلي ليس يطويه مانع
وأفرح أن تمسي بخير وإن يكن بها الحدث العادي ترعني الروائع
كأنك بدع لم تر الناس قبلها ولم يطلعك الدهر فيمن يطالع

الفصل السّابع عشر
في الخمرة

أنس إلي بعض الشبان، وانتظم لدي في سلك الأخوان، فقال لي ألا أحدثك بحديث غريب، وأصف لك أمراً يتوق إليه الأديب، فقلت له: إمل الكمين، على صديق للسر عنده المحل المكين، فقال: كنت في إبان[1] الشباب، أرتشف ريق الشمول[2] من شفاه الأكواب[3]، وأجنح إلى اللهو واللعب غرورا، وأزداد إذا دعيت إلى الخلاعة سرورا، فطلبت لشرب المدام، إلى مجلس رجل من الأعلام:

في ليل إفراح كأن هلاله ... للشرب ما بين الندامى زورق[4]

---

(١) إبان الشيء: حينه أو أوله.

(٢) الشمول: الخمر.

(٣) الكوب بالضم: كوز لا عروة له أو لا خرطوم له، جمعه أكواب.

(٤) لابن المعتز في تشبيه الهلال وما حوله من سواد بقية كرة القمر قوله:

فانظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

ومن بديع التشبيه للبدر في الابتداء والكمال قول ابن هلال العسكري:

وكؤوس إذا دجى الليل دارت ... تحت سقف مرصع باللجين

وكأن الهلال مرآة تبر ... تجتلي كل ليلة أصبعين

وله:

شمس هوت وهلال الشهر يتبعها ... كأنها سافر قدام منتقب =

فنهضت فرِحا، وفي المشي مرحا، فإذا بعصبة من الخلان، وجماعة فيه من لطفاء الندمان[1]، فحييتهم وقعدت، وقلت في نفسي هذا الذي كنت أردت، فانتصبت الساقية بإبريقها، ومزجت خمرتها في الكأس بريقها، وفضت محكم الختام، على معتقة الأعوام، لنتسلى بها عن الأحباب، لما شط مزارهم بعد الاقتراب[2]:

تبدو الثريا وأمر الليل مجتمع كأنها عقرب مقطوعة الذنب

وله:

تلوح الثريا والظلام مقطب فيضحك منها عن أغر مفلج
تسير وراء والهلال أمامها كما أومأت كف إلى نصف دملج

(١) الندمان والنديم: وهو من ينادمك على الشراب ومنه:

أيا راكباً إما عرضت فبلغن نداماي من نجران ألا تلاقيا

(٢) في الأدب العربي صفحات مترعة بأرق العواطف، وأصدق الشعور، ونعني بها تلك الصفحات التي تصور الحضارة المادية وعيش اللهو والترف والانغماس في بحار اللذات، ولك أن تقول إن هذا النوع من الأدب العربي هو أغزره مادة، وأنقاه عبارة، وأنصعه ديباجة، حتى قيل إنها ما وصفت الخمر ولا مجالس الخمر في أدب أمة بأحسن مما وصفت في الأدب العربي. ومن الذي يجهل ما لأبي نواس في الخمر والمجون والغزل المذكر من قصائد ومقطعات افتتن بها الناس في زمانه وترسمها أهل الأدب من بعده. قال أبو الفرج الأصفهاني: كان أبو عبيدة يقول: ذهبت اليمن بجد الشعر وهزله: امرؤ القيس بجده، وأبو نواس بهزله، وكان يقول: أبو نواس في المحدثين مثل امرىءالقيس في المتقدمين فتح لهم هذه الفطن ودلهم على المعاني وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرف في فنونه.
فمن خمرياته التي صار بها مناة اللهو وعزَّاه قوله:

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلي ولم أنم
فاسقني البكر التي اختمرت بخمار الشيب في الرحم
ثمت إنصات الشباب لها بعدما جازت مدى الهرم
فهي لليوم التي بزلت وهي ترب الدهر في القدم
عتقت حتى لو اتصلت بلسان ناطق وفم
لاحتبت في القوم ماثلة ثم قصت قصة الأمم

إلى أن قال:

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

يـا غـائبـين تعللنـا لغيبـتهـم بـطيب لهـو فـلا والله لم يـطب
ذكرت والكأس في كفي لياليكم فالكأس في راحة والقلب في تعب

فأرسلتها لأخذ العقول، وأطلعت منها شمساً ليس لها أفول، وصافية ما لحسنها حد، يتولد من شكل حمرتها الاجتماع بنقي الخد، عذراء قد زوجت بماء السحاب، فلذا تحلت بدرِّ الحباب[1]، بعيدة العهد بالعصَّار، لو نطقت لأخبرت عن سالف الأعصار، تنجز ميعاد الفرح، وتكاد تطير من وكر القدح:

كادت تطير وقد طرنا بها فرحاً لولا الشباك التي صيغت من الحبب[2]

أدارت راح الأرواح، وروَّحت الأجساد والأشباح، وعاشرتنا بقهوتها وأكسبتنا نشوة من نشوتها، وغسلت بها درن الأحزان، وأترعت ياقوتها في كؤوس المرجان، وحيتنا بشراب مزج بالكافور، ومدام يعد لمجالس السرور، والأباريق تقهقه عجبا، وتختال طربا، والكاسات تميس في حلة من ذهبه، والحباب يرمي الهموم بشهبه:

وإذا شياطين الهموم تمردت فمن الحباب لكل همٍّ كوكب

أكرم بها من خندريس، يخمد في الجوانح بها الرسيس، كأنها ذوب عقيق، يسيل من لجين الإبريق:

فعلت في البيت إذ مزجت مثل فعل الصبح في الظلم
فاهتدى ساري الظلام بها كاهتداء السفر بالعلم

وله: صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء
وله: ترى حيث ما كانت من البيت مشرقا وما لم تكن فيه من البيت مغربا
وله: لا ينزل الليل حيث حلت فدهر شرابها نهار

(١) الحباب من الماء ـ نفاخاته التي تعلو.
(٢) الحبب الفقاقيع التي تعلو الماء والخمر وتنضد الأسنان وما جرى عليها من الماء ومن الماء والرمل معظمه.

راح زحفت على جيش الهموم بها حتى كـأن سنى الأكواب رايـات

بنت كرم تبعث على الكرَم، وتحمل على الشجاعة وعلو الهمم، وتلطِّف الطباع، وتدعو إلى السماع، وتنشر البدائـع، وتوقظ إلى اللذات كـل طرف هاجع، وتدنر الأوجان، وتنعم الأبدان، وتعتاض عن الكؤوس، الصعود إلى الرؤوس.

تذكرت عند قوم دوس أرجلهم فاسترجعت من رؤوس القوم ثارات[1].

فقلت لله درها، من ساقية لا يقابلنا نهرها، ومنتصب الشُموع، يفاخـر بقوامه الغزال الشَموع؛ ويثمر ورداً يَجني ولا يُجنى، ويطلع نجماً يمزق الغسق سناه الأسنى، من كل شمعة منتصبة[2]، دمعتها على خدودها منسكبة:

---

(١) البيت مأخوذ من قول الرئيس عبيدالله بن هبة الله بن صاعد حيث يقول:

عقرتهم مشمولة لو سالمت شرابها ما سميت بعقار
ذكرت حقائدها القديمة إذ غدت صرعى تداس بأرجل العصار
لانت لهم حتى انتشوا وتمكنت منهم وصاحت فيهمو بالثار

وقد ألم بهذا حكيم الأندلس الوزير ابو بكر بن زهر بن مروان الأندلسي فقال:

وموسدين على الأكف خدودهم قد غالهم نوم الصباح وغالني
ما زلت أسقيهم وأشرب فضلهم حتى سكرت ونالهم ما نالني
والخمر تعلم حين تأخذ ثارها أني أملت إناءها فأمالني

(٢) قد أكثر الشعراء في وصف الشمعة وتفرد الأرجاني بـالإجادة فلم يتـرك في قوس الـوصف لها منزعاً، ولا لأحد في الإحسان بعده مطمعاً. وتعقبه الشهاب الخفاجي صاحب الريحانة فأبدع أيما إبداع. وسننقل هنا بعض ما قيل فيها.

فمن ذلك قول القاضي الحسين بن عبدالله مسعود:

وما قائم قد قام في نفع غيره على أنه في النفع قد حمل الضرا
ترى دمعه يجري على صحن خده كذا شغف أجرى على خده نهرا
وما دمعه إلا على فقد إلفه ولولاه ما أبدى دموعاً ولا أجرى
يبيت عليلاً كلما طال رأسه ويمسي صحيحاً كلما زدته قصرا

ولبعضهم:

لما رأت أن الظلام يكيدها ويكاد يؤذن شملها بشتات =

كصعدة من حشا الظلماء طاعنة تسقي أسافلها عيناً أعاليها

وثغر الحباب مبتسم، وبدر الأفراح مستتم، والحانات ساجدة[1]، والقينة تسلب بصوتها لما هي من الوجد واجدة، ودم العقار مسفوك، وذهب البهار بنار الشقيق مسبوك، والريحان متضوع، ومنظر الزهور متنوع، والقريض يملى، وصدف الأسماع من دره يملا، والنسيم رائقة، والغصون بعضها لبعض معانقة، والفواكه ممدودة، والأماني بين أيدينا مشهودة، والمحاسن مجموعة، والشهوات عنا غير ممنوعة:

بتنا على حال يسوء العدى وربما لا يمكن الشرح
بوابنا الجنح وقلنا له إن غبت عنا هجم الصبح

فلقد قطعنا ذلك الليل، بإدراك المسرة بالنيل، على قيان وقناني[2] وفوز من الدهر بالأماني:

= أكلت من الغيظ المبرح نفسها وتلمظت كتلمظ الحيات

وللسيد الأديب القاسم بن عبدالرب الكوكباني في تشبيه الشمعة وهو مما لم يسبق إليه قوله:

وليل كمثل الصبح أنساً قطعته وأضحت عيون العذل عنا بمعزل
تنوب عن الشمس المنيرة شمعة على رأسها ضوء الذبال المفتل
كمعصم صفراء الذراعين أقبلت وقد قبضت في كفها ريش أخيل

ولبعضهم:

وأظنها لما تلهب قلبها حسداً أسالت دمعها مدرارا
وغدت لفرط الغيظ تعطي كل من وافى ليقطع رأسها دينارا

وقال آخر:

ويلاه مما أقاسي قد صرت في الناس سمعه
قد أحرق القلب مني حتى كأني شمعه

(١) أي موطاة وممهدة ومنه قول الشاعر:

بجمع تظل الأكم ساجدة له وأعلام سلمى والهضاب النوادر

(٢) القينة: الأمة والجارية والمغنية التي جعلت الغناء صناعة لها. والقناني: إناء من زجاج للشراب وغيره مفرده قنينة.

خلعنا على اللذات أردية الهوى جهاراً وسلمنا العقول إلى الخمر

حتى انتفت مترادفات أحزاننا، وعادلت تلك الليلة ما سلف من أزماننا وأظهر كل منا خفيات أسراره، وخاطبت كل نديم عند خماره:

فأجابني والسكر يعجم صوته بتلجلج كتلجلج الفأفاء
إني لأفهم ما تقول وإنما غلبت علي سلافة الصهباء
دعني أفيق من الخمار إلى غد وافعل بعبدك ما تشا مولائي

ثم قال هذا الذي أردت إفاضته عليك، وإلقاء مقاليد سره إليك، فأنت لديَّ بمحل رفيع، ومقام عن غيرك منيع، فقلت له ارجع إلى ربك، واسأله التجاوز عن ذنبك، وأكثر من الاستغفار، واستجر من عذاب النار، واعزم على المتاب، واخلع عنك رداء الإذناب، ولذ بعروة الخالق، وتأسف على عصيانك السابق، وجانب منزل الفساد، ولازم السلوك في طريق السداد، واعتزل أباطيل الغرور، ولا تجنح إلى البهتان والزور، واستح من الله العظيم، ولا تساكن ما يزول من النعيم، وتفكر ماذا قد أثمر، لك اللهو الذي مر، هل هو إلا خيال زائل، وطويل اغترار ما تحته طائل، فدع اتباع الشهوات، وتوقَّ من يعلم فعلك في الخلوات، وأشعل من التحسر في جوانحك النيران، فإنما الخمر رجس من عمل الشيطان.

الفصل الثامن عشر
في السياحة

تفكرت ذات يوم في فسيح الأرض، وما بسط الله بها من الطول والعرض، وأدرت الفكر، وكررت الذكر، فعلمت أن من أعمل النجائب في السباسب[1]، ظفر من الدهر بالغرائب والرغائب، وأن التبر في معدنه كالترب مبذول، والبدر إنما ترقبه الأبصار بعد الأفول، والسيف في قرابه لا يقطع، والسهم لولا مفارقته القوس ما فاز من الغرض بمطمع:

والشمس لو وقفت في الأفق دائمة لملها الناس من عجم ومن عرب

فجزمت على نصب قدمي للسفر، مستودع الحافظ من شر البشر، فخرجت من أهلي ووطني مشتاقا، وامتطيت غارب مطية العزم متخذاً لها من الهمة سواقا، واضعاً طوق التوكل على النحر، تالياً: ﴿وهو الذي يسيركم في البر والبحر﴾، وسرت أطوي مهمهاً بعد مهمه[2]، مجيباً من عنَّف بلا ومه ومه:

---

(١) السبسب: الأرض القفر والجمع سباسب ومنه:

سلي هل عمرت القفر وهو سباسب وغادرت ربعي من ركابي سباسبا
وغربت حتى لم أجد ذكر مشرق وشرقت حتى قد نسيت المغاربا

(٢) المهمه والمهمهة: المفازة البعيدة الأطراف، الجمع مهامه.

أقــول لنـاه قــد أشـار بتــركـه لقـد زدتني فيما أشـرت به زهـدا

فصعدت إلى ذروة شاهق عالي، ونظرت منه محلاً نازحاً فيه ما حلا لي، وأشـرف بالقـوز[1] اليماني لعلني أرى نـار ليلى أو يـراني سميـرهـا

ثم عمدت إلى الانحدار من تلك الذروة، وقصدت نحـو ما لاح لعيني بسرعة وقوة، وما زلت أدأب في المسير، وأزم[2] الركب منشداً قول جرير:

خليلي لولا أن تـظنـا بي النـوى لقلنــا سمعنـا من عقيلة داعيــا

فإذا بقصر مشيد البنا، رحب السوح والفنا، أحجاره من المـرمر، يكـاد نوره يتخطف البصر إذا مر، قبابه عالية، لا تسمع فيها لاغية:

قصر عـليــه تحـيـة وسـلام خلعت عـليه جمالها الأيام

حوله أنهار متـدفقة، وريـاض بالـزهور مشـرقة، فمن نـرجس شاخص الأحداق، ينتثر منه دمع الندى على الأوراق، أسـوده كعيون الملاح، وأصفره مثل كأس لجـين لاح فيه ذهب الـراح، مقابضـه زبرجـدية، وأنفـاسه نـدية ندية، ولما تصفحت ما هو عليه من الحال، قلت لله در من قال:

أنامل من فضة يحملن كأساً من ذهب

ومن ورد أحمر، الدمع في وجنته يتحدر، كأنه جمر يتوقد، أو يـاقوت مـا لحسنـه حد، ومن منثـور في أسمـاط الغصـون منـظوم، ووشيـه في مـطارف الرياض مرقوم، لا يخلو منـه جانب، ولا تقـع إلا على زهـره دموع السحب السواكب:

فلكل قطرة وابل فم زهرة مفترة عن ناسم متصوع

---

(١) القوز: المستدير من الرمل والكثيب المشرف.

(٢) أزم الركب: زم الشيء شده والبعير خطمه وشد زمامه.

ومن أشجار مختلفة الألوان، لا نظير لنضيرها إلا في الجنان، عرفها يفوح، ونسيمها يغدو في أردان الشميم ويروح، غصنها بالأوراق مستتر، وزهرها على أقدام النازلين بها منتثر،

كأن زهور الروض حين تساقطت لتقبيل أقدام الأحبة أفواه

فقرعت الباب فقيل من؟ فقلت ضجيع الغربة والحزن، كليم الفؤاد، رهين البعاد بين العباد، نازح الدموع والديار، قاطع البلاقع والقفار، طاوي شقة السفر، ناشر رداء المفر، لا يعرف لنفسه أين المقر، حليف الوسواس، متصعد الأنفاس، مؤرق الأجفان، مورق الأشجار بالأشجان، مفارق الأحباب، متلفع من حالك الهم بجلباب، قائم لحرب الدهر على ساق، مفتقر إلى ندمة ورفاق:

ورب دير طرقنا بابه سحراً وللنواقيس في أعلاه أصوات
فقال راهبه من ذا فقلت له قوم السبيل لهم في الدير حاجات
فقام يسعى إلى إكرامنا عجلاً وقال بشراكمو عندي المسرات

فسمعت منادياً يقول أهلاً أيها الطارق، وسهلاً بك يا نعم المرافق الموافق، جلبت إلينا الفرح، وجليت عنا الترح، وشرفت المَقام بالمُقام، وأنّست يا نجل الكرام، ثم فتح الباب، ودفع الحجاب، وإذا بغلام أسمر، مخاطبته تخجل صوت المزهر، بديع الصفات، لطيف الحركات، يجل عن الوصف بالمديح، ويسطو بطرفه السقيم على كل قلب صحيح:

حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري

فحييته بالسلام، وأطلقت جياد لفظي معه في مضمار الكلام، وقال أدخل أيها الفتى، فقد انصرم عنك حبل حتى ومتى، فأمّيته في الدخول، واخترقت صحبته الستر المسدول، ومشيت في رياض ليس لها نظير،

وصروح ممردة من قوارير؛ إلى أن انتهينا إلى مجلس في أعلى الغرف، جوانبه بالتحف تحف، أبوابه مرصعة بالصدف، جدرانه بالذهب مرشوشة، وباللاز الوردي منقوشة، مصارع طاقاته من البلور المختلف الألوان، وستائره من القطايف المكللة بالعقيان، فرشه من الحرير، وجصه من الكافور المنير، لا يكاد اللسان يفي فيه بالمقصود، ولا ينظم في سلك المدح شذره المنضود، وفي أعلاه ثلاثة من الندما، تكاد أكفهم لسمو مكانهم تلتقط لآلي الشهب من السما، ثغورهم مبتسمة، وأجسامهم متنعمة، شمائلهم كالشمول، وأخلاقهم أبهج من الروض المطلول، لو مر نسيمها على زهر اللينوفر[1] ليلاً لفتح أحداقه، ولمد إلى الاقتباس منها أعناقه، تهزهم اللطافة، وتثنيهم الظرافة، يزين سجاياهم الوجد والوجود، ويخضر من مترقرق ماء محياهم العود، رقت حواشي طباعهم ولطفت، وسمت مكارمهم وشرفت، يخلبون لب اللبيب، ولا يقطع ميدان مدحهم كميت النسيب، تمسك ذكي الذكر بأذيال نسيم إفضالهم، وطلع من أوج المعالي بدر إقبالهم، ذاتهم تاج إنسان المجد، وأنفاسهم عطر نسيم نجد، حسن منظرهم يهول الناظر، وخطابهم يذهل المسامر، حماهم منيع، ومقامهم رفيع:

أرى مقاماً عظيم الشان أوهمني ... في يقظتي أنها من وارد الحلم
يوم من العمر لم يخطر على أملي ... ولا ترقت إليه رغبة الهمم

لهم خُلق رائق، وخَلق فائق، فما منهم إلا واضح الجبين، يخضع لهيبة جماله ليث العرين، خده جنة وعينه حورى، وغرته تسبي بطلعتها القمرى، حواجبه مقرونة بالمنية والأماني، من أحقر جورها سفك دم العاني، تؤلم ولا حرج، وتسدد سهماً من الحديد عن قوس من السبج، وعيون فواتر، تفعل

(١) اللينوفر: نبات لا يورق إلا في الماء. ويقال أن زهرته تتجه نحو ناحية الشمس أينما سارت.

مـا لا تفعله البواتـر، تصيب قبل خـرق الجلْد الجَلَد، وتقتل ولا يؤخـذ منها قود:

عيون المها[1] بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

له عذار يقيم الأعذار، ويقيد بسلاسله الأبصار، كأنه درع مـزرود[2]، أو مرسين نبت على ورد الخدود:

نبي حسن عـلى عشـاقـه نـزلت من سورة النمل في خـديه آيـات
ساجي اللحاظ حريري العذار له في قلب عـاشقه المضنى مقـامات

ومن أوصاف حسنة، لا تحصى بالألسنة، تبهت وتبهـر، وتلقي الفصيح في الحصر، فلما استقر بي الجلوس، رفعوني على الرؤوس، وقالوا من أنت أيها الأجلّ، فسح الله تعالى لك في الأجل، ففكرت مـطرقاً إلى حجـري، وقلت ماذا تريدون من أمري، فقـالوا إنا نرى في وجهـك مخائـل النعم، ولوائـح الكـرم، وشرف النسب، وعـراقة الحسب، وطيب المنبت والمغـرس، ونقـاء الأصل عن الدرن والدنس، فوجهت الخطاب إليهم، وقلت مجيباً عليهم:

وإني من قـوم كـريم ثنـاؤهم لأقـدامهم صيغت رؤوس المنـابـر

والمقـام موشـع بالـزهور، تنفـح فيه أنـواع البخور، ونحن عـلى أسـرَّة وسرور، ندير كاسات المحاورة، ونـزبر الآداب في صحف المسـامرة، ونجلو عـرائس البدائـع، وعيـون الكـاشحـين عن لهـونـا هـواجـع، نتنشق عـرف الرياحين المضمخة بالمسك الفتيق، ونسرح الطرف في عيون النرجس وخدود الشقيق، نتـرامى بثمر التفـاح، ونلعب بكرة النـارنج[3] النفـاح، ونتهـادى

---

(١) المها: ضرب من البقر الوحشي أشبه بالمعز الأهلية الواحدة مهاة.
(٢) المزرود: المسرود.
(٣) النارنج: شجر كالليمون له نور أبيض طيب الرائحة جداً فارسي معرب.

أبيات القريض، ونخوض بحر العروض العريض:

ورشفنا مدام نظم ونثر من كؤوس ترْشفن بالآذان

نرفل في حلل الانشراح المفوفة[1] القشيبة، ونجر فضل ذيول الصبا والشبيبة:

ليالي أعطينا الخلاعة حقها مزاجاً وغالطنا بها نوب الدهر

بين أيدينا أنواع الطعام والشراب، وما يروق للأحباب والأتراب، وما برحنا على ذلك أياماً عديدة، ومدة مديدة، لا تخالط صفونا الأكدار، ولا يشون بدر أنسنا سرار، لا نعد ما مرَّ من الأيام، ولا ندري أمقامنا شهر أم عام؟، لا نعيب تلك الليالي إلا لسرعة الإنقضا، فقد كاد من العجل أن يعثر نهارها في ذيل الليل الذي مضى:

ليالي لقًى لا عيب فيها لناقد سوى أنها مرت على الطرف كاللمح

ثم بعد ذلك آليت أن لا أقيم، وإن كان قلبي من فراق تلك الجنان في جحيم، وقمت موادعاً للأخلا، وضلوعهم على جمر الغضى تتقلى، حمْر مدامعهم تجري، وزفراتهم بالسموم تسري، وقالوا: زودنا حكماً قبل أن تركب جواد الرحلة، لتكون لنا إلى إعادة ذكرك وُصلة، نتخذها ذخرة النوائب، وندرأ بها سهم الزمان المحارب، فقلت: الكرم مفتاح الثنى، والقناعة رأس الغنى، والعداوة تثمر العنا، حسن الأخلاق، يجدد ملابس المجد الأخلاق، إطعام الطعام، سجية الكرام، السماح من الرباح، الصبر عاقبته النجاح:

---

(٤) المفوفة: التفويف التنقيش أخذ من الفوف وهي النكتة البيضاء التي تحدث في أظفار الأحداث. سميت بذلك لشبهها بشجرة يقال لها الفوفة: ومنه قول بعضهم في وصف الشيب:

يا من لشيخ قد تخدد لحمه أفنى ثلاث عمائم ألوانا
سوداء حالكة وسحق مفوف وأجد لوناً بعد ذاك هجانا

اصبر ففي الصبر خير لو علمت به سجدت شكراً لذي الأفضال والنعم
واعلم بأنك إن لم تصطبر كرماً صبرت قسراً على ما خط بالقلم

الوقار زينة، السلامة من الوزر نتيجة الصمت والسكينة، العلم بهجة الدارين، هو في جسم العبادة كالعين، صورته كالشجر، والعمل به كالثمر، الأمانة طباع الأخيار، الخيانة عمل الأشرار، العفاف دليل على علو الهمة، العقل الراجح إنما يعرف عند نزول الملمة المهمة، المجالِس يجانس، الفرع يدلك على المغارس، الكذب خلق الدني، الصدق مورده سني، النميمة حلية المنافق، ستر القبيح سمة الصديق الصادق، التواضع يرفع الأدنى، الكبر يضع الأعلى، الحسد قرين غير القانع، ما تحمد الألسن إلا إذا طاب الذكر في المسامع، الشجاعة خلقة، من أحسنت إليه ملكت رقه، احفظ سرك، ولا تودعه إلا صدرك، تجنب الخيانة، كن من حفظ العهد بمكانه. فلما أتممت الحكم بإحكام، واستنشقت منها مسك الختام، قاموا بعد ذلك مشيعين، وخرجوا معي مودعين.

وسرت وسيري خطوة والتفاتة إلى فائت عني أرجي ارتجاعه[1]

وافترقنا بعد الاجتماع، وانصرفت بعد الامتناع، وتبدد عقد شملنا، وانبتَّ متن أملنا، وكان الظن منطوياً على عدم الفراق، وإن سعدنا لا يبرح

---

(١) البيت من قصيدة لابن النحاس أولها:

رأى اللوم من كل الجهات فراعه فلا تنكروا اعراضه وامتناعه
هو الظبي أدنى ما يكون نفاره وأصعب شيء ما يكون ارتجاعه
له الله ظبي كل شيء يروعه فيا ليت شعري ما يزيل ارتياعه

ومنها:

وآل على أن لا أقيم بأرضه وأحرمني يوم الفراق وداعه
وسرت وسيري خطوة والتفاتة إلى فائت عني أرجي ارتجاعه
طويت الفلا شرقاً وغرباً لأجله وصيرت أخفاف المطي ذراعه
فلم يبق براً ما طويت بساطه ولم يبق بحراً ما نشرت شراعه

في الوفاق، حتى كذب الرجا، وهجم علينا بعد نهار الوصل من البعد الدجى، فعلمت أن الدهر خوان، يمن بعد الامتنان، ينكث عهداً، ولا يدع في التضرب[1] جهداً، يكدر بعد الصفا، ويقصر بعد الوفا:

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان[2]

فإياك من أمانته، واحذر غدر خيانته.

ثم عدت إلى بلدي، والأمن والصحة قرين جسدي، فسر أهلي بالانقلاب، وابتهج المحبون بالإياب؛ وألقيت عصى التسيار، محفوفاً بالأرقاء والأحرار، ووصفت لهم ما شاهدته العين، وفصَّلت من غير حيف ولا مين، حامداً لله في الشروع، شاكراً له في الختام على المنة بالرجوع.

---

(١) اضطرب: تحرك وماج كتضرب وطال مع رخاوة واختل.

(٢) البيت من قصيدة لأبي البقا صالح بن شريف الرندي، رثى بها الأندلس وندب معالمها بعد سقوطها بيد الاسبان وأولها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتماً كل سابغة إذا نبت مشرفيات وخصران
أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان
فجائع الدهر أنواع منوعة وللزمان مسرات وأحزان

الفصل التاسع عشر
في صنعاء اليمن[1]

لما كان في يوم من الأيام، أردنا الانتزاح عن الخيام، عازمين على فراق الوطن، قاصدين إلى (صنعاء اليمن)، متشوقين إلى تلك المعاهد، موصولين من الأنعام بكل متكرر وعائد، يحثنا الادكار الملازم؛ وتغازلنا الأماني بثغر باسم، تميلنا نسيم الارتياح، وتجذبنا أيدي الانشراح، وتقلقنا اللواعج،

---

(١) صنعاء عاصمة اليمن أقدم بلدان المعمورة عمراناً وأروعها مدنية، وأعرقها حضارة، مركز العلم ومنبع الثقافة، ومطلع أقمار المدنية، عاصمة التبابعة والأذوى ومحط رحال الملوك والأقيال، مدينة التوحيد، ومعقل الخلافة، ذات الآثار المذكورة، والمواطن المشهورة، أول مدينة عمرت بعد الطوفان، فكانت مدنيتها أول ما عرفه الإنسان، قبل أن يعرف مدلول العلم وكلمة الفلسفة. قال الهمداني: صنعاء أقدم مدن الأرض لأن سام بن نوح هو الذي أسسها ولم يزل بها عالم وفقيه، وحكيم وزاهد، ومن يحب الله عز وجل المحبة المفرطة ويخشاه الخشية اليقظى*، ولهم صنائع في الأطعمة التي لا يلحق بها أطعمة بلد، ولهم خط المصاحف (الصنعاني) المكسر والتحسين الذي لا يلحق به.

ومنهم الخطباء كمطرف بن مازن وإبراهيم بن محمد بن يعفر، وفيها العلماء كوهب بن منبه وأخويه معقل وهمام: اهـ كلام الهمداني.

وقال ياقوت: سميت صنعاء باسم الذي بناها إلى أن قال: وهي بلد في خط الاستواء وهي من الاعتدال بحيث لا يتحول الإنسان من مكان طول عمره صيفاً ولا شتاء وتتقارب بها ساعات الشتاء والصيف وبها بناء عظيم قد خرب وهو تل عظيم عال عرف بغمدان اهـ.

---

* جاء في بعض النسخ: الخشية النبضي على رأي الحكماء والفلاسفة.

وتنادينا إلى اقتعادها الهوادج، يوقظنا صبح اللذات من نوم الغفلة، ويرينا

وقد وصف الشعراء جمالها وطيب مناخها وقصورها، وولدانها وحورها، ورياضها وزهورها، ونضرتها، ومجالس أنسها، ومعاهد الصبوة بها، ونعتوا لياليها وأسحارها، ورقة أهلها فأكثروا. فمن ذلك ما رواه الرازي في تاريخ (صنعاء) لتبع الحميري يصف اعتدال جوها وطيب مناخها:

ليس يؤذيهم بها وهج الحـ ـر ولا القر في زمان اقترار
طاب فيها الطعام والماء والنو م وليل مطنب كالنهار

وللحسن بن يعقوب الهمداني صاحب صفة جزيرة العرب:

أرض تخيرها سام وأوطنها وأس غمدان فيها بعدما احتفرا
أم العيون فلا عين تقدمها ولا علا حجر من قبلها حجرا

وقال ياقوت في معجمه: قال أبو محمد اليزيدي ـ يمدح صنعاء ويفضلها على غيرها وكان قد دخلها:

سقياً لصنعا لا أرى بلداً أوطنها الموطنون يشبهها
خفضاً وأمناً ولا كعيشتها أطيب أرض عيشاً وأرفهها
يعرف صنعا من أقام بها أغذى بلاد غذا وأنزهها

قلت وللسيد العلامة الزاهد صلاح بن الحسين الأخفش رحمه الله:

قد قيل صنعاء جنة الجنان فكم خصال قد حوت حسان
يقصر عنها الوصف من حسان ابن البيان حاصر المعاني
حديقة أزهارها تضاحكت وجنة لجنة المأوى حكت
محروسة محمية من النكت فعين من يسكنها ما إن بكت
يأمن فيها من إليها قد لجا سفينة يركب فيها من نجا
فإن يعيبها عائب الخصوم فعيبها من جملة المعدوم
لا عيب إلا الجمع للعلوم وأهلها الأفاضل القروم
ما بلدة من البلاد في اليمن من جدة القصوى إلى أقصى عدن
كمثلها جامعة لكل فن غير السماع للموطأ والسنن
فكم بها من قارىء ومقري من ذي اليسار أو من أهل الفقر
كل له فن إليه يجري لكي يفوز في غد بالأجر
وكم بها من طالب فقير يقنع في الأرزاق باليسير
لا يجعل الفقر له ذريعة إلا اطراح العلم والشريعة
مستخرج بفكرة سريعة جل معاني كتب بديعة =

= موزع أوقاته شطرين عل الذي ينفع في الدارين
ففاز في الحياة بالنوعين ولو تلاهى عاد بالخفين
وكم بها مساجد مشهورة آثارها بين الورى مأثورة
في كل عصر بالهدى مذكورة لم تحو قط ما حوته كوره
وكم مصل تارة وتالي وكم بها مقدم وتالي
وبعض ذا في غيرها لا يعرف بل كله في البعض قد لا يوصف
كل لما لا نفع فيه يعكف معتذراً بعذر من لا ينصف
ثم هواها في البلاد عادل لا بارد ولا سموم قاتل
والبرد في بعض البلاد هائل كأنه من الثلوج نازل
ترى الفتى عند اشتداد البرد مزملاً يحمل ألف برد
وقد يصيح صاح جار بردي وراح ركن الدين كالمنهد

وللفاضل الأديب المعاصر عبد الهادي الجواهري الحلي قصيدة عصماء مدح بها صنعاء وجمالها الطبيعي ونعيمها وما تمتاز به على سائر بقاع الدنيا من نضارة بقعة وكثرة فاكهة، واعتدال رقعة، وحسن عمارة، وروعة زبرج وشارة، مع ما لها في كتب التاريخ من مجد وشهرة ومطلع تلك القصيدة:

صنعاء يا وطن الحضارة والعلى ومقر كل سميدع ومليك
باريس دونك في الجمال ولندن وعواصم الرومان والأمريك
فجمال تلك مزخرف متكلف وجمالك المطبوع من باريك
سعدت بمرآك العيون وهكذا لا زال تسعد عينه رائيك

وللقاضي العلامة الخطيب إبراهيم بن يحيى السحولي أرجوزة طويلة في مدح صنعاء وذكر محاسنها منها:

لله در صنعا فارقت وراقت صنعا كم ولدت من نبلا كم حصنت من فضلا
كم عللت من ولد يوماً بثدي الرشد فصيرتهم أوليا وصورتهم أتقيا
وكم حوت عجائبا وكم أرت غرائبا الخ

وقد ضمن هذه الأرجوزة القاضي الأديب محمد بن أحمد الحجري في كتابه مساجد صنعاء.

بياض طريق الاجتماع بكل عقيلة[1] ويزجرنا عن العقلة، فقمنا ملبين لداعي المغيب، معانقين للوداع كل غصن رطيب، مصافحين مع تعب القلوب من التنائي راحة الرداح[2]، ناظمين في أجياد الأحبة درر المدامع نائبة عن العقد والوشاح، نطل العبرات على الطلول، وما أبرمناه من حبل الاصطبار فهو بأنامل البين محلول، فاقتعدنا ظهور العيس، وقد لفح في الأفئدة جمر الرسيس، وامتطينا منها أعلى السنام، وحملناها أعباء الغرام:

وأحمل الهم الذي حملته ... نجباً تقيس لي الفلا بالأذرع
من كل حرف وقفها للساكني ... تلك الربوع وعطفها للموضع

نطير بأجنحة الأشواق، ونتقلى بنار الفراق، ونباري الصبا في الاعتلال، ونتعلل بما جاءت به نسمة الشمال، ونطوي البيد، ونقاسي الغرام الشديد، لا ندير شجون الحديث إلا بحديث الشجون، ولا نبكي إلا لمسرة تكون:

فإن بكينا فليس الدمع من حزن ... لكن فرط السرور المحض يبكينا

وما زلنا نلطم بقوائم الشمرذل[3] وجه الغبرا، ونطلقها في القفار ونحن بأيدي الغرام أسرى، والحادي يزعجها بصوته الرخيم، ويودع مسامعها من التغريد ما يهزأ بالدر النظيم، يجدد لها ثوب أشواقها، فتصغي له وتمد مديد

---

(١) العقيلة: الكريمة المخدرة من النساء ومن كل شيء أكرمه، والعقلة بالضم في اصطلاح حساب الرمل خطان بين نقطتين ولبعض الأدباء:

تعلمت خط الرمل لما هجرتمو ... لعلي أرى فيه طريقاً إلى الوصل
وقالوا طريقاً قلت يا رب للقا ... وقالوا اجتماعاً قلت يا رب للشمل

وللأديب أحمد بن حسين الرقيحي رحمه الله تعالى:

مياسة الأعطاف إن خطرت ... تركتك في خطر بلا عقل
ظفرت بعقلك بعد أن ظفرت ... أوصالها وحمت حمى الوصل
وأرتك أقلام الشعور وقد ... رقمت لديك طرائق الرمل

(٢) الرداح: المرأة العجزاء التامة الخلق.

(٣) الشمرذل: الفتي السريع من الإبل.

أعناقها، تمشي مشي المخمور، وتجوب السهول والوعور:

بصم الحصى ترمي الحداة كأنما تغار على محبوبها حين يذكر

فبينا نحن في واد رخص ملمسه غالي، ومقام نضيره على نظيره عالي، معشب بكل رائق، ومزهر بكل فائق، دارت على دوحه سلاف الأمطار، فترنحت أعطافها من الخمار:

يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاة حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم[1]

فانشرحنا لمنظره البديع، وأنصتنا من طيوره للترجيع، واستمال عقولنا عن الترحال، وصدنا عما انطوت عليه الآمال، نتفيأ في ظلال أشجاره، ونكرع من معين أنهاره، فهبت نسمة ممسكة الجيوب، طيبة الخطرات والهبوب، عرفنا عرفها من أين ظهر، واستخبرنا نشرها من أين نشر، فأثارت الساكن، ودعت بالمسارعة إلى تلك المساكن:

ألمت وما في الركب منا متيم وعادت وما في الركب إلا متيم

فقمنا مجددين برد السفر، متمسكين بذيل النسيم الذي خطر، وهي تسحب برد الأرج والبرد، وتحيينا بمتضوع الخزامى[2] والورد، تشفي المهج وهي عليلة، وتسند حديث طيبها عن زهر الخميلة، يتبصر بها منا كل حائر، ويهتدي بشذاها العاطر:

---

(١) هذه من أبيات لبعض أدباء الأندلس أولها:

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً ألذ من الندامة للنديم
تريع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

(٢) الخزام والخزامى: نبت زهره طيب الأريج عبق الرائحة.

وخذ يميناً لمغنى تهتدي بشذا نسيمه الرطب إن ضلت بك النجب
حيث الهضاب وبطحاها يروضها دمع المحبين لا الأنداء والسحب

ثم ما برحنا في قطع المهامه بكل جردل بازل[1]، نسأل الغادين والرائحين عن المنازل، فانتهينا إلى نجد رافع، وشمنا برق ﴿ صنعاء ﴾ وهو لامع، ومنارتها قائمة، وطيور السعد عليها حائمة، وقصورها يقصر في مدحها ذلق اللسان، وأركانها محكمة البنيان، كأنما خرطت من المرجان الفاقع، وفصلت من تقضيضها وتجصيصها بفصوص الماس الناصع، تسجع في روضاتها الحمَامات، وتحف بحافاتها الحمّامات، حمَامات تبعث بتغريدها الحزن، وحمَّامات تنقي عن الجسم الدرن، كأنما علمها جابر[2] صنعة الإكسير، وعرفها كيفية التصعيد والتقطير، أجيادها غير عاطلة، من أطواق المحاسن الفريدة، وآبارها غير معطلة وقصورها مشيدة، تطرب من سوانيها بالزجل، إذا مشت في مهل بعجل، كأنها تعلم نغمات الألحان، وتطرب لرقص الأغصان، كل بود[3] منها تنزح معين دموعها، وتلقي على ظاهر الأرض ما أجنَّت تحت ضلوعها:

كأنما ماؤها في كل هاجرة ريق الحبيب عقيب الهجر وهي فم

وهي في معقل رحيب، وروضة ربى في حجرها الغصن الرطيب، وجاست خلالها الأنهار، وتفتحت في جوانبها الأزهار، وانتثر لؤلؤ الطل على ورقها الناعم، وهامت على هامات أغصانها الحمائم، طارت الجنوب المعطرة من أوكار زنبقها، ومرحت البواسق من قضبها في ديباج ورقها، وعذرت

---

(١) جردل: قال في القاموس جردل أشرف على السقوط ومنه الحديث منهم الموبق: ومنهم المجردل، وجردحل بكسر الجيم الوادي والضخم من الإبل الذكر والأنثى: بازل: بزل البعير إذا طلع نابه.

(٢) هو جابر بن حيان الكيميائي الشهير.

(٣) البود: البئر.

خدود وردها بالمرسين، وأضاء تحت ليل بنفسجها صبح الأقحوان المبين، وزفت عروسها متحلية من المنثور بالجواهر، مشنفة بنضار البهار الباهر:

نسيمها يعثر في ذيله وزهرها يضحك في كمه

عذب مشهدها للناظر، وراق مقامها للخاطر، وأشرقت ربوعها، وطابت أصولها وفروعها، وزهت مدارسها، وارتفعت مجالسها، وشفي قاطنها، وشقي ظاعنها، اشتملت على كل معنى لطيف، واكتنف قبابها شجر السرو المنيف، لبست أحجال الانشراح أسواقها، وطاب في ذراها من القبول انتشاقها، بُدورها حلت بِدورها، وخودها تفتن بمرورها، ظباؤها أوانس، وجوارها كوانس، عيون غيدها جوارح، وأردانها بالنوافج نوافح[1] أسهم رشاقها رواشق، وأفئدة نازليها من الرقة خوافق:

لله (صنعاء) إنها جنة محفوفة بالزهر والزهر

والروضة تحفها بكل ما عذب للوارد، وراق للقاصد، تنشر بين أيديها ألوية الأوراق السندسية، المحمولة على رماح الأغصان الزبرجدية[2]، تفاخرها بجامعها الذي جمع المحاسن، وجذب الخواطر بشكله الفاتن:

لا تحسب الجامع في روضة وإنما الروضة في الجامع

فهو أبهج من الروضة التي ذهبتها شمس الأصيل غب السحب، وقلدتها أيدي الربيع من الزهر قلائد حكت جواهر الشهب، ينشد الناظر إليه بعين الاستحسان، المتنزه في جوانبه الحسان:

يا جامعاً كل المحاسن شكله ومقامه فيه أضاء ونوَّرا

---

(١) النافجة: السحابة الكثيرة المطر، ومؤخر الضلوع، ووعاء المسك معرب، والريح تبدأ بشدة، ونفح الطيب كمنع: نفحاً ونفاحاً بالضم ونفحاناً، والريح هبت والنفحة من الريح الدفعة وفي الحديث: «تعرضوا لنفحات ربكم».

(٢) الزبرجد: حجر كريم يشبه الزمرد جمعه زبارج فارسي معرب.

قلبي بحبـك لم يـزل متعبـداً مذ صرت جامعه البديع الأزهرا

والجراف[1] ينفق من خزائنه السرور جزافا، ويبذل الرغائب لمن وافى، وقف على بابها مستخدماً، وطاف حولها معظماً، نهره كالمعصم، أو خمائله كالحمائل وهو لهذم، أو مرآة مصقولة، وأذوب فضة على صحن زمرد محمولة:

فيا جنتي شعب الجراف وروضة خلالكما نهر يعد نهور
يطيع له العاصي وتخضع دجلة وترخي بنيل المصريين ستور

ثم دخلناها آمنين، وأنخنا حرافدنا[2] شاكرين، يستميل عقولنا لطف شمائل أهلها الكرام، وتميط سجاياهم عن وجوه آمالنا اللثام، نعانق مقصورات التهاني، ونحتسي من ثغر المسرة خمر الأماني:

لا أذم العيس للعيس يد في تلاقينا وللأسفار نجح
قربت منا فماً نحو فم واعتنقنا فالتقى كشح وكشح
وتزودت شذاً من مرشف بفمي منه إلى ذا اليوم نفح
وتعاهدنا على كأس الطلى أنني ما دمت حياً لست أصحو[3]

ولما أردنا الخروج عن حماها الخصيب، ومصافحة كفها الخضيب، أبى سيف مدحي لغيرها أن يجاوز حده، وإن طالت في فراقنا لربعها المدة، خرجنا ونحن نسائل عنها الرائح والغادي، ونقول في الفلاة مخاطبين للحادي:

رد الركاب لأمرٍ عنَّ في خلدي وسمه في بديع الحب ترديدا

---

(١) الجراف: منتزه شمالي صنعاء بنحو مسافة ساعة.

(٢) الحرافد: كرام الإبل.

(٣) الأبيات من قصيدة لابن النحاس أولها:

بات ساهي الطرف والشوق يلح والدجى أن يمض جنح يأت جنح
فكأن الشرق باب مقفل ما له غير هجوم الصبح فتح
يقدح النجم لعيني شرراً ولزند الشوق في الأحشاء قدح

الفصل العشرون
في الحمّام

كنت في زمرة من الأصحاب، وجماعة من لطفاء الأتراب، نتراود في الكلام، ونديـر كأس المحاورة في دخول الحمام، فقال من نعتمد عليه، ونلقي مقاليد الرأي إليه، المبادرة إلى الدخول مقصودة، وإزالة الدرن محمودة، وهذا وقت خال عن الشاغل، وأوان ليس بيننا وبين اغتنام اللذة فيه حائل، والحمام نعمة لا يقوم ببعضها شكر الشاكر، والمريد لحصر مدحه غير قادر. فقلنا ويشهد بذلك قول سيد الأنام، نعم البيت الحمَّام[1] ثم قمنا متوجهين إليه نمشي المرح، طالبين من خزاينه استخراج كنوز الفرح، مشتاقين إليه اشتياق الأزهار، إلى لقاء ماء السحابة والأنهار، وليس شوقنا إلى ضرامه، فكل أحد منا يكفيه نار غرامه:

ولم أدخل الحمَّام من أجل حرِّه وكيف ونار الشوق بين جوانحي

---

(١) قال في نيل الأوطار عن أبي هريرة: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من ذكور أمتي فلا يدخل الحمَّام إلا بمئزر: ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر من إناث أمتي فلا تدخل الحمام. رواه أحمد.

قال في شرح الحديث في اسناده أبو خيرة

قال الذهبي: لا يعرف . وأحاديث الحمام لم يتفق على صحة شيء منها.

قال المنذري: وأحاديث الحمام كلها معلولة.

ولكنني لم يكفني فيض عبرتي دخلت لأبكي من جميع جوارحي[1]

فقرعنا بابه الرحيب، ودعونا فوثب المجيب، فتأملنا خلقته، وتحققنا صورته، وإذا بشاب شابن شادن[2]، حسنه لمن رمق إليه فاتن، ثناياه أصفى من قطر الغمامة، ومحياه أجمل من ذي العمامة[3]، يزري بريم الفلا، جوابه لمن طلب وصاله ألف لا، بخيل باللقا كريم بالقلا، له جبين كالمصباح، نوره ظاهر وضاح، وصدغ كالعقرب، يلذع قلب محبه المعذب، أو كأنه واو حذف لأجله راء صبري فتركني صبًّا، أهيم به ولا أعرف لغيره حبًّا، ليس هو واو العطف على المحبين، فلو كان لما جرعني غصص العذاب المهين:

---

(١) للقاضي العلامة أحمد بن ناصر المخلافي المتوفى سنة ١١١٦ تصدير وتعجيز للبيتين المذكورين وذلك أنه خرج ذات يوم من الحمَّام فلقيه بعض أصدقائه فسأله عن سبب دخوله الحمام فأنشد: (ولم أدخل الحمام من أجل لذة) الخ. وكان قد تناول شيئاً من الحنا فقال له: ما هذا؟ فقال:

وليس خضاباً ما بكفِّي وإنما مسحت به أثر الدموع السوافح

ثم صدر البيتين وعجزهما ونقل معناهما إلى الوعظ فقال:

(ولم أدخل الحمَّام من أجل لذة) وكيف التذاذي بالنيار اللوافح
ولا جئته أبغي اصطلاء بناره (وكيف ونار الشوق بين جوانحي)
(ولكنه لم يكفني فيض مقتلي) على ماضيات من ذنوب فواضح
ولما رأيت العين لم يكف وبلها (دخلت لأبكي من جميع جوارحي)
وليس خضاباً ما بكفي وإنما مسحت به أثر الدموع السوافح

(٢) الشابن: الغلام الناعم الممتلىء، والشادن: ولد الظبي.

(٣) هذا من أمثال أهل مكة وذو العمامة هو سعيد بن العاص بن أمية وكان في الجاهلية إذا لبس عمامة لا يلبس قرشي عمامة على لونها وإذا خرج لم تبق امرأة إلا برزت للنظر إليه من جماله. ولما خطب عبدالملك بن مروان بنت سعيد هذا إلى أخيها عمرو بن سعيد الأشدق أجابه عمرو بقوله:

فتاة ذو العمامة وابنه أخوها فما أكفاؤها بكثير

وقيل المراد بذي العمامة السيد الكريم في قومه.

يجـر بنون الصـدغ قلبي لـلأسى وما خلت أن النون من أحرف الجر

وحواجب حجبت عن محبيها الرقاد، وبدت على ساطع وجهـه محلولكة السواد، تسبي العقول الراجحة، وترمي عن قوسها فتذر الجراحات في كـل جارحة:

بقـاف أقسم لـولا نـون حـاجبـه لم يـفـن صـاد ولا بـاء ولا راء

وأهـداب هـذبت أخـلاق عشـاقهـا، ونصبت شبـاكهـا لصيـد المغـرم بأحداقها، وطرف فاتك فـاتر، كم بـه من جفن ساهـر، يكسر القلوب عند كسرته، ويجر المهج بعنف مع فترته، أسهمه إلى كل فؤاد مسددة، للصـورام منها استعارة مجردة[1]:

بـين السيـوف وعيينـة مشـاركـة من أجلهـا قيل لـلأغماد أجفـان

وخدود ناعمة الملمس، ندية المنظر قانية الملبس، اجتمع بها الضـدان، وهما الماء والنيران، تلفح الضلوع بشررها، وتصفـر الألوان لـرؤية أحمـرها؛ للورد والشقيق من شكلها إذا بدا، إستعارة مرشحة[2] بالندى، بها خال يخال بالأبصار، قيراط عنبر وضع على النـار:

أقـام بلال الخال في صحن خده يـراقب من لألاء غـرتـه الفجـرا

لفظه هو السحر الحلال، وطلعته توجت بتـاج الجلال، وخصـره أنحل من الخلال، نحت فبحت بحب عينه للأعدا، فها أنا مجنـون فيه بـالسودا، غاية حظي خطيٌّ قده، ومنتهى أملي أن يجود بوعـده، ثم أنا لمـا أهدينـا له

---

(١) الاستعارة: اللفظ المستعمل في غير ما وضـع له لعـلاقة المشـابهة كـالأسد المستعمـل للرجل الشجـاع، والمجردة: هي مـا اقترنت بمـا يلائم المستعـار نحو رأيت أسـداً يرمي، إذا كـانت القرينة حالية.

(٢) المرشحة: هي ما اقترنت بما يلائم المستعار منه، نحو: رأيت أسداً له لبد القرينة حالية.

ريحان التحية، وأملنا غصن عطفه بنسيم المخاطبة السنية، أخذ بأيدينا للدخول، وقد صافحتنا راحة القبول، فمشينا حتى وافينا مخلعه، الذي خلعت عليه خلع السرور المتنوعة، وأضحى ربعه بالأماني معمورا، وبكل ما تتوق إليه النفوس مغمورا، فإذا هو قبة بهجتها حالية، وبقعتها من الأنكاد خالية، تفتح بنفسج لازه بين نرجس وزنبق من جصه الناعم، وزها بهار إبريزه على أخضر من صبغه الذي هو كالكمائم، جامه متنوع اللباس، فمن أحمر كالياقوت وأبيض كالماس، وأسود كالسبج، وأزرق كالفيروزج، وأخضر كالزمرد الأبهج، رياض فرشه مطرزة معرجة، وبمسك الغزال متأرجة، فاستقلنا فيه برهة قليلة، وألقينا أحمال الهموم الثقيلة، ثم تجردنا عن الأردان، ووضعنا عن كواهلنا الأحزان:

وما أشبه الحمَّام بالموت لامرىء ... تبصر لكن أين من يتبصر
يجرد من أمواله ولباسه ... ويبقى له من كل ذلك مئزر

ودخلناه باباً بابا، وتأملناه فوجدناه قبابا، وظفرنا من طيبه بأوفى نصيب، وتلقانا بصدر رحيب، ونثر علينا لؤلؤ عرقه إكراما، وقال أدركتكم على متصعد أنفاسي برداً وسلاما، وأفاض من غالي دمعه ما يرخص لديه نهر الأبلة، ويهبط له جدول المجرة المسامت للأهلة؛ وخاطبنا صداه: أهلاً أيها الكرام، وسهلاً بكم أيها الأعلام، وجادلنا بدنانير الفرح من خزائنه وأكياسه[1]، ومد لنا موائد إيناسه، وأدار لنا عقار المسرة في أقداحه، وألبسنا

---

(١) خزائن الحمام: بعض محلات الاستحمام فيه والأكياس قطع من الثياب الصوف تخاط على قدر اليد يدلك بها البدن مبالغة في التنظيف والعامل بها يقال له مكيس.
ولبعض أهل الأدب في المعنى:

دخلت حمامكم فوافا ... خويدم حاذق مكيس
وقال لي إنه لبيب ... قلت نعم يا فتى وكيس

ومن أحسن ما جاء في وصف الحمام ما قاله أبو طالب المأموني: =

ديباج انشراحه:

إن حمامنا الذي نحن فيه أي ماء به وأية نار
قد نزلنا بها على ابن معين وروينا عنه صحيح البخاري[1]

فزال عنا درن القلوب والأجساد، وانشرح منا كل فؤاد، وتحلينا بيتيم العرق، وعطفنا معاطفنا فيه على نسق، وخضبنا الأكف والأقدام، وغمزنا ريمه فشفي الأوام؛ وتساقط من ورد وجناته نداها، كأنها تخمد من جوانحنا ما اشتعل من هواها، وهو يخطر بقامة رطيبة، أضحت فضتها بنضار الحنا خضيبة:

لو كنت في الحمام والحنا على أعطافه ولجسمه لألاء
لرأيت ما يسبيك منه بقامة سال النضار بها وقام الماء

= وبيت كأحشاء المحب دخلته وما لي ثياب فيه غير إهابي
أرى محرماً فيه وليس بكعبة فما ساغ إلا فيه خلع ثيابي
بماء كدمع الصب في حر قلبه إذا آذنت أحبابه بذهاب
توهمت فيه قطعة من جهنم ولكنها من غير مس عقاب
يثير صباباً بالبخار مجدلاً بدر زجاج في سماء قباب

وللبلنسي:

رب حمام تلظى كتلظي كل وامق
ثم أذرى عبرات صوبها بالوجد ناطق
فغدا مني ومنه عاشق في جوف عاشق

وللسيد الأديب أحمد بن أحمد الأنسي المعروف بالزنمة:

لقد أشبه الحمام هذا بطرزه من الروض إذ يزهو بحسن فنون
وأشبه حالي في الغرام فقد حكى حرارة أنفاسي وفيض عيوني

(١) قصد الشاعر هنا التورية: فالمعين هو الماء السائل أو الظاهر وبخار الحمام معروف، وابن معين هو أبو زكريا يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام المري البغدادي المشهور كان إماماً حافظاً وهو صاحب الجرح والتعديل مات رحمه الله سنة ٢٣٣ والبخاري هو الإمام الحافظ الحجة محمد بن اسماعيل صاحب الصحيح مات رحمه الله سنة ٢٥٦.

ولم يزل يغازلنا بأحداقه، ويصب علينا ماء كأنه دمع عشاقه:

بالماء وافى ريم حمامنا وصبه عمداً على الصب
وقال لي هل لك في بارد قلت نعم من ريقك العذب

ولما استكملنا أعماله، وشكرنا إفضاله، خرجنا إلى مسكن هو لذة الناظر، وروضة المحاضر والمسامر، وأحد جنان الأرض المزخرفة، وخلعة الآفاق المفوفة، ومحط اللذات، ومجمع كل لطيف الذات، حيث الأزهار دانية القطوف، والأغصان مخضرة الحلل مصفرة الشنوف:

والترب مصقول الترائب نشره متأرج يثني على الأنواء

حيث الجداول منسابة، والظباء لأسود الغاب غلابة، والحمام مغردة، والحياض مطردة، والنسيم مشببة، وثغور الكاسات محببة، والنهر مصفّق، والدوح على المياه محلق، وطرف النرجس بدمع الغوادي هامع، ونجمه في سماء الأوراق طالع:

وبلبل الدوح فصيح على الأيكة والشحرور تمتام

حيث الورد نصيبي من بين سائر الزهور، والساقي جارية نفرت من الحور، وقد توقد جمر الشقيق، وتختمت أنامل الأشجار منه بياقوت وعقيق:

والطل قد رش ثوب الدوح حين رأى مجاسر الزهر في أذياله نفحت

وأهدى لنا البنفسج فيروزجه، وقبلنا وجنات الورد المضرجة، والتقطنا لؤلؤ الأقحوان النظيم، وبان في البان الارتياح لخطرات النسيم:

كأنما الغصن إذ هب النسيم به حيران حمِّل أشواقاً فلم يطق

ودب على صفحات خد النهر عذار الريحان، وكأس الزنبق من شراب الطل فيَّاض ملآن، وأقراط البهار خافقة، كأنها قلوب عشاق سلبتهم

المحاسن الرائقة، والأشجار طابت أصلاً وطالت فرعاً، ويمين الشمال تنسج على الماء درعا :

وإن شوش الماء النسيم فخلها عسى أنها في ذلك الماء تغرق

فخرجنا من نعيم إلى نعيم، وشكرنا من إفضاله علينا عميم، وسرحنا العيون في العيون، وحدقنا في تلك الأفنان والفنون، وتناولنا من ثمار مجموعة، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة :

ناولتنا أيدي الغصون ثماراً أخرجتها لنا من الأكمام

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الحادي والعشرون
في الحماسة

قعدت بجنب طريق، وليس لي غير الله من رفيق، على منهل عذب ورد مائه، إذا كرعت منه الطيور فكأنها تزق[1] فراخاً لصفائه:

غدير دار نرجسه عليه ورق أديمه وصفا وراقا
تراه إذا حللت به لورد كأن عليه من حدق نطاقا[2]

---

(١) زق الطائر فرخه: أطعمه.

(٢) النطاق: ما يشد به الوسط، والحدقة سواد العين الأعظم جمعه حدق وأحداق، والمعنى أنه جلس على منهل عذب ماؤه وصفا أديمه. وفي الأدب العربي صفحات أودع فيها الشعراء خير ما أنتجته قرائحهم الصافية وشعورهم الرقيق في وصف المياه والأنهار والغدران والجداول والحياض ومباهج الطبيعة، وإليك بعض ما قيل في وصف الحياض والمناهل، قال بعض الأعراب يتشوق إلى أحواض مأرب:

فيا لهف نفسي كلما التحت لوحة على شربة من بعض أحواض مأرب
بقايا نطاف أودع الغيم صفوها مصقلة الأرجاء زرق المشارب
ترقرق ماء المزن فيهن والتقت عليهن أنفاس الرياح الغرائب

ولابن المعتز في وصف نهر صقلت غدرانه الرياح:

وترى الرياح إذا مسحن غديره وصفينه ونقين كل قذاة
ما إن يزال عليه ظبي كارع كتطلع الحسناء في المرآة

وقريب من هذا تشبيه زهير لجدول ماء تفر ضفادعه خوفاً من الغرق كلما انصب الماء من الدلو وتحدر في الجدول حيث يقول: =

والـركب ما بـين رائـح وغـادي، والـراحـل مـا بـين مضـل وهـادي، واليعمـلات تبدو لهـا زغردة[1] من شـوقها، وبيـاض في الغبـراء من ضـرب سوقها، فإذا بفارس عـلى أدهـم سلهـم سرعـوف[2]، الحسن في الجياد عليـه مـوقوف، كـأنه قـطعة من حنـدس الظلام، أو خـال في وجنات الأيـام، أو

يحيل في جدول تحبو ضفادعه حبو الجواري ترى في مائه نطقا
يخرجن من شربات ماؤها طحل على الجذوع يخفن الغم والغرقا

ولكعب بن زهير في تشبيه ثغر سعاد وريقها:

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول
شجت بذي شبم من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه من صوب غادية بيض يعاليل

ولعنترة في وصف روضة ألح عليها الغيث:

جادت عليه كل بكر حرة فتركن كل قرارة كالدرهم
سحاً وتسكاباً فكل عشية يجري عليها الماء لم يتصرم

ولأبي سعيد الرستمي في وصف الماء الجاري وهو لطيف جداً:

وماء على الرضراض يجري كأنه صفائح تبر قد سبكن جداولا
كأن بها من شدة الجري جنة فقد ألبستهن الرياح سلاسلا

ولمجير الدين ابن تميم:

ونهر بحب الروض أصبح مغرماً يروح ويغدو هائماً بوصالها
إذا بعدت عنه شكا بخريره جفاها وأمسى قانعاً بخيالها

وللصفدي:

ولما زها زهر الربيع بروضة وغدا له فضل ينير لديه
قام الحمام له خطيباً بالهنا وجرى الغدير فخرَّ بين يديه

ولله ابن خفاجة الأندلسي حيث يقول في وصف نهر حفت به الأشجار:

لله نهر سال في بطحاء أشهى ورود من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكنفه مجر سماء
قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنه هدب يحف بمقلة زرقاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

(١) اليعملات جمع يعملة: وهي الناقة السريعة. الزغردة: هدير للإبل يردده في جوفه.
(٢) السلهم، كجعفر: الضامر والطويل: والسرعوف كعصفور: الفرس الطويل.

مسح[1] أسود ناعم، أو شاهق من سبح قائم، له غرة كالشهاب، يقوم قتامه[2] كالسحاب، أكرم به من جواد، يسابق النسيم في الطراد، أشاهد منه العجائب، وأنظر من شكله الرغائب:

وأرى الوحش في يميني إذا ما كان يوماً عنانه بشمالي

فلما دنا إلي، وأفاض تحيته علي، أدرت نظري في ذاته، وتفكرت في حسن حركاته وسكناته، فوجدته غضنفرا، ورأيت منه ما يرتاع له أسد الشرى، البسالة في وجهه بادية، ولوائح الإقدام عليه غير خافية، له أحداق متأججة كالنار، وأكف بها قرقف المنية يدار:

في كل منبت شعرة من جسمه أسد يمد إلى الفريسة مخلبا

سيفه قرصوف[3]، ورمحه بإثارة الحتوف معروف، درعه شباك زردت لاقتناص الآجال، وقوسه فخ[4] نصب لصيد الأبطال، لا يستبشر إلا إذا تدمث[5] الرمل من حمرة دمه، ولا يعرف من أشكاله غير بياض لهذمه ولا

---

(١) المسح ثوب من الشعر أسود ناعم ومنه لأبي العتاهية:

رحن في الوشي وأصبحن عليهن المسوح

القتام: العثير والمعنى أن هذا الفارس أقبل على فرس أسود من جياد الخيل يسابق الريح في عدوه:

يطير على وجه الصعيد إذا جرى فما أن يمس الأرض من أرضه حرفا
ويعطيك عفواً من أفانين ركضه إذا سمته التقريب أوسمته القطفا
له ذنب ضاف يجر على الثرى طويل كأذيال العرائس بل أضفى
يواجه وجه الوحش إن سار خلفها فيعجلها من حيث لم يحتسب خطفا

(٢) القرصوف: القاطع.

(٣) الفخ: المصيدة جمعه فخاخ وفخوخ ومنه:

نعوذ بالله من أناس تشيخوا قبل أن يشيخوا
تقوسوا وانحنوا رياء فاحذرهمو إنهم فخوخ

(٤) دمث المكان وغيره: سهل ولان ومنه المثل: دمث لجنبيك قبل النوم مضجعاً، والدماثة سهولة الخلق، قال الشاعر:

لنا جانب منه دميث وجانب إذا رامه الأعداء ممتنع صعب

يهتز إلا إذا رمق الخيفق[1] بالنجيع راوية، ولا يبتسم إلا إذا شاهد عيون الطعنات باكية:

من كل مقلة طعنة نجلاء مذ نظرت فراق الروح تبكي بالدم

فقلت له أدن مني أيها الضيغم، واجل من حالي بقعودك لدي حالك الغم، فنزل وقعد، وقال لا أستطيع لسؤالك من رد، ثم قلت له من أنت أيها الأغر الشريف، والصنديد الذي له في أوج العلى مقام منيف، وسحابة الفضل والإفضال، وكعبة الندى والنوال، وجواد الجود السابق، وورد المحاسن الرائق، فما خفي علي شرف أصلك، وطيب آبائك وأهلك، فقال أنا من لا يرتاح إلا لصهيل السلاهب[2]، ولا يشتاق إلا إلى المناقب والمقانب[3]، أتحلى بقلائد السلاح، وأخوض عباب الحرب إذا تشهجب هرجاب[4] الرماح:

وما السمر عندي غير خطية النقا ولا البيض عندي غير بيض اللهاذم

أنا رماحس[5] رمى حساده بالمعالي، وغدافر ترتدع وترتعد من خوفه العوالي، وسلفع[6] سل فعاله عن إقدامه، واستخبر عن سعيه إلى الجلاد

---

(١) الخيفق: الفلاة الواسعة.

(٢) الصهيل: صوت الفرس. والسلهب الطويل جمعه سلاهب.

(٣) المناقب: خلال الخير، والمقانب: جماعة الخيل والفرسان، ومنه لكعب بن زهير في مدح الأنصار:

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب من صالح الأنصار

(٤) الشهجبة: اختلاط الأمر وتشهجب الأمر دخل بعضه في بعض. والهرجاب بالكسر: الطويل من الناس وغيرهم.

(٥) الرماحس: الشجاع الجريء والأسد وغدافر كعلابط: الأسد والشديد العظيم من الإبل ومنه:

أجدك لا تراه ولن تراه تخب به غدافرة ذمول

(٦) سلفع: كجعفر، الشجاع الجريء الواسع الصدر.

ثابت أقدامه، أنا أسمح من لافظة[1]، وأبلغ ناثر لدر الكلم إذا ساعد لافظه، وأفرس من بسطام[2] بن قيس المشهور، وأشجع من أسامة[3] حيث السيف من جفنه مشهور، أنا ضبارم[4] لا يهاب ضرب الظبا، وجواد ما قيل على مر الأيام كبا، وكريم يهتز لتفريق النوال، اهتزاز رمحه في ساعة النزال، أنا سيد موطوء الأكناف[5]، وعسرب[6] لا يمنعه عن بلوغ مرامه ضبيب الأسياف[7]، أقطع بسفائن همتي بحور البيد، ولا أرد إلا جداول الصوارم إذا لاقيت يوماً حامي الصناديد، أسدٌ أسدُّ الثغور، وسميدع ذيل بسالته على البسيطة مجرور، طيب الوشيجة والنجار[8]، يسبح من الأخطار

---

(١) المراد به الديك لأنه يأخذ الحبة بمنقاره فلا يأكلها وإنما يلقيها إلى الدجاجة واللافظة أيضاً التي تزق فراخها من الطير لأنها تخرج من جوفها لفرخها ومنه المثل: (أسمح من لافظة).

(٢) هو بسطام بن مسعود بن قيس بن خالد أحد بني شيبان بن ثعلبة بن عكابة فارس بكر بن وائل وابن سيدها وأحد فرسان العرب ومغاويرها الأبطال، قال أبو عبيدة: أجمع العكاظيون على أن فرسان العرب ثلاثة: ففارس تميم عتيبة بن الحارث بن شهاب أحد بني ثعلبة بن يربوع بن حنظلة صياد الفوارس وسم الفرسان، وفارس قيس: عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب، وفارس ربيعة بسطام بن قيس بن مسعود وكان بسطام نصرانياً قتل بعد مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم قتله عاصم بن خليفة الضبي وأسلم قاتله في خلافة عثمان فكان يقف ببابه فيستأذن عليه فيقول عاصم بن خليفة الضبي قاتل بسطام بن قيس بالباب.

(٣) أسامة: من أسماء الأسد.

(٤) الضبارم: الجريء على الأعداء. قال عقيل بن علفة:

تناهوا واسألوا ابن أبي لبيد أأعيته الضبارمة النجيد

(٥) يقال: رجل موطأ الأكناف كمعظم أي سهل دمث الأخلاق سمح كريم ولابن زيدون:

موطأ أكناف السماح دنت به خلائق زهر إذ أناف نِصاب

وفي الحديث قال صلى الله عليه وآله وسلم ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون.

(٦) العسرب: الأسد.

(٧) ضبيب السيف: حده.

(٨) الوشيجة: عرق الشجرة ووشيجة القوم حشوهم والوشجة الرحم المشتبكة: والنجار الأصل ومنه المثل: كل نجار إبل نجارها أي فيه كل لون من الأخلاق ولا يثبت على رأي.

في لجج البحار، أنا في معركة الوغى مطعان، وفرانق براثنه[1] غير السنان، تتفاخر بي الأيام، وتتحاسد عليَّ الأعوام:

ينافس يومي فيَّ أمسي تشرفاً وتحسد أسحاري عليَّ الأصائل[2]

طعن الأسل[3] لدي كطعم العسل، إذا خطرت من نضح الدماء في برد ممرجل[4]، أروِّي الخطِّية من شأبيب مطر النجيع، ويروقني من فراق الروح مقام التوديع، أشتاق إلى النزال، فليس مذهبي مذهب من قال:

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة دعوني فإني آكل الخبز بالجبن[5]

---

(١) الفرانق: كعلابط: الأسد: والبرثن بالباء الموحدة من الأسد ظفر.

(٢) البيت من قصيدة لأبي العلاء المعري مطلعها:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

(٣) الأسل: الرماح:

(٤) الممرجل: نوع من الوشي.

(٥) معنى البيت وما قبله أنه كثير المخاطرة بنفسه يرتكب المهالك لشدة حماسته وجرأته وأنه يزداد ثقة بنفسه كلما ازداد الخطر وادلهم الخطب وهو مع ذلك كريم المنبت شريف الأصل عريق المجد سامي الهمة قوي العزيمة لا يهاب الموت.

والذ من قرع المثاني عنده في الحرب ألجم يا غلام وأسرج

لا يدين بمذهب ناصر الدين بن النقيب القائل:

و

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة دعوني فإني آكل العيش بالجبن

وقد قصد التورية فالمعنى القريب ظاهر والمعنى البعيد هو أن سلامته المقتضية لأكل العيش إنما كانت بالذل فإن الجبان كثير الخوف دائم الإحجام يهاب الموت ويبتعد عن أسبابه لأنه لا يرى الموت إلا في سببه وعليه قول بعض الجبناء.

ظلت تشجعني هند وقد علمت أن الشجاعة مقرون بها العطب

أقول لا والذي حج الحجيج له لا يشتهي الموت عندي من له أدب

وكان يقول بعضهم: (لأن يقال فر أخزاه الله أحب إلي من أن يقال قتل رحمه الله) واسمع إن شئت قول عنترة في معشوقته

أحبك يا ظلوم فأنت عندي مكان الروح من جسد الجبان

ولو أني أقول مكان روحي خشيت عليك بادرة الطعان

وذلك لجرأته وإقدامه بخلاف الجبان المفؤود فإنه يشح بروحه ولا شح البخيل بدرهمه والجريح =

أخدب[1] هامات الدهر بسيف عزمي، وأمزق رداء الردى بأيدي حزمي، لا تروعني الحوادث بعيهم[2] خطبها، ولا تفل جيش وقاري بحديد عضبها، لا أتأسف على ما ذهب، ولا أذل ولو اقتحمت العطب، أدع الرذائل ولو دعيت إليها. وأعرض عن الرغائب إذا أهنت عليها:

وأظمأ إن أبدى لي الماء منة ولو كان لي نهر المجرة موردا[3]

أكر في ميدان الهلاك بشرجب[4] همتي، وأصبغ بكافور القتام عنبر لمتي، أنا البدر الذي بذل البدر نوالي، وأشرقت غرتي فجلت دامس الليالي، أنا في ظلم العجاج نبراس، وإذا حمي الوطيس فأنا جرفاس[5]؛ أحمي الذمار،

= بمرهمه، على أن هذا الخلق الذميم لا يؤخر أجلا ولا يدفع مقدوراً كما قال أبو الطيب المتنبي.

قد يصاب الجبان في آخر الصف وينجو مقارع الأبطال

سيان أمام القضاء من بالقاع ومن على الشراع:

يموت راعي الضان في جهله ميتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره وزاد في الأمن على سربه
وغاية المفرط في سلمه كغاية المفرط في حربه
فلا قضى حاجته طالب فؤاده يخفق من رعبه

(١) خدب فلانا بالسيف: ضربه.

(٢) العيهم: الشديد والناقة السريعة ومنه:

إذا الأرض لم تجهل علي فروجها وإذ لي عن دار الهوان مراغم
فلو شئت إذ بالأمر يسر لقلصت برحلي فتلاء الذراعين عيهم

(٣) البيت من قصيدة للقاضي السعيد بن سناء الملك منها:

سواي يخاف الدهر أو يرهب الردى وغيري يهوى أن يكون مخلدا
ولكنني لا أرهب الدهر إن سطا ولا أحذر الموت الزؤام إذا عدا
ولو مد نحوي حادث الدهر كفه لحدثت نفسي أن أمد له يدا
وإنك عبدي يا زمان وإنني على الرغم مني أن أرى لك سيّدا

(٤) الشرجب: الفرس الطويل والسيد الكريم.

(٥) الجرفاس والجرافس: هو الضخم الشديد والجمل العظيم والأسد الهصور وجرفسه صرعه.

وأصون الجار وإن جار، أبين عضدي[1] إذا أبان مللا، واترك ما شابه شين فلا أنال منه أملا:

وأهجر الماء وإن كانت معلقة به حياتي إذا ما شابه كدر

أكره طول الأجل، ولا أحدث نفسي بالأمل، أشتاق إلى الحمام، وأظمأ لوصال الموت الزؤام، أنا من يأبى سيفه الوقوف في غمده، وإذا جرد تجاوز غاية حده، أنا فتى له حلم قاطع، وعلم ليس بينه وبين الصواب مانع:

عليم بأخبار الأمور بظنه كأن له في اليوم عين على غد

أصبر على الرزايا[2]، وأسبق إلى منادمة المنايا، أنا طراز المجالس، وفي حلبة الفضايل فارس وأي فارس، لا أتقاعد عن طلاب المجد، وأصبو إلى قراع الصوارم لا إلى سكان رامة ونجد:

والبيض قد كسرت حروف جفونها وعوامل الأسل المثقف تعمل

أنا وسيع الدسيعة[3]، ورتبتي بين الأنام منيعة رفيعة، لي منطق أبهج من اللؤلؤ اليتيم، وأروح من ورد الأوجان إذا سقي ماء النعيم، أخلاقي

---

(١) أي أقطعها إذا آنست منها مللا. وهو مأخوذ من قول العدواني:

والله لو كرهت كفي مصاحبتي لقلت للكف بيني إذ كرهتيني

ولآخر

لو أن كفي أبت يوماً مصاحبتي لقلت للكف بيني إذ كرهتيني
ثم التفت إلى الأخرى وقلت لها أما تكوني وإلا مثلها بيني

ونظيره قول المثقب العبدي من قصيدة له يخاطب بها معشوقته ويطلب منها أن تمتعه قبل رحيلها بالنظر والحديث وأولها:

أفاطم قبل بينك متعيني ومنعك ما سئلت كأن تبيني

ومنها:

فإني لو تخالفني شمالي خلافك ما وصلت بها يميني
إذاً لقطعتها ولقلت بيني كذلك أجتوي من يجتويني

(٢) الرزايا جمع رزية: وهي المصيبة.

(٣) الدسيعة: العطية الجزيلة والمائدة والجفنة الكبيرة والخلق والجمع دسائع ومنه: =

يوم النزال مجعَّدة، ويوم السلم أبهى من عقود الجواهر المنضدة، أنا الحبر الذي تستخرج من بحر حبره الفرايد، ويجود من لسانه بالفوايد، ويزين الأقاليم بنفثات أقلامه، ويقتطف ثمر المنى من روضة أيامه، إن تكلم تعثرت لديه ألسنة الفصحاء الأكابر، وإن تصدر استفاد منه كل محاور:

وإن أقر على رق أنامله أقر بالرِق كتاب الأنام له[1]

نحن فرقة نقرضب بقرضاب[2] العلى أوداج الدهور، ونأنث عن منادمة أيام السرور، نطرز بالمخاذم برد العجاج الأكدر، ونجرع الجيش العرمرم من السمر والبيض غصص الموت الأحمر:

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل[3]

= ضخم الدسيعة والإيمان غرته كالبدر ليلة كاد الشهر ينتصف

(١) البيت لأبي الفتح علي بن محمد البستي المتوفى ببخارى سنة ٤٠٠ هـ وقبله:

إن سن أقلامه يوماً ليعملها أنساك كل كمي هز عامله
وإن أمر على رق أنامله أقر بالرق كتاب الأنام له

وهو من كبار الكتاب المعروفين بحسن الصناعة والإمعان في أنواع البديع وهو أيضاً شاعر مجيد له أشعار سائرة منها:

الدهر خداعه خلوب وصفوه بالقذى مشوب
وأكثر الناس فاعتزلهم قوالب مالها قلوب
فلا تغرنك الليالي وبرقها الخلب الكذوب
ففي قفا أنسها كروب وفي حشا سلمها حروب

(٢) القرضاب: السيف القطاع وقرضبه قطعه والودج محركة عرق في العنق.

(٣) البيت من قصيدة للسموأل بن غريض بن عاديا اليهودي وهو صاحب الحصن المعروف بالأبلق الفرد بتيماء، وبالسموأل يضرب المثل في الوفاء فيقال أوفى من السموأل قال بعض أهل الأدب

أنا السموأل في حفظي الوفاء لهم وهم إذا وعدوا بالوصل عرقوب

نال السموأل هذه الشهرة لأنه أسلم ابنه ولم يخن أمانته في أدراع أودعها عنده امرؤ القيس لما صار إلى الشام يريد قيصر ملك بيزنطة فطلبه المنذر بن ماء السماء فلجأ إلى السموأل ومعه أدرع كانت لأبيه فوجه المنذر بالحارث بن ظالم في خيل وأمره أن يأخذ مال امرىء القيس من السموأل فلما نزل به تحصن منه وكان له ابن قد يفع وخرج إلى القنص فلما رجع أخذه الحارث ثم قال للسموأل أتعرف هذا؟ قال نعم هذا ابني. قال أفتسلم ما قبلك أم أقتله قال:

أنا من قوم تخضع لهم الرقاب، ويكاد لهيبتهم يسيل الصارم من القراب[1]، أيدي خيلهم في الميدان صوالج والرؤوس أكر، ورماحهم أقلام تنقط ما كتبته الصوارم بنقس من نجيع هدر:

ومن العجايب أن متن سيوفهم تلد المنايا السود وهي ذكور[2]

يفتحون مغلق الحصون بأيدي النصر، ويهصرون[3] بأنامل العوالي كل شاسع ألطف هصر، ويرسلون أرشية[4] الرماح، فتطلع من الأجواف وقد

= شأنك به فلست أخفر ذمتي ولا أسلم مال جاري. فقتل الحارث الغلام ورجع عنه وأول قصيدته التي منها البيت المذكور.

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل

ومنها:

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

والظباة جمع ظبة وهي حد السيف والمعنى أنهم لشرفهم لا يقتلون إلا بالسيوف ولا يقتلون بالعصي والحجارة كما يقتل رعاع الناس.

(١) الصارم: السيف والقراب الغمد وهو معنى قول الشاعر:

أذاب الرعب منه كل عضب فلولا الغمد يمسكه لسالا

إثم إن هؤلاء الشجعان الذين تسيل من هيبتهم النفوس إذا خاضوا المعارك جعلوا رؤوس الأعداء أكراً لأيدي خيلهم ورماحهم أقلاماً تنقط بمداد من الدم ما حصدته السيوف.

(٢) قال: ومن العجائب إن سيوفهم تلد المنايا وهي ذكور ولبعض الأدباء في معنى البيت

ومن عجب أن الصوارم والقنا تحيض بأيدي القوم وهي ذكور
وأعجب من ذا إنها بأكفهم تأجج ناراً والأكفّ بحور

وقال آخر:

ولا عيب فيهم غير أن صلاتهم تغرق آمال العفاة بحورها
وإن السيوف الهند في كل معرك بإيمانهم حاضت دماء ذكورها

(٣) الهصر: الإمالة أو القطع من دون إبانة، والعوالي الرماح ومنه:

ولو إني جعلت أمير جيش لما حاربت إلا بالسؤال
لأن الناس ينهزمون عنه وقد صبروا لأطراف العوالي

(٤) الأرشية: الحبال.

تعلقت بأطرافها الأرواح، يفيضون على رياض الأجساد، غديراً من بيض الهندية الحداد، فتنبت شقيق دم قاني، ويعود بها كل موجود فاني، تشرف المشرفية بمصافحتهم، وتكتسب من عزمهم عزماً لمنادمتهم:

إذا ما دجى ليل العجاجة لم تزل بأيديهم حمر إلى الهند منسوب
عليها سطور الضرب تعجمها القنا صحايف يغشاها من النقع تثريب

ذاتهم جواهر زينت بها نحور الحسب، وغصون ربيت في روض العلم والأدب، صناديد شجعان، وغطارفة ينهد لهم تهلان[1]، أسود ما صيدها إلا إذا ظفرت بيوم الجلاد، ولا غابها[2] إلا ظهور الجياد:

وفوق ظهور الخيل ماتوا فأصبحوا وفي كل سرج فوقها لهم قبر[3]

فلما أتم حديثه الغريب المسلسل، وأسند مشهور نسبه فسقى القلب المعضل[4]، وحصلت من خصاله على فايدة، ومن خطابه على كل نفثة هي

---

(١) ثهلان: جبل مشهور.

(٢) غاب الأسد: عرينه.

(٣) البيت من قصيدة لعلاء الدين بن مليك الحموي وهو مأخوذ من قول ابن حجة.

ماتوا على تلك السروج مخافة فكأن هاتيك السروج مقابر

(٤) الغريب، والمسلسل، والمشهور، والمعضل: من مصطلح علم الأثر فالغريب ما انفرد راو بروايته أو براوية زيادة فيه في المتن أو السند وينقسم إلى غريب صحيح وإلى غريب ضعيف وإلى غريب حسن وفي جامع الترمذي منه كثير: والمسلسل ما ورد بحالة واحدة في الرواة أو الرواية وله أمثلة وأقسام كما في نيل الأماني، والمسند ما اتصل سند روايته، والمشهور ما له طرق ويقال له المستفيض سمي بذلك لانتشاره من فاض الماء. ومنهم من غاير بين المستفيض والمشهور كما في نخبة الفكر، والمعضل ما سقط من رواته قبل الصحابي اثنان فأكثر مع التوالي، وقال ابن الصلاح: إن أقوال المصنفين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قبيل المعضل ومن أحسن ما جاء في التوجيه باصطلاح المحدثين القصيدة التي مطلعها.

غرامي صحيح والرجاء فيك معضل وحزني ودمعي مرسل ومسلسل
وصبري عنكم يشهد العقل إنه ضعيف ومتروك وذلي أجمل
ولا حسن إلا استماع حديثكم مشافهة يملى علي فأنقل

ليتيم الدر إلى صدف الأسماع قايدة، ودَّعني وقام، وجثى بين يدي وأشار بالسلام، وركب جواداً يكاد يسبق ظله الملازم، ويزاحم في الجو متراكمات الغمايم، فداجيته بطرفي وليل النقع عليه قد دجى، وشاهدته حتى انقطع من رؤيته الرجا.

الفصل الثاني والعشرون
في الحرب

عزم خليفة قطرنا، على أن نصحبه للجهاد بأسرنا، فحضره كل غضنفر محراب[1]، وعليه من فضفاض الدروع أثواب، وأقبلت إليه الجحافل، وحلقت به الصواهل:

من الجياد اللواتي كان عَوَّدها ... بنو الفضيض لقاء الطعن بالثغر
تغني عن الورد إن سلوا صوارمهم ... أمامها لاشتباه البيض بالغدر

وحفته الكتايب الخضر[2]، واشتبكت عليه السمر، وخفقت بين يديه رايات القتال، وتهيأت أجناده للنزال، وألمت بناديه الفرسان، وأجابته غطارفة شجعان:

أهلة في سماء من مغافرها ... لها التراييك أفلاك وهالات[3]

وغص ناديه[4] بالأقوام، ونصبت حول داره مرفوعات الأعلام، ولبته

---

(١) حرب ومحرب ومحراب: شديد الحرب شجاع.

(٢) الكتيبة: القطعة من الجيش والجمع كتائب والخضر العظيمة، والخضر: قبيلة مشهورة بجودة الرمي.

(٣) المغافر جمع مغفر: الخوذة. التراييك: جمع تريكة أو تركة بفتح فسكون بيضة الحديد، والفلك محركة مدار النجوم جمعه أفلاك. والهالات جمع هالة وهو الاطار.

(٤) النادي والمنتدى: مجتمع القوم، قال تعالى: (فليدع ناديه سندع الزبانية).

ألسنة الأسنة في راحة كل كمي[1]، وأهلت في سماء حضرته أهلة القسي، وتنبهت أجفان السيوف، وأسرعت عساكره متدرعة للحتوف، فلما استكمل النصاب، وطفا جيشه العرمرم كالعباب، أخذ في التقدم إلى الأعدا، وبذل في الانتقام منهم جهدا، فما كانت إلا ساعة يسيرة، وقد حلقت القوم بساحتهم الحقيرة، وضاق ناديهم، وخرس مناديهم، وخمدت نار شرهم، وكسروا بعد جبرهم، وتفرقت فرقهم، ونزل بهم فَرقهم[2]، وكلمتهم السنة السهام، وحام حول حماهم الحمام، وخذلت فرسانهم، وتبلدت أعوانهم، وصرخت بهم صواعق المنجنيق[3]، وعاد كل منهم وهو في بحر دمه غريق، ورميت شياطينهم بشهب الأسنة اللامعة، ونسخت آية مخاطبتهم بأية السيف القاطعة[4]، وتشتت جمعهم، وصرف منعهم، وعز عليهم المفر، وضاق بهم رحب المقر، وتضعضعت قطورهم، وعاد حزناً سرورهم، وحان[5] انقضاء آجالهم، وحال الموت بينهم وبين آمالهم، وخيمت عليهم سحائب العجاج، وتلاطمت بين أيديهم من النجيع الأمواج:

تخلق البحر ذاك اليوم من دمهم والموج ترقصه فيه المسرات

قابلتهم الأسود الغالبة، والليوث الطاعنة الضاربة، وأسيل دمهم على الأسل، وتوجهوا لأمر لا طاقة لهم به ولا قِبَل:

---

(١) الكمي: الشجاع.

(٢) الفرق: الخوف، والحمام بكسر الحاء: هو الموت.

(٣) المنجنيق: آلة للحرب تستعمل في الإحراق ورمي الحجارة كالمدفع.

(٤) النسخ: النقل سواء كان نقل الشيء بذاته كما يقال نسخت الشمس الظل أي نقلته من مكان إلى مكان: أو نقل صورته كما يقال نسخت الكتاب إذا نقلت عنه صورة مثل الأولى وورد نسخت الريح الأثر أي أزالته وفيه التلميح إلى الآيات المنسوخة بأية السيف.

(٥) حان: اقترب وآن والمعنى أن هذا الجيش الكامل العدة والعدد لما قابل أولئك العصاة قضى عليهم القضاء الأخير وحال بينهم وبين ما كانوا ينزعون إليه وقد أجاد في وصف الملحمة =

أقيمت صلاة الخوف فيهم وكبرت صواعق رعب للقلوب صوادع
وصلت سيوف في محاريب هامهم فخروا سجوداً والمهند راكع[1]

وطالت عليهم ساعة الجلاد، ورويت من نحورهم الصعاد، وحمرت صحايف الصفائح بدمهم، وعكفت عليهم أثقال ندمهم، التهبت لهم المشرفية من أجفانها، فكمهت عين الغزالة من لمعانها:

إن مس شمس الضحى من لمعها رمد كحلنها بالعجاج الأعوجيات[2]

= والجيش ووصف ما نزل بالقوم من الدمار وحل بساحتهم من النكال، ولأبي الطيب في وصف جيش:

وذي لجب لا ذو الجناح أمامه بناج ولا الوحش المثار بسالم
تمر عليه الشمس وهي ضعيفة تطالعه من بين ريش القشاعم
إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة تدور فوق البيض مثل الدراهم
ويخفى عليك الرعد والبرق فوقه من اللمع في حافاته والهماهم

ومنها في وصف المعركة:

ضممت جناحيهم على القلب ضمة تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب وصار إلى اللبات والنصر قادم
حقرت الردينيات حتى طرحتها وحتى كأن السيف للرمح شاتم
ومن طلب الفتح الجليل فإنما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

(١) ولابن النبيه من قصيدته التي مطلعها:

من سحر عينيك الأمان الأمان قتلت رب السيف والطيلسان

في هذا المعنى قوله:

له على وقع الظبا هزة إذا التقى الجمعان يوم الرهان
سلت فصلت في رؤوس العدى كأن في الآذان منها أذان

(٢) العجاج: الغبار، والأعوجيات: الخيل السوابق نسبة إلى أعوج جواد مشهور إليه تنسب كرام الخيل ومن كرامها المشهورة أيضاً: شق، وداحس وصبيب، وذا اللمة، وطرب، واللزاز، والسلب، والوجيه، ومكتوم، ولاحق، وغراب، وزهدم، قال الجرجاني من قصيدة له:

أين شق وداحس وصبيب غمزتها حوادث الدهر غمزا =

فكم من قتيل طريح، وأسير من وخز القنا جريح، وخيل تقاد، وبيض تسل من الأغماد، وأعلام يطوى منشورها، وكلل يندك معمورها، ونساء تسبى ويكشف عنها النقاب، وذخاير تستخرج من الأحراز والحجاب:

وكم دلاص على البطحاء ساقطة وكم جمان مع الحصباء منتثر

أخذوا أخذاً وبيلا، وعاد كثيرهم قليلا، وغيرت مجامعهم، وهدمت صوامعهم:

وتظل تسبح في الدماء قبابهم فكأنهن سفائن في أبحر

دكت حيطان حدائقهم، وأزيل نضير رقائقهم، وحملت أعواد منازلهم، وصدع صميم جنادلهم، وقلعت الأشجار، ودفنت الأنهار، وأذيقوا كاساً مرة، وأصبحوا كأنهم ما كانوا مرة:

والنقع ثوب بالسيوف مطرز والأرض فرش بالدماء معرج

فلما شاهد ذلك الأمير، عزم على الرجوع وطرفه قرير، بعد أن هزمت عصبة الطاغين، وكسرت زمرة الباغين، وأعز الله أنصار الإسلام، ورفع للدين الحنيف الأعلام، وأزهق الباطل، وأردى المجادل، وأصيب الغرض من الغنيمة، وانتقم من أرباب الكفر بأعمالهم الذميمة، وعلت كلمة الحق وأظهرت، وأركست أباطيل البغي وقهرت، وابتسمت ثغور الثغور، وتضاعفت للمجاهدين الأجور، وأعلنت البشاير، واطمأنت الخواطر، ثم أنه رجع ونحن في زمرته، وسرى للاستقرار في مملكته، وعادت رايته وهي

= غلن ذا اللمة الجواد ولزت طرباً واللزاز والسلب لزا
ولقد بزت الوجية ومكتو ماً بني أعصر وأعوج بزا
وتصدت للاحق فرمته وغراب وزهدم فاستفزا

رايـة فرح، وسعـده وهو سعـد ذابح[1] لمن عن الـرشـد جنـح، مثنيـاً عـلى أجناده، مفيضاً عليهم متكـاثرات إمـداده، قائـلاً: اسألـوا تعطوا آمـالكم، تالياً: (إن ينصركم الله فلا غالب لكم).

(١) سعود النجوم عشرة، وهي سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية وسعد نـاشرة وسعد الملك وسعد البهام وسعد الهمام وسعد البارع وسعد مطر.

الفصل الثالث والعشرون
في تذكر الشباب

نادمني نديم، ما رأيت مثله من للود يديم، وسعده قد أسعد، وشبابه وشعره أخضر وأسود، وهو بكأس الصبا سكران، وروضه الغض ذو أفنان، والدهر كله ربيع، وحصن اللهو عن الكدر منيع، حتى رحل عنه الشباب، وقوضت من خيامه الأطناب، وأعرض عنه الحبيب، لما صبغ عنبر لمته بكافور المشيب:

عرض المشيب بعارضيه فأعرضوا ... وتقوضت خيم الشباب فقوضوا
ولقد سمعت وما سمعت بمثلها ... بين غراب البين فيها أبيض

طار غراب شعره، واتضح بياض فجره، فصام عن الحسان، وتبلج عذره وبان، وذوى نبته النضير، وأفصح في خطابه النذير:

تبسم الشيب بذقن الفتى ... يوجب سح الدمع من جفنه
حسب الفتى بعد الصبا ذلة ... أن يضحك الشيب على ذقنه[1]

(١) إنه لا شيء أشجى ولا أبعث على الحزن وداعي إلى القلق في نفس الإنسان من فقد الشباب، ومرح الصبا، ورقة الحداثة، فترى المرء يقطع شوط حياته في جلبة، وضوضاء، ونشاط، وطموح، يحاول الاستيلاء بها على الأمد، واكتساح مساحة الكون بآمال واسعة، ونفس ملؤها الانتظار لما ستشرق عليه شمس الغد من متع الشباب، وغضارة اللهو،=

فحزن على ما ذهب، وبكى مما دنا واقترب، فقلت له أيها الصديق: مثلك إذا نزل به القدر لا يضيق، فإنما الشيب تاج الإعلام، وقد قال فيه

= ومباهج الحياة، حتى إذا ما اندك سلطان الشباب، وتقدمت به الأيام نحو الشيخوخة، وأشرف على قمة العمر، تضاءلت قواه المعنوية وفل غرب نشاطه، وانبجس الدمع من عينيه، وأرسل الزفرات المحرقة أسفاً ولوعة على حياته الأولى: حياة الفتوة، ونضارة الأديم، وقد تفنن الشعراء في بكاء الشباب والتنكر للمشيب، فمنهم من يرى أن الشيب نذير المنية، ورائد القبر، وأن الشعرة البيضاء أول خيوط الكفن، أو سهم القضاء المرسل لاقتناص الأجل، وهو على الرغم من كرهه ونفوره من رؤية خيط كفنه، وطليعة منيته، لا يجد مردًا للقضاء النازل ولا وزراً من الجيش المنازل، ولا منصرفاً للمكروه الملم فهو يبكي لا على الشباب ولكن على الحياة، ويودع آماله لا سواد خصاله وإليك بعض ما قيل:

لم أبك إذ رحل الشباب وإنما ... أبكي لأن يتقارب الميعاد
شعر الفتى أوراقه فإذا ذوت ... جفت على آثاره الأعواد

وقال آخر:

ولائحة للشيب لاحت بعارضي ... فأدركتها بالنتف خوفاً من الحتف
فقالت على ضعفي استطلت وإنما ... رويدك حتى يلحق الجيش من خلفي

وقال السيد توفيق البكري وقد نجمت في رأسه أول شعرة من شعرات المشيب:

أشعرت بيضاء أم ... أول خيط الكفن؟
أم تلك سهم مرسل ... لا يتقى بالجنن؟
والزرع إن هاج فقد ... حان الحصاد وأني
ففي سبيل الله ما ... عاينته في زمني

وقال مسلم بن الوليد:

الشيب كره وكره أن يفارقني ... أعجب بشيء على البغضاء مودود
يمضي الشباب ويأتي بعده خلف ... والشيب يذهب مفقوداً بمفقود

ومن الشعراء من يعلل اشتعال الشيب بكثرة الهموم وصروف الأحداث ومرور الأيام، وشعر من يرى هذا التعليل ويذهب إليه أقل تأثيراً وإن كان مفعماً بالشكوى والألم كقول الشاعر:

ليل الشباب تولى ... والشيب صبح تألق
ما الشيب إلا غبار ... من ركض عمري تعلق

وللشهاب الخفاجي:

لعمري إن الدهر خط بمفرقي ... رسائل تدعو كل حين إلى البلى
أرى نسخة للعمر سودها الصبا ... وما بيضت بالشيب إلا لتنقلا =

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: من شاب شيبة في الإسلام، فعلام تحب لصحيفة عارضك التسويد[1]، وتكره عن طول غيك من المشيب التفنيد، وتنفر من الوقار، وتجنح إلى الليل وتفر من النهار؟ فقال أما علمت أن الليل نهار الأديب، والشباب مطية الغزل والتشبيب؟!.

فقد تعوضت عن كل بمشبهه فما وجدت لأيام الصبا عوضا

= ولجمال الدين بن نباتة:

من يحارب حوادث الدهر يخفي لون فوديه في غبار الحروب
من يعم في بحار همي يظهر زبد فوق فرعه الغربيب
أي فرع جون على عنت الأيـ ـام يبقى وأي غصن رطيب؟
لو همى ماء معطفي من اللـ ـين لأفنته مهجتي بلهيب

(١) من الناس من يفزعه المشيب ويؤذيه ويثير في نفسه لوعة يتحرق لها دون أن يستطيع لها شفاء فتراه دامع القلب دائم الحسرة على شبابه المفقود ويرى في الخضاب بعض العزاء، بينما غيره يعد الخضاب نوعاً من الزور وثوب الرياء يشف عما تحته فهو يمقت ذلك الثوب المستعار ويتهكم بلابسه ويسخر منه كقول ابن الرومي:

شاب رأسي ولات حين مشيب وعجيب الزمان غير عجيب
قد يشيب الفتى وليس عجيباً أن يرى النور في القضيب الرطيب
ساءها أن رأت حبيباً إليها ضاحك الرأس عن مفارق شيب
يا حليف الخضاب لا تخدع النفس فما أنت للصبا بنسيب
ليس يجدي الخضاب شيئاً من النفع سوى أنه حداد كئيب
لهف نفسي على القناع الذي محـ* وأعقبت منه شر عقيب

وله أيضاً

رأيت خضاب المرء عند مشيبه حداداً على شرخ الشبيبة يلبس
وإلا فما يغزو امرؤ بخضابه أيطمع أن يخفى شباب مدلس
وكيف بأن يخفي المشيب لخاضب وكل ثلاث صبحه يتنفس
وهبه يواري شيبه أين ماؤه وأين أديم للشبيبة أملس

وقال آخر:

يا من يسود شعره بخضابه كيما يعد به من الشبان
أقصر فلو سودت كل حمامة في الأرض ما عدت من الغربان

---

* محـ القناع: بلي والعقيب البديل.

هـو العون عـلى بلوغ المرام، وريحـانة الصب المستهـام، ونجم الأريحية الـزاهر، وسلطان اللذات القـاهر، وميـدان خيل الصبـابـة، وشبـاك طيـور الخلاعة المصابة، وروض الأعمار، الضاحكة من خلاله الأزهار:

رأيت الصبـا ممـا يكفـر للفتى ذنـوباً إذا كـان المشيب يكفـر
إذا حل مبيضُّ المشيب بعارض فـما هـو إلا للمـدامـع ممـطر

لهفي على الشباب، !! وما بلي من أردانـه القشاب، ومـر من ساعـاته، ومضى من أوقاته:

أيام لا ماء الخدود يشوبه كدر العذار ولا عذاري أشيب

أسفي لما ذوى من رياضه، ونضب من ماء حياضه، وتفـرق من جمعه، واجتث من أصله وفرعه، وأفـل من نجومـه، وأزيل من كـرومه، ونفـد من خزائنه، وابيض من فاحمه، ورحـل من منادمـه، وخمد من نـاره، وغاب من أقماره، وفض من ختامه، وقوض من خيامه؛!!

فقـدت الهوى لمـا فقـدت شبيبتي وأوجـع مفقـود هـوىً وشبـاب
وكـان يصيـد الـظبي فـاحم لمتي وأغـرب ما صـاد الظبـاء غـراب
ولو كنت من أهل المداجاة في الهوى لكان بدمعي للمشيب خضاب[1]

آهـاً لما انقضى، من عهـد التصابي ومضى، !! قبـل نفـور الغـزلان[2]،

---

(١) الأبيات لجمال الدين بن نباتة وقد تقدمت ترجمته وكان كثير الشكوى من الشيب شديد التألم من الهرم، فهو في أكثر شعره يندب شبابه ويبكي ماضي قوته بأسلوب جميل مؤثر.

(٢) من أسباب كره المشيب وبواعث إلنفرة منه نفور الحسان عنه وتعـري أفراس الصبـا ورواحله من لذة الحب وحلاوة الغزل قال الأخطل:

يا قاتل الله وصل الغانيات إذا أيقنَّ أنك ممن قد زها الكبر
أعرضن لما حنى قوسي موترها وابيض بعد سواد اللمة الشعر =

وتغير الندمان، وفوات الوصال، وإقفار الأطلال:

خليلي شابت في النواظر لمتي ... وشب الأسى نار التذكر في صدري
فلا تنكرا تعبيس وجهي فإنما ... تنقل ذاك الابتسام إلى شعري
وزالت بصبح الشيب عني خلتي ... فكان زوال الشمس في الصبح لا الظهر

رعى الله ما سلف، من أيام الصبابة والكلف، وسقى الغمام، ما انقرض في الشباب من الأيام:

سقى الله أيام الشباب التي مضت ... من السحب أحلاماً يصوب من القطر

= ما يرعوين إلى داع لحاجته ... وما بهن إلى ذي شيبة وطر

وقال الغزى

لا تطمعن بوصل خود أبصرت ... سيف المشيب على الشباب مجردا
عذر الكواعب إنهن كواكبا ... لا يجتمعن مع الصباح إذا بدا

ولأبي منصور النميري

بان الشباب ونابتني بفرقته ... خطوب دهر وأيام لها خدع
ما كنت أو في شبابي كنه قيمته ... حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع
تعجبت إن رأت أسراب دمعته ... في حلبة الخد أجراها حشا وجع
أصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم ... تشجي بغصته والعذر لا يقع
لا ألحين فتاتي غير كاذبة ... عين الكذوب فما في ودكم طمع
ما بالشبيبة من وانٍ وإن رفعت ... إلا لها نبوة عنه ومرتدع
إني لمعترف ما فيَّ من أرب ... عند الحسان فما في النفس منخدع
قد كدت أقضي على فوت الشباب أسى ... لولا أعزيك إن الأمر منقطع

ويذكرون أن الرشيد لما سمع هذه الأبيات بكى وأنشد:

أتأمل رجعة الدنيا سفاها ... وقد صار المشيب إلى ذهاب
فليت الباكيات بكل أرض ... جمعن لنا فنحن على الشباب

ولبعضهم وقد علاه الشيب ودنا منه الهرم ولكن قلبه الحي وشعوره الرقيق لم يخضعه ذلك السلطان القاهر وأبت له نفسه الحية إلا اللهو والمرح فقال:

يقولون أفق من لذة اللهو والصبا ... فقد لاح صبح في دجاك عجيب
فقلت أخلائي دعوني ولذتي ... فإن الكرى عند الصباح يطيب

رحلت بالمسرة، وقد كانت للعين قرة؛ وانقضت كلمح بالبصر، وألجمت المحب عن نيل الوطر، وأورثت أسفا، وعطلت غرفا، فمتى دعوت إلى التصابي، قيل لا رداً لجوابي:

وإذا قلت أين داري قالوا هي هذي أقول أين زماني؟

فقلت له هل لك في المحاورة، وإطلاق عنان المذاكرة، والتشبيب بالشباب، وتوبيخ الدهر بالعتاب، والتعلل بالتذكار، والنظم في ذكر ما سلف من الأعمار، وهل سمعت قول الشاعر؟ وهل ظفرت بقول ظافر؟:

ونفّر صبح الشيب ليل شبيبتي كذا عادتي في الصبح مع من أحبه

فكم هجم على غيرك صبحه، وأشرق به على من قبلك من الشعر جنحه، وأحالت حاله الأيام، وسلبته من الصبا جميل الأنعام، وأعادت سبح ذوابيه لجينا، وكدرت مشربه وقد كان معينا، وأدنته من معرك الحمام، وأخبرته بالرحيل عن المقام، فقال مالك أطلت المقال، وأطلقت جواد فكرك في هذا المجال، وأكثرت في الاستطراد، وأسّيت المغرم فما أفاد:

يا صاح قد صاح النذير بغارة من صبح شيب في ملون منون

لما تبين منه خيط أبيض للعين صمت عن الظباء العين
وقصرت نفسي عن أباطيل الهوى وأزال ليل الشك صبح يقين

فإن كان طمعك في سلواني، فقد حال بيني وبينه ما أعاني، وإن أردت المطارحة بالأشعار، فقد عرض بعارضي ما يوجب جمود الأفكار:

أترقب من شعري نجوماً ودونها سحاب من الهم المبرح مظلم

خمدت نار فكرتي، وصوح[1] روض شبيبتي، وتغير عهدي، وآن فراقي لأهل ودي، فعلى الشبيبة السلام، والله المسؤول حسن الختام.

(١) صوح النبت إذا يبس من أعاليه، وفي هذا المعنى للسيد الأديب الحسن بن عبدالله الكبسي من قصيدة:

أراك الحمى مالي أراك مصوحا ... وبالأمس من دمعي سقاك الذي سقا
نعم قوضوا عنك الخيام وأدلجوا ... فقل لي أنا أم أنت في وجدنا أشقى؟
ولا بد لي من وقفة في عراصهم ... لعل الرسوم الخرس تعرف لي حقا
وقوف (جميل) في عراص (بثينة) ... وأن قبيحاً رفض ما للهوى أبقى
ويا ليت شعري أي أرض تخيروا ... أغرباً نأوا عني أم ارتحلوا شرقا
وإني سألت الريح والبرق عنهمو ... ولولا الهوى لم أسأل الريح والبرقا

الفصل الرابع والعشرون

في المدح

قدمت إلى بعض البلدان، النازحة عن الأوطان، فمضيت متأملاً في أزقتها، متطلعاً إلى غزلان أعقتها، فلمحني شخص من أهلها وأرباب شرفها وفضلها:

تهز أعطافه أصوات قصَّده نداً فيطرب لا غيد وقينات

فأرسل إلي خادماً، قال لي: إن مولاي يجب أن تكون له منادماً، فأجبت داعيه، ولبيت مناديه، ومضيت إلى داره، وعشوت إلى ضوء ناره، فاهتز عطفه طرباً بوفودي، وزارته المسرة والفرح بوجودي، وترقرق على وجهه ماء البشاش، وأقعدني على أرفع الفراش:

ورادف حسن خَلق حسن خُلق فلم يقنع بإحدى الحسنيين

ومد موائد الإحسان، وأغدق شآبيب إكرامه الهتان، وجمع أنواع الضيافة، ودلني فعله منه على الشرافة، وأكثر حولي آنية الجود، وأحضر ما هو في ملكه موجود، وبالغ في تأنيسي، وجلا عني تعبيسي؛ وحلَّى جيدي بأطواق النِّعم، وعقر على عقر داره النَّعم، ونادمني بالعلوم، وأذهب عني الهموم:

وجانس ما بين القراءة والقرى فللجود منه والإجادة مطلع

وجاراني في حلبة[1] الآداب، وطاردني في ميدان ذكر الأحباب، وأشعل من ذكائه وقدا، وأفعم كاس إكرامي بالندى:

فلولا نداه خفت نار ذكائه عليه ولكن الندى مانع الوقد

فلله دره من كريم، أرق طبعاً من النسيم، فبنانه سحابة الندى، وبيانه بعيد المدى، كأنه البحر الزاخر في منته، والبدر الزاهر عند طلعته:

وكأنما أقلامه بسوادها غربان بين في الخزاين تنعق

له سجية بالمعروف معروفة، وبالمنن الوافرة موصوفة، وأكف بالنظار واكفة، وقريحة بنقد الكلمات عارفة، الكرم من بعض صفاته، والسماح من أقل ما تصيبه آمال عفاته:

لا عيب فيه سوى تسلط جوده فالمال من نفحاته يتظلم
كرم تصلي السحب خلف صلاته لكنها للعجز عنه تسلم

أكرم به من جواد، تورق من ملامسة راحته الأعواد، ظاهر الفضل الذي له يعترف، واضح الإحسان الذي منه يغترف، مالك زمام المعالي، تجمل بوجوده الليالي، ويضحك له الأفق بثنايا الدراري، وتقتبس من كرمه

---

(١) الحلبة بالفتح: الدفعة من الخيل في الرهان وخيل تجتمع للسباق من كل أوب للنصرة، جمعه حلائب، وقد حصر بعض الأدباء خيل السباق فقال:

أول سابق هو المجلي ثم المصلي بعده المسلى
تال ومرتاح عليه يقبل والعاطف الحظي والمؤمل
كذلك اللطيم والسكيت فاحفظ فما أعطيت قد أعطيت

السواري، فهو الجواد الذي لا يلحق، ولا يجارى في طريق العطا فضلاً أن يسبق:

والمانح المال مكيولاً لكثرته والمستميل من الأشعار أوزانا

فاق من تقدم، وعلا على من للمجد تسنم، وضربت به الأمثال، وقضيت لديه الآمال، الراحة في أنامله، والروض نموذج شمائله:

أقواله للمجتني ونكاله للمجتري ونواله للمجتدي

هو يسار المرتجي، وكهف اللائذ والملتجي، فناؤه حرم، وإسداؤه النعم، ونادیه معقل الوفاد، وقبلة الأكارم ومنزل الأجواد، يقود الجياد في الجلاد، ويطأ بحوافيرها وجوه أهل العناد:

إذا حفيت فوق الجسوم تعوضت بكل جبين كالهلال عن النعل

ولقد رأيت منه مدة الجلوس، ما تتوق إلى نيله النفوس، من كرم وإكرام، وحل وإبرام، وشجاعة وبسالة، ومنع وإقالة، وعلم وأدب، وفضل وحسب، وأخلاق رائقة، وسمات فائقة، ومناقب علية، ومنح مصابيحها جلية، ومحيا طليق، ونجْر عرقه عريق، وثْبات له إلى الأعداء وثَبات، وسخاء لا يدرك شأوه وهِبات:

ومكارم غر ينطِّق فضلُها من ليس يشعر بالكلام ويشعر
وخلايق كالراح إلا أنها أصفى من الماء القراح وأطهر
وأنامل مثل العرايس تجتلي فلذاك في أوراقه تتخطر
وشجاعة في الروع تنحو نحوه فلذاك تجزم بالرماح وتكسر

وما زلنا عاكفين على إكرامه، نتناول ثمرات الرغايب من إنعامه، إلى

أن هزتني الأشواق اللافحة، للعود إلى أوطاني النازحة:

بلاد بها الحصباء در وتربها عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصح نسيم الروض وهو عليل

فقمت آيبا، ومن الاغتراب تائبا، ومضيت شاكراً لأفضاله، مثنياً على ما شاهدت من أفعاله، ناشراً لواء مدحه، معلناً بالوصف لمنحه.

الفصل الخامس والعشرون

في الأدب[1]

الفصاحة زينة المجالس، والبلاغة معدن النفايس، وحلية اللطفا،

---

(١) قال في القاموس: الأدب محركة، الظرف وحسن التناول: أدب كحسن أدباً فهو أديب، والجمع أدباء، وفي اللسان: الأدب الذي يتأدب به والأديب من الناس، سمي أدباً لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن القبائح وأصل الأدب الدعاء والأدب الظرف وحسن التناول، وفي المصباح أدبته أدباً من باب ضرب علمته رياضة النفس ومحاسن الأخلاق، قال أبو زيد: الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل فالأدب اسم لذلك والجمع آداب، وذكر القرطبي في تفسيره إن الخلق في اللغة هو ما يأخذ الإنسان به نفسه من الأدب لأنه يصير كالخلقة فيه فأما ما طبع عليه من الأدب فهو الخيم: وهو بالكسر السجية والطبيعة لا واحد له من لفظه فيكون الخلق الطبع المتكلف والخيم الطبع الغريزي.

وفي مقدمة النهاية قال صلى الله عليه وآله وسلم: (أدبني ربي فأحسن تأديبي) وروى الترمذي في سننه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ما نحل والد ولده من نحل أفضل من أدب حسن) وهو هنا بمعنى التهذيب والتربية الخلقية وهو أقرب المعاني إلى المعنى المعنى الاصطلاحي.

وفي رواية لأصحاب الصحيح عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعمدوا مأدبته ما استطعتم وإن أصفر البيوت لبيت أصفر من كتاب الله).

والمأدبة بفتح الدال مفعلة من الأدب معناه: إن الله تعالى أنزل القرآن أدباً للخلق وتقويماً لهم، وللهذلي يصف عقابا:

كـأن قلوب الـطير في جــوف وكـرهــا نـوى القسب ملقى عند بعض المـأدب

والأدب عادة ينقسم إلى قسمين: شعر ونثر فني، ويعنون بالأدب كل ما عبر عن معنى من معاني الحياة بأسلوب جميل فلا بد لعد الشيء أدباً من ركنين: معان تثير العاطفة وألفاظ جميلة أديت بها المعاني ولا بـد للأديب من أن يكـون ملماً بفنون كثيـرة واسع الاطـلاع غزيـر المادة ليتمكن من إثارة العواطف وإبراز الحقائق والتعبير عما يعتلج بالنفس بأسلوب بليغ يقال: أن أبا بكر الخوارزمي قصد حضرة الصاحب وهو بأرجان فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجـابه: قل للصاحب: على الباب أحد الأدباء وهـو يستأذن في الدخول، فقـال الصاحب: قل له قد ألـزمت نفسي ألا يدخـل علي من الأدبـاء إلا من يحفظ عشـرين ألف بيت من شعـر العـرب فخرج إليه الحـاجب وأعلمه بـذلك فقال: أبو بكر ارجع إليـه وقل لـه هذا القـدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فدخل الحاجب وأعاد عليه ماقال، فقال الصاحب: هذا يكون أبا بكر الخوارزمي فأذن له في الدخول.

وذكر ياقوت في معجم الأدباء أن أبا علي القالي أملى في قرطبة أكثر كتبه عن ظهر قلبه: وجاء في كتاب نزهـة الألباء (قال سلمة: أملى الفراء كتبـه كلها حفـظاً لم يأخـذ بيده نسخـة إلا في كتابين ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة وكان مقدار الكتابـين خمسين ورقـة وكان يقـال: الفراء أمير المؤمنين في النحو) قال أبو اسماعيل بن القـاسم: (كان أبـو بكر الأنبـاري يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شاهد في القرآن: قال أبـو الحسن العروضي قلت لأبي بكـر الأنباري: قـد أكثر الناس في حفظك فكم تحفظ قال: أحفظ ثلاثة عشر صندوقاً) قيل: وكان يملي كتبه المصنفة ومجالسه المشتملة على الحديث والأخبار والتفاسـير والأشعار كـل ذلك من حفـظه وأملى كتاب غريب الحديث قيل: إنه خمسة وأربعون ألف ورقـة وكتاب الهـاءآت نحو ألف ورقـة وكتاب شرح الكافي قيل: نحو ألف ورقة وكتاب الأضداد وما ألف في الأضداد أكبر منه وشرح الجاهليات سبعمائة ورقة وكتاب المذكر والمؤنث ما عمل أحد أتم منه وعمل رسالة المشكل:

والفصاحة: ملكة في النفس يمكن التعبير بها عن المعنى المراد، والبلاغة: ما بلغ بك المراد ولم يطل سفر الكـلام. قال في مـوازين البلاغـة. وإنما اختلف في كيفيـة البلاغـة وماهيتهـا وقد مدحها كل قوم بأوضح عبارتهم وأحسن بيانهم فقـال صاحب اليـونانيـين: البلاغـة تصحيح الأقسـام واختيار الكـلام، الرومي: البـلاغة وضـوح الـدلالـة، وانتهـاز الفـرصـة، وحسن الإشارة، الفارسي: هي معرفة الفصل والوصل، الهندي: هي البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الـ رصة. ثم أن يدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعـر طريقـاً وربما كـان الاطراق عنها أبلغ في الدرك وأحق بالظفر، خـالد بن صفـوان: ليس البلاغـة بخفة اللسـان ولا بكثرة الهذيان ولكنها إصابة المعنى، والقرع بالحجة، بشر بن خالد: البلاغـة التقرب من المعنى البعيد والتباعد عن خسيس الكلام والدلالة بالقليل على الكثير. عمر بن عبد العزيز: البليغ من إذا وجد كثيراً أملاه وإذا وجد قليلاً كفـاه، ابن عتبة: البـلاغة دنـو المأخـذ وقرع الحجة والاستغناء بالقليل عن الكثير.

وسجية الظرفا، وسلاح الصدور، وطراز السطور، وأساس الرياسة وعمادها، ومنزل البراعة ومهادها، وحديقة النبلا، وكمال الكملا، وقطب رحاء الدول، وربيع الأسماع والمقل، وسيما الخطبا، وعلامة الأدبا، وقلايد اليراع، وعجيبة الاختراع، وعذبة الأنهار، ومتعطرة الأزهار، ومترنمة الأطيار، ونافثة السم والدرياق، وجاعلة لآلي الكلم منتظمة كالأطواق، وشأن الرفيع، ورفعة الوضيع:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا ... يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول كان أبي

الأدب مصباح العلوم، وشفاء الكلوم، والسحر الحلال، والعذب الزلال، والزهر اليانع، والكلام النافع، والشراب المسكر، والدوح المثمر، حر ألفاظه يدبج الرق ببديعه، ويوشيه بعسجد خفيفه وسريعه، وينتج الحكم، ويشرف القلم:

فما كل قيل قيل علم وحكمة ... وما كل أفراد الحديد حسام

يهز أعطاف العشاق، ويروح على المفتون بالأحداق، ويلطف الشمايل، ويهذب مقال القائل، ويزف عرايس البراعة واللسَن، ويحكي بطروسه وجوه الغيد في المنظر الحسن:

فالطرس كالوجه والنونان دائرة ... مثل الحواجب والسينات كالطرر

يعطر أذيال الطباع، ويجذب بتلابيب أهله إلى العشق حتى على السماع، ويدير الخندريس في أكوابه، ويسلب العقل بإعجابه، ويظهر نجوم البدايع تحت ليل مداده، وينقط وجوه الأوراق الصبيحة بخيلان سواده، هذب أهل العلوم، وأذاقهم من معانيه ابنة الكروم:

وأسمعهم لفـظاً ألـذ من المـنى وأحـلى من المن المنـزل والسلوى

يخلد الـذكر عـلى ممر الآبـاد، ويشعل في الفكـر نـاراً من الـذكـاء ذات اتقاد، تود صفايح اللجين أن تكون له صحايفا، وقطع الورق أن تكون لـه ورقاً وارفا، ملاءته قشيبـة[1]، ومراعيـه خصيبة، وسبله لحبـة[2]، وغصونـه رطبة، يتسلى به العاشق، إذا نادمه في الليل الغاسق، وألطف الأشعار، مـا غلت منه الأسعار، فإذا حرس عن الابتذال، وهو كثرة المدح لقصد النوال، فذاك سمط غالي، ومقام عالي، وأجوده ما هذبت منه كل كلمة[3]، وأنفعـه ما اشتمل على حكمة:

فـإنما الشعـر عقل المـرء يعرضـه على المجالس إن كَيساً وإن حمقا

---

(١) الملاءة: الإزار أو الرطية ذات لفقين الجمع ملاء والقشيب الجديد من الثياب وغيرها الجمع قشب.

(٢) اللاحب الواسع.

(٣) وصف الحسن بن وهب أحمد بن يوسف فقال: ما كنت أدري ألفـظه آنق أم معناه؟ أو معنـاه أجزل أم لفظه؟ وقال العتابي: ليس شيء أصعب من اختيار الألفاظ وقصدك بها إلى مـوضعها لأن اللفـظة تكون أخت اللفـظة وقسيمتها في الفصـاحة والحسن ولا يحسن في مكـان غيرهـا وبتمييز هذه المعاني ومناسبة طبائع جهابـذتها ومشـاكلة أرواحهم جعلوا الكتابـة نسباً وقـرابة وأوجبوا على أهلها حفظها: يقول جهابذة الأدب ورؤساء البلاغة: إن خير القول ما صدر عن جهد وعن روية وطول تفكير وأن الأديب هو الذي يصنع أدبه صنعة ويعمله عملاً ويتهيأ له فيـطيل التهيؤ ويفكـر فيه فيمعن في التفكـير ويتكلف لذلـك من الجهـد والمشقـة مـا يضنيـه ويعنيه. ومن أحسن ما قيل في تجويد الإنتاج الأدبي قول الحطيئة:

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به إلى الحضيض قدمه والشعر لا يستطيعه من يظلمه
يريد أن يعربه فيعجمه من يسم الأعداء يبق ميسمه

وقال آخر:

فمن للقوافي شأنها من يحوكها إذا ما ثوى كعب وفوز جرول
كفيتك لا تلقى من الناس واحداً تنخل منها مثل ما تتنخل
نثقفها حتى تلين متونها فيقصر عنها كل من يتمثل

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا[1]

---

(١) البيتين لحسان بن ثابت الأنصاري شاعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويعجبني في هذا الباب قول الأحوص:

وما الشعر إلا حكمة من مؤلف لمنطق حق أو لمنطق باطل

وقول النابغة الشيباني

من الشعراء أكفاء فحول وفراثون إن نطقوا أساؤا
فهل شعران شعر غناً وحكم وشعر لا نصيح به سواء

ولا شك أن الشعر يتفاضل بنبل أغراضه وشرف مقاصده قال أمير الشعراء

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة أو حكمة فهو تقطيع وأوزان

قال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم: إنك قد لهجت بالشعر فإياك والتشبيب بالنساء فتعر شريفة والهجاء تتهجن كريماً أو تثير لئيماً وإياك والمدح فإنه كسب الأنذال ولكن أفخر بمآثر قومك وقل من الأمثال ما تزين به نفسك وتؤدب به غيرك وإن لم تجد من المدح بداً فكن كالملك المرادي حين مدح فجمع في المدح بين نفسه وبين الممدوح فقال:

أحللت رحلي في بني ثعل إن الكريم للكريم محل

وقد ضمن هذه المعاني أبو نواس فقال:

الشعر ديوان العرب أبداً وعنوان الأدب
لم أعد فيه مفاخري ومديح آبائي النجب
ومقطعات ربما حليت منهن الكتب
لا في المديح ولا الهجا ولا المجون ولا اللعب

وللشاعر المجيد محمود سامي البارودي:

الشعر زين المرء ما لم يكن وسيلة للمدح والذام
قد طالما عز به معشر وربما أزرى بأقوام
فاجعله فيما شئت من حكمة أو عظة لذي حسب نام
واهتف به من قبل تسريحه فالسهم منسوب إلى الرامي

الفصل السادس والعشرون

في العزلة والخمول

سألت عن العزلة والخمول، وما فيهما من الفضايل عند أرباب العقول، فاستمع المقال، وانصت لجواب السؤال . الخمول: أعزك الله روضة أنيقة، أشجارها بكل عجيبة وريقة، نرجسها ذابل، وغصنها من الدلال مائل، ووردها وشقيقها قاني، وثمرها على الرؤوس داني، وأقحوانها باسم، ونباتها ناعم، ونهرها متدفق، ودمع طلها مترقرق، كنز لا تفنى ذخايره، وملك لا يقل وافره، وسيف ما غلب من هو في يده مجرد، ولا قهر مجتهد في طلب الشرف به قد تقلد، وسهم لم يخط راميه، ومجد ما ابتذل حاميه؛ وسؤدد لا يلازمه إلا ذوو الشهامة، وعز لا تلحق من صحبه ملامة، وحصن من الرذائل منيع، وعقد ما خسر من تقلد جوهره البديع، من فلكه تطلع شموس الانشراح، وبه تستروح الأرواح:

من أخمل النفس أحياها وروحها ... ولم يبت طاوياً منها على ضجر
إن الرياح إذا اشتدت عواصفها ... فليس ترمي سوى العالي من الشجر

هو زينة الأفاضل، وشيمة من له همة تقاصر عنها كل متطاول، وسجية من له نفس أبية، ورتبة على السماكين علية، لا يتسم به غير أهل

الرجحان[1]، ولا يتصف بأوصافه الحسنة إلا الأعيان، ولا يهواه إلا من مال إلى المعالي، ولا يوده إلا من أراد أن يحوز فخر الأيام والليالي، فبه تتم

---

(١) المعنى أن لذة العيش وسعادة الحياة إن كانت في الحياة سعادة فهي في الوحدة والخمول وعدم الظهور، على أن هذه الصفات الفاضلة والأخلاق الجليلة إنما يتسم بها أهل الكمال وأفاضل الرجال كما قال بعض العقلاء: (إن السرور في أن تكون منكوراً غير مذكور لسرور عظيم لا تستمرئه إلا النفوس الكبار):

وقال بعض الأدباء: (إنما يستوحش الانسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة فيتكثر حينئذ بملاقاة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بهم فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة وكان الفضيل بن عياض يقول: من سخافة عقل المرء كثرة معارفه:

ولأبي العلاء المعري:

وخمول ذكرك في الحياة سلامة ودهاك من أمسى لذكرك ناشرا

وقال بعضهم: (إن الأديب اللاهج بمخالطة الناس مضيع كينونته، وإن من ابتغى أن يعرفه هذا وذاك ويبجله فلان وفلان أو يدنيه ملك أو كبير من ناديه إنه لأحمق رقيع) قال ابن أبي الحديد: (فإن قيل فما قولك في شهرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام وأكابر الفقهاء المجتهدين: قيل إن المذموم طلب الشهرة فأما وجودها من الله تعالى من غير تكلف من العبد ولا طلب فليس بمذموم، بل لا بد من وجود إنسان يشتهر أمره فإن بطريقته إصلاح العالم، ومثال ذلك إن الغرقى الذين بينهم غريق سابح ضعيف الأولى به ألا يعرفه أحد منهم لئلا يتعلق به فيهلك ويهلكوا معه فإن كان بينهم سابح قوي مشهور بالقوة فالأولى ألا يكون مجهولاً بل ينبغي أن يعرف ليتعلقوا به فينجو هو ويتخلصوا من الغرق بطريقته).

وقال جار الله الزمخشري رحمه الله: طب من زيارة الناس نفساً، ولا ترض سوى الوحدة أنسا، ولا تنشط إلا إلى زائر إن ضللت عن المحجة أرشد، وإن أضللت الحجة أنشد.

وللإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي رحمه الله:

قد أولع الناس بالتلاقي والمرء صب إلى هواه
وإنما منهمو صديقي من لا يراني ولا أراه

وقال بعض الحكماء: إن كان الفضل في الجماعة فإن السلامة في الوحدة والعزلة: وقال الشاعر:

كن لقعر البيت حلسا وارض بالوحدة أنسا
لست بالواجد خِلاً أو ترد اليوم أمسا

وقال: الحمية من الأنام كالحمية من الطعام، كما قيل: =

المقاصد، وتطيب الموارد، يدعو إلى قضاء الأوطار، ويحث على مجالسة الأسفار:

ما تطعمت لذة العيش حتى ... صرت في البيت للكتاب جليسا
إنما الذل في مخالطة النا ... س فدعهم تعش عزيزاً رئيسا

بأنامله تقتطف ثمرات الأماني، وبسلمه يرتقي إلى محل ليس له مداني، وبجواده يركب إلى مساكن العلى، وبسفائنه يشق البحر العسير على الملا، وبمطاياه تقطع مهامه العلوم، وبأيديه تلتقط فرائد المنثور والمنظوم، وبشباكه تقتنص طيور الآداب، وبخمره الشهي تتزين الأكواب، مورده صافي، وظله البارد ضافي، وأرجاؤه خصيبة، وأوراقه السندسية رطيبة:

= بعدي عن الناس برء من سقامهمو ... وقربهم للحجى والدين أدواء
كالبيت أفرد لا إيطاء يدركه ... ولا سناد ولا في اللفظ إقواء

وقال آخر:

إذا انفرد الفتى أمنت عليه ... دنايا ليس يؤمنها الخلاط
فلا كذب يقال ولا نميم ... ولا غلط يخاف ولا غلاط
وكم نهض امرؤ من بين قوم ... وفي هاديه من خزي علاط

العلاط حبل يجعل في العنق.

ومن أمثال العرب: (الناس شجرة بغي): وقال بعضهم الناس أجناس وأكثرهم أنجاس: وما ذاك إلا لكثرة أذاهم وطغي شرارهم وعدوان عامتهم وتعاظم شرورهم:

شر السباع العوادي دونه وزر ... والنسا شرهم ما دونه وزر
كم معشر سلموا لم يؤذهم سبع ... وما نرى بشراً لم يؤذه بشر

ويرحم الله القائل في أمثال هذه الرجرجة:

يا عين أصل قذاك رؤية معشر ... عار على دنياهمو والدين
لم يشبهو الإنسان إلا أنهم ... متكونون من الحمى المسنون
نجس العيون فإن رأتهم مقلتي ... طهرتها فنزحت ماء جفوني

وقال آخر:

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى ... وصوت إنسان .. فكدت أطير

إن مدحت الخمول نبهت أقوا ماً نياماً فسابقوني إليه
هو قد دلني على لذة العيش فما لي أدل غيري عليه

به تبلغ النفوس الأرب، وتلبس الأجسام برد الاستراحة من النصب، نعمته ظاهرة، ونجومه زاهرة، وأقماره طالعة، وأنواره ساطعة، ومصابيحه واضحة، ونوافجه نافحة، وفواكهه حلوة المذاق، وجواهره تفوق جواهر الأطواق، ولآلئه مجلوة، وأصدافه بكل يتيمة مملوة، وطيوره مغردة، لم تزل لسجعها مرددة، به يسلم العرض من تمزيقه وابتذاله، وينزجر القلب عن غيه وضلاله، وينجو الإنسان من الآثام، وتشتغل الجوارح بما يعود نفعه على الدوام، وتقتطف العيون من أغصان السطور زهور الفوائد، وتمتلىء الأذهان من بطون الأوراق عجائب تكسد لديها نفائس القلائد، وتستقيل الأنفس في ظله من هاجرة الأشغال، وتنال به غاية المنى ونهاية الآمال، ملازمته أولى من جليس غير موافق، ومنادمته خير من صديق غير صادق:

فشيئان معدومان في الأرض درهم حلال وخل في الحقيقة ناصح

يدلك على فعل الخير، ويحثك في طريق الرشاد على السير، ويجلب الفكرة إلى أين المصير؟، وينعش الهمة على استعداد زاد المسير، ويذكر بهادم اللذات، ويزجر عن اتباع الشهوات، ينتج السلامة من الأوزار، ويولد عدم ضغائن الأشرار، ويرقق الطباع، ويكشف عن وجوه الرقائق القناع، ويجلو من الوجه الكدر، ويزيل من القلب الضجر، هو رئيس المذاهب، وأسنى المواهب، وغاية الأوطار، وزينة السكينة والوقار، وحياة الأجسام، وعلامة الأعلام، وصنعة الحكماء، وسيماء العلماء، وسفينة النجاه، والموصل للطالب إلى مناه، ومصباح الدجى، وخليل أهل الحجى، وقمر الظلام، وشمس الأيام، وذخرة أهل الكمال، وغنيمة الشهم من الرجال، ومنزل الفخر الرحيب، ومزيل الهم من القلب الكئيب، إن ظهرت من صاحبه زلة

أخفاها، أو اشتعلت نار قبائحه أطفاها، أو بدت معائبه سترها عن الناس، أو أنتج هفوة دفنها تحت الأرماس، لا يبدي القبيح للعيون، ولا يكشف عن السر المصون، فمن لم يلتزمه فقد أسى، وما حفظ شرائط العيش اللذيذ بل نسى، وفرط في أوقاته، ولم يدبر التصريف لأيامه وساعاته، وأحرم نفسه ما طاب، ومنعها ما هو ألذ من لقاء الأحباب، وضل من حيث لا يدري، ومشى في الظلمة والبدر يسري، وأتعب أشباحه، وأعاض قلبه عن السكون عدم الاستراحة، وأسهر عيونه، وأذوى غصونه، وأنفق فيما لا يفيد نقد عمره، وأخلق فيما لا يجدي جديد أُزره، وأهلك جواد شبابه الرائق، ونثر عقده المتناسق، فإن المجالسة تردي، ولسيء الطباع تبدي، وتورث الأسف، وتخفض صاحبها من درجة الشرف، وتذهب الوقار، وتطلع الغير على الأسرار، وتسوق إلى الذنوب، وتصرف اللسان عن ذكر علام الغيوب، وتذيق مرير الشغلة، وتسهر في الليل المقلة، فقليل من الناس من يصفو وداده، وتسيل بماء الإخلاص وهاده، ويقطر وجهه بماء البشاش والانشراح، ويقود إلى ما فيه النجاح والصلاح:

جربت دهري وأهليه فما تركت لي التجارب في ودّ امرىءٍ غرضا[1]

---

(١) يقول: إن من يعاشر الناس يصطدم كثيراً بما لا يحمد من أخلاقهم فهنالك يجد الكبرياء، والزهو، والأثرة، والطمع، والتلون، ونكران الصنيعة، وانتهاز الفرص، ونكث العهد، وإهدار الإخلاص، والصداقة، وكل فضيلة إنسانية، ولا بد لمن يخوض هذه الميادين من نضال عنيف ومغالبة شديدة تحرمه الاستقرار والدعة ولا نجاة من هذه الشرور إلا في العزلة وأعظم من كل ذلك ما تثيره عوامل الحسد والمنافسة من سحب قاتمة وما تدعو إليه من الوقيعة والانتقاص وكثيراً ما تكون الحياة مرة المذاق كريهة المنظر مخشية خطرة من جراء مخالطة الناس والاغترار بصدق الود وخالص الصفا:

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب =

ينطوي باطنه على مثل ظاهره، ويصون صديقه صيانة الجفن لناظره، ويرعى ما سلف من المحبة، ولا تتغير أخلاقه في الغيبة، ويكف الكلْم بكلم اللسان، فإنه أشد من كلم السنان، ويعتذر عن هفوته، ويستغفر لزلته، يدرأ عنه ما يكدر مزاجه، ويجلب إليه ما يصلح علاجه، ويروح عليه بالمناسب، ويقطع في طاعته السباسب:

ومن يعرف الأيام مثلي فإنه يعيش بلا حب ويحيى بلا خِلِّ

= ولله القائل:

ألا ربما تدعو صديقاً ولو ترى مقالته بالغيب ساءك ما يفري
لسان له كالشهد ما دمت حاضراً وبالغيب مطرور على ثغرة النحر

وقال بشار بن برد:

خير إخوانك المشارك في الضر وأين الشريك في الضر أينا
الذي إن شهدت سرك في الحي وإن غبت كان أذناً وعينا
مثل سر الياقوت إن مسه النار جلاه البلاء فازداد زينا
أنت في معشر إذا غبت عنهم بدلوا كل ما يزينك شينا
وإذا ما رأوك قالوا جميعاً أنت من أكرم البرايا علينا
لا أرى للأنام وداً صحيحاً عاد كل الوداد زوراً ومينا

ولآخر:

وإخوان هذا الدهر إخوان ساعة وإخوان حياك الإله ومرحبا

وللسيد العلامة زيد بن محمد بن الإمام:

يا أخي في السلام عند التلاقي وصديقي في كيف أنت وحالك
وعدي المبين إن ناب خطب سبقت نبلة الزمان نبالك

ومما يلحق بهذا قول الشهاب الخفاجي:

قد كنت أرجوك للجلى إذا طرقت فصرت عوناً لحسادي وأعدائي
من غص داوى بشرب الماء غصته فكيف يصنع من قد غص بالماء

ولبعضهم:

ولما بلوت الناس أطلب ماجداً أحادثه عند ارتكاب الشدائد
فلم أر فيما ساءني غير شامت ولم أر فيما سرني غير حاسد

فعليك بالوحدة فهي العبادة، فما التزمها امرؤ إلا نال مراده، وعوِّد نفسك خمولا، وكن على التباعد مجبولا:

عليك بهجر الناس ما اسطعت إنه نجاة تراها من جميع المهالك

ولا تقصِّر في الاقتصار، لتصير حديثاً طيباً للسمار، واشتغل بالأنفع، واتق خُرقاً لا يرقع، وقلل خطاك إلى كثرة الاجتماع، فإنها تورث قسوة الطباع، وجانب محافل أهل اللهو واللعب، فمن انتظم في سلكهم لم يصب، ولا تكن بعين الانصاف لغير العلوم ناظرا، ولا تجالس مدى دهرك إلا دفاترا[1]:

---

(١) قد أجاد المؤلف رحمه الله كل الإجادة في وصف علل الاجتماع وبيان مفاسد الاختلاط بالناس وقال إن خير ما يشتغل به العاقل في وحدته أو خير ما يجنيه من ثمار الوحدة والبعد عن الناس السلامة من المأثم والاشتغال بالعلوم ومنادمة الدفاتر (وخير جليس في الزمان كتاب) قيل: كان عبدالله بن عبد العزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس ونزل مقبرة من المقابر وكان لا يكاد يرى إلا وفي يده كتاب يقرؤه فسئل عن ذلك وعن نزوله المقبرة فقال: لم أر أوعظ من قبر، ولا أمتع من كتاب ولا أسلم من الوحدة. فقيل له: فقد جاء في الوحدة ما قد جاء، قال: ما أفسدها للجاهل وأصلحها للعاقل، ووصف الجاحظ الكتاب فقال: هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا لا يملُّك، والمستميح الذي لا يستزيدك، والجار الذي لا يستبطئك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكروه، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب.

وما أبدع قول ياقوت الحموي:

إذا ما الدهر بيتني بجيش طليعته اهتمام واغتراب
شننت عليه من جهتي كمينا أميراه الذبالة والكتاب
وبت أنص من شيم الليالي عجايب من حقايقها ارتياب
وبت أجلو همومي مستريحاً كما أجلت همومهم الشراب

ولجار الله رحمه الله:

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طرباً لحل عويصة أحلى وأشهى من مدامة ساقي =

إذا لم أجد يوماً جليساً مهذباً يشاكلني في النجر جالست دفترا

لا تخالط الأشرار، ولا تبد لهم الأسرار، واتخذ لك منزلاً عن الناس بعيدا، فلست ترى فيهم إلا عدوّاً وحسودا، إن كملت لك مناقب الخصال، عاداك لا لذنب وود لك الزوال:

لله علمي بالزمان وأهله ذنب الفضيلة عندهم أن تكملا[1]

فاجعل الهمة مصروفة إلى العزلة، فمن آثر العزلة فالعزُّ له، وألبس خلعة من الراحة بأيدي التباعد تنسج، وإذا قيل فيك انقباض فلا تحرج:

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما[2]

لا تطمع في إشارة الأصابع إليك، ولا تلزمك الغيرة من غيرك إذا

= وصرير أقلامي على أوراقها أحلى من النفحات للعشاق
وألذ من نقر الفتاة لدفها نقري لألقي الرمل عن أوراقي
أأبيت سهران الدجى وتبيته نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي؟!

ومما ينسب للإمام الشافعي:

شيئان أحلى من نكاح الخرد وألذ من شرب القراح الأسود
سود الدفاتر أن أكون نديمها طول الزمان وبرد ظل المسجد

(١) البيت من قصيدة لابن منير الطرابلسي أولها:

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله في منزل فالعزم أن يترحلا
سفهاً لحلمك أن رضيت بمشرب رنق ورزق الله قد ملا الملا
ساهمت عيسك مر عيشك قاعداً أفلا قليت بهن ناصبة الفلا
للقفر لا للفقر هبها إنما أغناك ما أغناك أن تتوسلا

(٢) من أبيات لتاج الدين السبكي:

ولو ان أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

تطاول عليك، لا تغتر إذا جر ذيل الأزار، وقام حوله الأرقاء والأحرار، فاكتم محاسن نفسك، حتى ترد إلى رمسك، ولا تفرح إذا أثنت عليك الألسنة، ولا تمرح إن كانت سجاياك حسنة، ولا تحب أنك توصف، فأنت لنفسك ما لم تُعرف.

الفصل السابع والعشرون
في الألغاز[1]

كان لي رفيق، طبعه رقيق، وغصنه بحلل الآداب وريق، فريد في مقامه العالي، قلد بجوهر ذاته جيد الأيام والليالي، كامل آيات محامده

---

(١) من الطرق التي افتن فيها الشعراء وأهل الذكاء: اللغز والأحاجي والمعميات ومرادهم من ذلك شحذ غرار الفكر، وقتل الوقت، وتمضية أوقات الفراغ المملة، وهو عمل شاق متعب لا نتيجة تحته، ولا ثمرة لغرسه، وكذلك: مسائل المعاياة وأبيات التاريخ. وأصل اشتقاق اللغز كما يروي (النويري) من ألغز اليربوع ولغز إذا حفر لنفسه مستقيماً، ثم أخذ يمنة ويسرة ليواري بذلك ويعمي على طالبه.

وللغز أسماء، فمنها، المعاياة، والعويص، والرمز، والمحاجاة، وأبيات المعاني، والملاحن، والمرموس، والتأويل، والكناية، والتعريض، والإشارة، والتوجيه، والمعمى، والممثل، ومعنى الجميع واحد واختلافها بحسب اختلاف وجوه اعتباراته، فإنك إذا اعتبرته من حيث أن واضعه كأنه يعاييك أي يظهر إعياءك وهو التعب سميته معاياة.

وإذا اعتبرته من حيث صعوبة فهمه واعتياص استخراجه سميته عويصاً.

وإذا اعتبرته من حيث أنه قد عمل على وجوه وأبواب سميته لغزاً وفعلك له إلغاز.

وإذا اعتبرته من حيث إن واضعه لم يفصح عنه قلت رمز وقريب منه الاشارة.

وإذا اعتبرته من حيث أن غيرك حاجاك أي استخرج مقدار عقلك سميته محاجاة.

وإذا اعتبرته من حيث انه استخرج كثرة معانيه سميته أبيات المعاني.

وإذا اعتبرته من حيث أن قائله قد يوهمك شيئاً ويريد غيره سميته لحنا وسميت فعلك الملاحن.

وإذا اعتبرته من حيث أنه ستر عنك ورمس فهو المرموس والرمس القبر.

وإذا اعتبرته من حيث أن معناه يؤول إليك سميته مؤولا وسميت فعلك تأويلا. =

بلسان القلم متلوة، وماجد استخرج نفيس أشباحه من خزاين الفخر المملوة، أخلاقه أرق من رقراق الشراب، وأبهج من ثنية البرق على ثغر السحاب، طالما إجتمعنا في مجالس، جامعة للرغايب والنفايس، كأنها غرف الجنان، أو سماء كواكبها الندمان، يكاد ساكنها أن يستخرج دينار البدر من

= وإذا اعتبرته من حيث أن صاحبه لم يصرح بغرضه سميته تعريضاً وكناية.
وإذا اعتبرته من حيث أنه ذو وجوه سميته الموجه وسميت فعلك التوجيه.
وإذا اعتبرته من حيث أنه مغطى عليك سميته معمى.

والتعمية ضروب منها ما ذكره القلقشندي: وهو أن يصطلح الانسان على إبدال حرف معين بحرف آخر معين حيث وقع في القلم المعروف بالقمي وهو أن جعلوا مكان كل حرف من حروف العربية حرفاً آخر من حروفها، فجعلوا: الكاف ميماً وبالعكس والألف واواً وبالعكس والدال رآء وبالعكس والسين عيناً وبالعكس والفاء ياء وبالعكس فيكتب محمد (كطكر) وعلي (سهف) ومسعود (كعسار) وقس على ذلك.

وقد نظم بعضهم ذلك في بيت واحد ذكر فيه كل حرف تلو ما يبدل:

كم أوحط صلالة درسع في بزخش عض ثج تدفق

ومنهم من يعكس حروف الكلمة فيكتب محمد (دمحم) وعلي (يلع) ومنهم من يبدل الحرف الأول من الكلمة بثانية مطلقاً في سائر الكلام فيكتب محمد أخو علي (حمدم خاعويل) وإلى غير ذلك من التمييزات.

ومنهم من يبدل الحروف بأعدادها في الجمل فيكتب محمد ٤٠ و٨ و٤٠ و٤، وتعمل التعمية صفة محاسبة: ومثل هذا ما يسمى الآن (بالشفرة).

ومن أمثلة هذا الباب قول ابن الرومي ملغزاً في فتيلة السراج:

ماحية في رأسها درة تسبح في بحر قليل المدى
إن غيبت كان العمى حاضرا وإن بدت لاح طريق الهدى

وللسرى الرفاء في شبكة الصياد:

وكثيرة الأحداق إلا أنها عمياء ما لم تنغمس في ماء
وإذا هي انغمست أفادت ربها ما لا ينال بأعين البصراء

ولآخر في النوم:

وحامل يحملني وما له شخص يرى
إذا حصلت فوقه وهو لذيذ المنتطي
سريت لا أدري أفي أرض سريت أم سما

قـراطيس الغيوم، أو يلبس خلعـة السماء الـزرقاء ويزررها بـالنجـوم، حيث شراب الطل يدار على الغصون من الزنبق في كؤوس فضية، وزمرد الأغصان مسمـر بمسامـير البهار الـذهبية، وقـد أزهـرت الحـدائق، وأينعت الغصـون بالشقايق:

ونمت بـأنفـاس الـريـاض خميلة لهـا الـزهـر ثغـر والنسيم لسـان

في روض أزهـر بكل بـديع وأثمـر، وجمع أنـواع الرقـايق فهو الجـامع الأزهر، (فسنح) في بالي لغز يستميل السامع باللهو، فكتبته إليه ﴿ وهبو ﴾: أيها البحر الزاخر، والنجم الزاهر، والجواد السابق، والمورد الرائق، إبن لي بـانت عنك الشـرور، وزارك الفـرح والسـرور، مـا اسم شيء أتى ذكـره في القرآن، وامتدحت بأوصافه الأقـران؟ ثلاثي الحروف[1] ومـا النون معـاودة منها في الإجمال، على أن نونه لا تفارقه بحال، ينتج فيطلق مـع وجوده عـلى ما نتج لفظ اليتيم، تهابه أسد الشرى على أنه يـرتاع من النسيم، يحـلي غيره مع أن مذاقه غير مستعذب، وإذا حدث عنه بالخوارق قيل لا عجب، يتقلد تصحيفه بأنعامه الذي طاب ذكرا، ويفتقر إلى ما عنده قيصر وكسرى، قلبه رحب وصـدره وسيع، وجـرمه لـطيف وسيره سـريع، إن مشت عـلى ظهره

(١) هذا في بحر: وهو ثلاثي الحروف (على ان نونه) أراد بالنون الحـوت ومنه الآيـة ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً﴾، (لفظ اليتيم) الدر، (ارتياعه من النسيم) تحريك الريح له، (يحلي غيره) بما يخرج منه قال تعالى: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾، (وإذا حدث عنه بـالخوارق) إشارة إلى الخبـر «حدث عن البحـر ولا حرج» (يتقلد تصحيفـه): المراد بـه النحـر (وإن مشت فـوقـه الجواري) الجواري السفن، ومنه قوله تعـالى: ﴿وله الجواري المنشـآت في البحر كالأعلام﴾. ومنه أيضاً قول بعض أهل الأدب.

يا مالك الملك حملت الورى لما طغى الماء على الجاريه
وعبدك ذا قد طغى مآؤه في الصلب فاحمله على جاريه

(تمر عليه الصروف): المراد بهـا ألواح السفن، ومنـه قولـه تعالى: ﴿وحملنـاه على ذات ألـواح ودسر﴾.

الحرائر أهلكها، وإن مشت فوقه الجواري فعلى رأسه يجعل مسلكها؛ تمر عليه الصروف مدى الأزمان، ولكن لا تمسه لطروقها الأحزان، هذا ولا زلت متنزهاً في حدائق أمانيك، نائلاً من الدهر ما ترغم به شانيك:

وكتبت إليه مرة أخرى: الماجد الذي همته أمضى من السيوف، وشمائله أعذب من طليه[1] المليحة وقد زانتها الشنوف، من سما قدره وسمت آباؤه، أوضح لي اسم شيء تزيد على الألف أسماؤه، رباعي الحروف لكنه مع تصحيفه فريد[2]؛ ليس بناطق على أنه في بعض حالاته يكلم بلسان حديد،

---

(١) الطلية: بالضم العنق.

(٢) هذا في سيف، وهو مما نافت اسماؤه على ألف (رباعي الحروف لكنه مع تصحيفه فريد): المراد به فرند (له جفن)؛ جفن السيف غمده. (نبات يشبب به الشاعر) المراد به الرند. وإذ سقي الماء علق به الصدا.

ومما يلحق بهذا الباب للسيد العلامة الأديب اسماعيل بن محمد بن اسحق ملغزاً في باب:

يا من له الذهن الشريف والذكا ... فسر لنا اسماً أتاك نعته
أحكامه الفتح لذا المضاف هل ... يحكم بالفتح إذا أضفته
وليس ممنوعاً من الجر بلا ... شك فإن أردت ذا جررته
يرفعه ينصبه يجره ... يكسره الفعل إذا أردته
والجاهل الصرف يرى جنس الذي ... ألغزت في الوصف الذي وصفته
ليس له قلب ولا... على ... أن له رجلين إن شاهدته
وحرفه الأول ثلثاه وإن ... حذفته يبقى الذي أحببته
في جوفه النار وإن أخرجتها ... من جوفه يا سيدي أحرقته
يصلحه البرد ولا ينفع من ... برد شديد هاك ما أضمرته

وجوابه لسيدي العلامة البدر محمد بن إسماعيل الأمير رحمه الله:

مولاي: خذ نشر الذي طويته ... ودونك الباب الذي أغلقته
يفتح للمضاف إكراماً له ... وفتحه بالجر إن أردته
ملازماً للرفع حقاً والبنا ... وقابلاً للفتح إن فتحته
يحفظ ما في الدار حفظ حاذق ... وجنسه صرف كما ذكرته
أصم لكن إن أتاك طارق ... ناداك إن أجبته أدخلته
تنام إن أحببت وهو قائم ... يدفع عنك كل أمر خفته =

له جفن وليس بناظر، إذا حذفت أوله وفتحت أول باقيه فهو نبات يشبب به الشاعر، إن سقي ماء لم يروه بل يزيد في صداه ، هذا ولا زال فخرك على غيرك بعيداً في مداه.

وكتبت إليه مرة أخرى: حرس الله تلك الذات وحماها بحمايته، ورعى حديقتها النضرة بعين رعايته، ولا زالت متمتعة في رياض النعم، ومحمية عن طوارق النقم، صدرت منهية إليكم الطلب عن كشف شيء ليس بخاف اسمه، ولا ظاهر جسمه، ولا يدرك بلمس ولا طرف، وليس بحيوان ولا ظرف، على أنه سائح في جميع الأقطار بغير قدم، وله صوت وليس له فم، وكثيراً ما يكون في الأشعار موصوفا، وجوفه في قلبه وما رأينا له قلباً معروفاً[1]:

ترى جوفه في قلبه صار ساكناً وعهدي بأن القلب قد حل في الجوف

= وهو ثلاثي خماسي وإن طردته فهو كلو عكسته
وصدره البا كما آخره أب إذا أحببته أكرمته
قلتم لنا ومن عجيب وشأنه أنا إذا قطعته واصلته
أعجب من هذا بأن خله أقرب شيء منه إن نظرته
وليس يدنو للعناق جره إليه لكن إن تشا ضممته
فما أظن النار في ظلوعه إلا من الوجد الذي عرفته
أن يصلح المبرد منه عوجا فقبله بالنشر إن أحببته
فهل نشرنا ما له طويتمو وهل فتحنا باب ما أرتجته

(١) هو في ريح. والمراد بقلبه جوفه وهو أن وسطه حرف الياء ساكناً.

الفصل الثامن والعشرون

في المكاتبات[1]

علق فؤادي بحب أغيد، إذا نطق فما الغريض

(١) كانت قبائل مضر في الجاهلية لا تعرف الكتابة وأول من تعلمها منهم حرب بن أمية جد معاوية بن أبي سفيان، وجاء الإسلام وقد تعلمها طائفة من أهل مكة، أسلم بعضهم وهاجر فتعلمها الأنصار منهم ومن أسرى بدر، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحث على تعلم الكتابة حتى أنه جعل فداء من يحسنها من أسرى بدر تعليم عشرة من أولاد الأنصار.

وكان له من المهاجرين والأنصار عدة كتاب، ومنهم من كتب رسائله إلى الملوك والأقيال، والعهود التي كان يكتبها لمن أسلم من القبائل ولمن صالحوه في حرب ومن هذا أطلقت الكتابة على معنى إنشاء الكتب والرسائل والعهود وكتابة الدواوين. وكانت كتب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مختصرة بليغة في أعلى درجات البلاغة سواء في ذلك المعاهدات وكتب الصلح، وكتبه إلى كسرى وقيصر والملوك وكانت تفتتح باسمه الشريف (من محمد رسول الله إلى فلان إلى فلان) وكانت رسائلهم موجزة لا يعمد فيها إلا إلى بيان الغرض المقصود بأوجز عبارة حتى استخلص الكتاب هذه المحدثات، وأول من أطال الرسائل السلطانية والأخوانية وابتكر فيها كثيراً من صور البدء والختام عبد الحميد بن يحيى مولى بني عامر كاتب مروان بن محمد.

وكان قد سبقه إلى إدخال كثير من المحسنات كالاستشهاد بالشعر والأحاديث وضرب الأمثال في الرسائل والمكاتبات أستاذه أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك ورئيس كتاب الديوان وقتئذ، ولم تزل الكتابة تنمو وتزدهر بما أدخله عليها سالم وعبد الحميد إلى أيام المأمون، وزاد الرشيد بعد الحمد الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وزاد الأمين تكنية الخليفة، ومن الابتداء (بأما بعد) فقط، أو مع الدعاء للمكتوب إليه، أو بلفظ (كتاب =

ومعبد[1]، قمر بليل غدايره ونمل عذاره كم سبا للشعراء حجراً، وسلب عنهم تجلداً وصبرا، له وجه كالبدر عند تمامه، إذا طلع في غيطول[2] ظلامه، متى أهل هللت العالم وكبرت لآيته، ووقفت حائرة عند طلعته:

لو رأى وجه حبيبي عاذلي لتفاصلنا على وجه جميل

طرفه مكحول، يروي حديث الحسن الصحيح وهو معلول[3]؛ سهمه مسدد إلى الفؤاد، وسيفه مجاهد في قلوب العباد؛ أسود لكنه في مضائه من البيض المشرفية، وفي طعنه من زرق أسنة السمر السمهرية:

ترنو العيون إليه في إطراقه فإذا رنا فلكلها إطراق

= إليك) وغير ذلك، ومن أشهر كتاب هذا العصر عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول إبراهيم بن العباس الصولي ابن عم عمرو بن مسعدة، واشتهر من بني صول بعدهما أبو بكر بن يحيى الصولي الشطرنجي ووقفت الكتابة في هذا المستوى.

ولما قبضت الفرس على ناصية الحكم أدخلت في الكتابة كثيراً من ألقاب التعظيم والتبجيل وبعض العبارات الفلسفية في كتابة الرسائل ومن أشهر كتاب هذا النوع ابن العميد وله طريقة معروفة ترسمها من بعده من الكتاب وهي الرسائل المسجعة: ومن هذا النوع الرسائل الآتية للمؤلف.

(١) الغريض ومعبد علمان من أعلام الغناء العربي ذاع صيتهما واشتهر أمرهما حتى أصبحا مضرب الأمثال في جودة الغناء والبراعة فيه واسم الغريض عبدالملك ويكنى أبا يزيد وسمي بالغريض لطراءته.

(٢) الغيطول: الظلمة المتراكمة.

(٣) حديث الحسن لعله أراد التورية بالحديث الحسن، وهو ما عرف مخرجه وشهر رجاله بالعدالة والضبط المنحط عن درجة الصحيح، والصحيح ما رواه عدل ضابط متصل السند غير شاذ ولا معل، والمعلول قال في مقدمة القسطلاني: المعلل ولا يقال المعلول وهو خبر ظاهره السلامة لجمعه شروط الصحة لكن فيه علة خفية فيها غموض تظهر للنقاد الحاذقين بعلل الحديث عند جمع طرقه، وفي اللفظ إشارة إلى بعض رجال الحديث شهرتهم تغني عن التعريف.

عذاره كنافجة الغزال، أو كسلاسل من سبح قيد بها الحسن خوفاً عليه من الزوال، أو كلام وضعت عليه لحرب أهل الغرام، ومن حاجبه القوس ومن لحظه السهام، أو دقيق مسك ذر على صدف، أو دبيب نمل خشي أن يحرق بنار الخدود فانتهى إلى جنبها ثم وقف:

وما كان لي بالعشق قط تعلق ولا بالهوى قبل العذار شعور

ساحر الأجفان والحدق، إذا رمق لم يبق بعاشقه رمق، مفرد في الحسن إن تثنى لم يزل الغصن يضرب أخماساً بأسداس، وإن رنا فما ظبي الكناس، الماء بخده مؤتلف بالنار، وسنان مقلته رقي على خط العذار:

يلوح سنان فوق خط عذاره ولا غرو من كون السنان على الخطي

خصره كجسم صبه، الناحل من فرط حبه، نحيل لا يصوره الوهم والتخييل، أودى به السقام فما له في خصور الغيد من مثيل، معقودة بمنطقته المنون، فلذا أحاطت به العيون:

أحاطت عيون العاشقين بخصره فهن له دون النطاق نطاق

فأصابه في بعض الأيام، رمد حرم عليه المنام، مع ما بيني وبينه من الود الأكيد، والحب الذي هو كل يوم في مزيد، وأنا أحنو عليه حنو الصدف على الدرر، وأغار عليه حتى من النظر:

وتنظره من قلبي الصب أعين عليها بمحنيٍّ الضلوع حواجب

ثم إنه شفي وزار الوسن محاجره، وفي الحقيقة ما أصاب الرمد إلا عيني[1] الناظرة، فكتبت له مهنئاً بالشفا، لما خمد جمره وانطفى، يا عين

(١) كناية عن زيادة الحب حتى أصبحا كذات واحدة، وللصوفية في هذا المقام عجائب لا يتسع لها=

المعالي، وزينة الأيام والليالي، وحسام المجد المرهف، وروض الجمال الذي زهره بغير أنامل أهداب العيون لا يقطف، وعقد الحسن المنظم، وغصن الشرف الذي ربي في حجر العلى وتنعم، أرفع اليك أن الفؤاد كان منتصباً لنصب الأحزان، والخد متخدداً من جري دمع الأجفان:

أروي أحاديث نيراني مسلسلة عن مسعر وحديث الدمع عن مطر[1]

وكيف يصح حديث السلوان وأنت معتل العين، أو يفي الدهر بالأمل ولك عليه بعض دين، فقد بلغني أن الرمد زار عينيك شغفاً بها، فألبسها حلة حمراء فزادت حسناً وبَها، وما أنت إلا روضة دوحها وريق، وهل تحسن الرياض إذا لم ينبت بها الشقيق، ولئن قوامك غصن غنت عليه من قلوب محبيك الحمائم، ومن عادات بعض الغصون إنبات الورد الناعم:

ما أحمر طرف العين ضعفاً ولا نرجسه بدل منه الشقيق
لكنه من حمرة الخد قد أصبح سكراناً فلا يستفيق

ولأنك لم تجد من وصلك بصلة فاحتجت إلى عائد، ولم تسمح ولو مرة بإعتناق قدك المائد، ولأن عينيك بيض خلقت لسفك دم العشاق، فمع

= المقام، كتب بعض الأدباء إلى صديق له وقد رمد:

أبثك يا خليلي أن عيني غدت رمداء تجري مثل عين
حديثاً أنت تعرفه يقيناً لأنك قد رمدت وأنت عيني

فأجابه ذلك الصديق:

كفاك الله ما تشكو وحيًّا محاسن مقلتيك بكل زين
وإني من شفائي في يقين لأنك قد شفيت وأنت عيني

(١) مسعر بكسر أوله وسكون مهمله وفتح العين ابن كدام بكسر الكاف الهلالي من الرواة المشاهير: خرج له الجماعة والطبراني ومحمد بن منصور والمرشد بالله. مطر بن طهمان السلمي مولاهم أبو رجا الخراساني ثم البصري المصاحفي الوراق، خرج له مسلم منفرداً والأربعة والسيدان الأخوان والمرشد بالله.

سطوتك عليهم تضمخت من حمرته الأحداق:

حمـرة ورد الخـد أعْـدتهـا والصبغ قـد ينفضُّ أحيـانـا[1]

وقد غردت بسوحي حمائم الهنا، وشمت طرف السرور إلى قدرنا لما نقل لي بأنه قد رجع ذلك الشقيق نرجساً كما هو أصله، وتفرق من الألم الذي ألمَّ بك شمله، وعاد ذلك الياقوت سبجا، وتضوع لك الشفا أرجا، لا برحت مبتكراً لعقايل السلامة، متنزهاً في معاقل الصحة المحروسة عن الندامة، وكان لي صديق من الأكابر، الذين لهم من المكارم سهم وافر، قدم إلى محاورة ومسامرة، فتبعت مقدمتيه نتيجة الود الوافرة، فأشعرت في بعض الأيام بأنه يريد تطهير ولد له بالختانة، فكتبت ناثراً بين يديه من الهناء لؤلؤه ومرجانه، لقد تحلت أرجاء البشاير نرجساً ونورا، وتجلت شموس الأفراح إشراقاً ونورا، وأمطرت ثفافيد[2] الابتهاج جمان السرور، وتقلدت الآفاق أطواقاً من التهاني تهزأ بقلايد النحور، وما ذاك أيها الرئيس، المتجمل من المجد بمطرف نفيس، إلا لما طهرت بالختانة[3] فرعك الطاهر، الذي فضله على أبناء دهره ظاهر، ولعمري إنه لا يرهب سطوات الدهر وإن كلمه بلسان حديد، ولا تروعه الحوادث من الأيام وكيف لا وهو فرعك يا ذا البأس الشديد:

---

(١) البيت لابن المعتز وقبله:

قالوا اشتكت نرجستا طرفه قلت عداه السقم ما كانا

(٢) سحائب بيض بعضها فوق بعض.

(٣) استعمال التطهير هنا إشارة إلى معتقدات الأمم التي كانت تعتبر الختان من الواجبات كالأمة اليهودية والعرب الجاهلية فإن الدين الإسرائيلي يعتبر كل من اختتن أنه دخل في ذمة وعهد ابراهيم الخليل عليه السلام، وقال في اللسان: وكان في الجاهلية يقال لمن اختتن وحج البيت حنيف، وقال الفراء: الحنيف من سنته الختان.

وقال الجوهري: الحنيف: المسلم وقد سمي المستقيم بذلك كما سمي الغراب أعور وتحنف الرجل أي عمل عمل الحنيفية ويقال اختتن.

لم يروع لـه الختـان جنـانـاً مـذ أصاب الحديد منه حديدا
مـثـلما تـنـقص المصابيح بالقـــط فتـزداد في الـظلم وقـودا

فـالحمدلله عـلى هذه البشـرى، التي ضحكت لها الـرياض بثغـر الأقاح بشـرا؛ واشتعلت لها مصـابيح النجـوم، وتقلدت لهـا الأغصـان عقـوداً من قطرات الغيوم، وإن كان قد غدا خليل المعالي كليم الجسد، وصار يمشي من ألمه كمشي الأسد[1]، وغدا شبلك الندب بالمسنون واجبا، وباشرته نار الحد حتى أضحى يـاقوت دمـه ذائبا، لكن مـاذا يراد بـالحديقـة إذا لم يقتطف من نباتها، ويتمتع من ثمرها وزهراتهـا؟، ولولا نقصان القمر ما عرفت الشهور والأعوام، ولولا القط لما أغنت في الرقم الأقلام:

وقــطع الشمع يكسبه ضياء وقط الظفر زين للبنان

* *

وكتبت إلى صديق لي صدوق، لا يهمل ما بيني وبينه من الحقوق، وقد رجع من بيت الله الحرام بعـد أن تحققه وعـرفه، وقضى منـاسكه في المشـاعر المشهور منها منى وعرفه، يا كعبة الجود والإحسان، وحرم الفضايل الذي ما فر إليه خائف إلا أمن من نكبات الزمان، وشقيق رياض السماح، وريحـانة أهل التنسك والصلاح، أشرح لك مسرتي وإن كـانت لا تحصى ولا تحصر، وأفيض عليك أن المنام أسعف بوصالي بعد أن عبث بجفني السهر، وما ذاك

---

(١) إشارة الى بيت المتنبي في صفة الأسد:

يطأ الثرى مترفقاً في مشيه فكأنه آس يجس عليلا

ويظهر أن هذا المختون كان قد تجاوز سن الطفولة وصار حزورا أو ما دونه.

إلا لما بلغني عنك أيها الكريم، والماجد الذي منذ غاب فقد نظيره في الإقليم، أنك قد عدت إلى وكرك، ورجعت إلى سفحك الرحيب الذي نشأ به رحيب صدرك، وألقيت أحمالك في مستقر أهلك وولدانك، واستقلْت في ظل خلانك وجيرانك، وفرَّجت عيونك في روضة من ديارك تربى بها غصن معاليك الرطيب، واقتطفت من نرجسها ووردها ما يشبه عين الخل ووجنة الحبيب، وذلك بعد إيابك يا أبا المجد من زيارة أم القرى، وعقيلة الحسن التي تبذل لوافدها رغايب القرى، واجتلائك وجهها في الخمار الأسود، وتمتعك من طلعتها التي بها يتزين العسجد، وقد قبَّلت من الحجر الأسود خالاً تزينت به وجنات الشام، وحييت بتحيتك السنية باب السلام، ورشفت من ريق زمزم شهداً يشهد لشاربه أنه ظفر بغاية لا تفنى، وأصبت مني الخاطر إذ خطرت في بقاع منى، وعرفت ملك ربك إذ شاهدت من وقف بعرفات، واستحقيت دخول الجنة إذ رميت الجمرات، فتهنَّ بما أعطيت من الأنعام، واشكر ربك على قضاء المرام، فلعمري أنك تقلدت عقد الفوز بيد التوفيق، وتجملت بمطرف السعادة الذي أنت بمثله حقيق، ودامت لك الأيام متحددة، ولا برحت لك الليالي بمطلوبك مسعدة، ما دامت الوجوه جانحة إلى قبلة الأمم، والعيون متشوقة إلى رؤية الكعبة والحرم.

* * *

وكتبت إلى خليل لي جليل، يحق لمثله التعظيم والتبجيل، طالما دارت بيننا وبينه كؤوس السرور، في مجالس تفتحت بنسيمها الزهور، حيث لاباك إلا طرف الشمع والغمام، ولا مشقق جيوبه وصارخ إلا الأشجار والحمام؛ أصبره في ولد له غريق، كان له في المعالي عرق عريق، يا بحر الجود العميم، الذي إذا ركب فيه العافون سفاين الآمال تحلو بالدر النظيم، ومورد الأفضال الذي كرع منه اللهثان، وحطت حوله الركبان، أعزيك في فرعك الذي طاب أصلا، واختار الله له دخول الجنة ولكنه ترك الأفئدة من

حزنها تصلى، فإني أخبرت بغرقه وما كدت أصدق، حتى أتاني نبأ لِما قيل لي محقِق، فواعجباً كيف ولج البحر في أخيه، واحتجب به عن عين رائيه! وما هو إلا لما أزرى في السماحة بجعفر[1] أغرقه البحر حسدا، واختطفه من البر تشرفاً به لكنه أذاقه الردى، ولبس لحربه درعه المزرود بأيدي النسيم، خوفاً من سطوته التي يشيب لها الفطيم:

ولما لم يسعه البر قبراً غدا البحر المحيط له ضريحا

وقد أفادنا غرقه فائدة عظمى، بأن حقق لنا أن الشمس تغرب في الماء[2]، ولو لم يكن متكوناً من اللؤلؤ المكنون، لما أضحى في اليم الخضم وهو مصون، فغدا بين لآلي الأصداف يتيما، وفي جيد اللج عقداً نظيما:

كأن صفاء الماء شاكل جسمه فجاذبه فانقاد شكل إلى شكل
نأى عن تراب الأرض نور بهائه ولو كان من ترب لعاد إلى الأصل

وقد التهبت لفقده بنار الحزن والشجون، مهجة كل صاد لقربه لما ظل يسبح كالنون؛ فكأنه حين يرتفع وينخفض في الموج المتلاطم، قلب محزونه بين فيَّاض الأسف الدائم، وما غرق ذلك الإنسان الفاضل، إلا بعد أن غرق إنسان العين في بحر دمعه الكامل:

غريق كأن الموت رقَّ لحسنه فلانَ له في صفحة الماء جانبه
أبى الله أن ينساه قلبي فإنه توفاه في الماء الذي أنا شاربه

فقد أذهب مسراتنا لما رحل، وتحلت للحزن لا للسرور بدر دمعها المقل،

---

(١) جعفر بن يحيى البرمكي أحد الأجواد، والجعفر: النهر.

(٢) إشارة إلى قول بعضهم في مليح يسبح:

يا أيها الرشأ المكحول ناظره بالسحر حسبك من داء بأحشائي
إن انغماسك في التيار حقق أن الشمس تغرب في عين من الماء

وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فوجدها تغرب في عين حمئة﴾.

وجرت دموعي خيفة الإغراق من نفسي إلى أن خافت الإغراقا

وعبس وجه الانشراح، وشققت عليه جيوب الدوح الرياح، لكن لنا ولك إسوة بمن سلف من الأمم، وفنِيَ من أرباب الملك والنعم، فالتأسي روح المحزون، والاقتداء عنده الخطب يهون، وكم قد أطفأ صرصر الحتف من مصابيح نيرة واضحة، وأذوى شتاؤه غصوناً عليها طيور الشباب صادحة: ولو لم يكن من مصرعه الذي شقق الجيوب، إلا أمننا بعده من الرزايا والخطوب:

فكل ما كنت أخشى قد أصبت به فليس بعدهم من فائت جزع

فبماذا يفجعنا الدهر بعد سلبه؟، وماذا يقضي فينا بعد قضي نحبه؟ فاصبر على النوائب؛ ولا تتصف بالجزع، واشكر الله إذا أعطى أو منع، فأنت أولى من حث على الاصطبار، وأجدر من اتسم بالقرار.

*

وكتبت إلى آخر أعزيه في ولد له قتل في المعركة:

يا بدر الكمال والمعالي، ونسيم روض المعارك التي تهتز إذا مر بها غصون العوالي، أعزيك في ولدك وأصبرك، وأوصيك بالرضا ومن الجزع أحذرك، وما هو إلا لما اشتاقت إلى تقبيله السمهرية والسيوف، ألبسته حلة حمراء فصلتها يد الحتوف، فلهفي على ذلك البدر الذي غرب من دمه في شفق، ! ووأسفا على ذلك الدر الذي غيب في صدف الضريح عن الحدق !، فلولا حزنه لما هاجت بين ضلوعي النار، ولولا التأسف عليه لما سفح دمع عيني المدرار:

ولو لم يعطل خاطري من سلوه لما كان دمعي بالمدامع حالي

فمن لي بوصال ذلك الريم؟، الذي حرم على صبه النعيم، فلقد

عبث بي إلى مورد ثغره الظما[1]، وإن كانت قد صارت ثناياه مصبوغة بالدما:

---

(١) هنا طاش سهم المؤلف ولم يصب الغرض من الإجادة حيث خلط التعزية بالغزل واستبدل عبارات التسلية والتأسي وما يخفف ألم المصيبة وعادية الحزن، بالحنين إلى رشف الثغر ولثم الخد والاستمتاع بجمال المفقود ولأمر ما قيل لكل مقام مقال. «ولكل لفظة معنى يشاكلها» واشترطوا الملاءمة في فواتح الرسائل وخواتمها.
على أن بعض الشعراء قد جمع بين الرثاء والغزل وأتى بما يثير الشجون ويستذرف الشؤون ولكن في رثاء زوجة أو بكاء حبيب، فمن الأول قول ابن نباتة في رثاء زوجته وقد جمع بين الرثاء والغزل فقال:

ثوت في مهاوي الترب كالتبر خالصاً ... فحققت أن التبر بعض المعادن
فوالله ما أدري لحسن خلائق ... تسح دموعي أم لخلق محاسن

ومنها

وكنت أخاف البين قبلك والنوى ... فأصبحت لا آسي على إثر بائن
كأنك بادرت الرحيل تخوفاً ... علي من الحسن الذي هو فاتني
فديتك من لي من سناك بلمحة ... وينزل بي من بعدها كل كائن
أأنسى قواماً أثقف الحسن رمحه ... فما فيه من عيب يعد لطاعن
ووجهاً حكى من حسنه كل مقمر ... ولحظاً روى عن طرفه كل شادن

وله في رثاء جارية له:

أقيما فروض الحزن فالوقت وقتها ... لشمس ضحى عند الزوال فقدتها
ولا تبخلا عني بإنفاق أدمع ... ملونة أكوى بها إن كنزتها
لغائبة عني وفي القلب شخصها ... كأني من عيني لقلبي نقلتها

ولمحمد بن مناذر في معشوقه عبد المجيد بن عبدالوهاب الثقفي وكان من أجمل الفتيان وآدبهم فاختطفه المنون وهو غض نضر، لما يجتمع على شاربه موسى والخضر، فرثاه ابن مناذر بقصيدة باكية أولها:

كل حي لاقى الحمام فمودي ... ما لحي مؤمل من خلود
لا تهاب المنون شيئاً ولا ... تبقى على والد ولا مولود

ومنها:

ان عبد المجيد يوم تولى ... هد ركناً ما كان بالمهدود
هد ركني عبد المجيد وقد كنت بركن أنوء منه شديد

ومنها:

حين تمت آدابه وتردى ... برداء من الشباب جديد =

كل سن كالأقحوانة كانت فغدت بالدماء كالجلناره

فقد ودَّع منزلي السلوان، وخلف بعده الأحزان، وتحكم فيَّ النحيب، وزاد في فؤادي اللهيب:

واهتاج قلبي وقد دعاه له ناع عنى من أحب حين نعى

وقد علم الله موقع تلك الرزية في القلوب، وخصها بالعظم من بين سائر الخطوب، فإني ما برحت على مر الأيام محزوناً، ولا انفك دمع عيني هتونا:

وقفت عليه الطرف تجري دموعه فشاهدته في حالة الوقف قد جرى

= وسقاه ماء الشبيبة فاهتز اهتزاز الغصن الندي الأملود

إلى آخرها وهي طويلة وأظن انه لا يوجد في منظوم ولا منثور الجمع بين الغزل والتعزية اللهم إلا إذا أمكن الجمع بين الضدين (وأي ضدين علمت اتفقا).

الفصل التاسع والعشرون
في النصائح والحكم

إعلم أيها الإنسان، إن النصيحة من الإيمان[1]، فأصغ لما أورده من قولي، وأقبل بقلبك وسمعك على ما أملي، لا تصادق غير العلم والعمل[2]، ولا تتمسك عنهما بذيل التواني والأمل، لا يغرك حلو مساعدة

---

(١) جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: الدين النصيحة، قيل لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم:

(٢) جعل المؤلف رحمه الله طلب العلم والعمل به والمثابرة على طلبه في مقدمة نصائحه الغالية وحكمه الثمينة وذلك لفضل العلم وشرفه (إنما يخشى الله من عباده العلماء)، ولقد كان السلف الصالح يتوسلون إليه كما قال بديع الزمان الهمذاني: (بافتراش المدر، واستناد الحجر، وورود الضجر، وركوب الخطر، وإدمان السهر، واصطحاب السفر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، ويحملونه على الروح، ويحبسونه على العين، وينفقون من العيش، ويخزنون بالقلب، ويحررون بالدرس، ويستريحون من النظر إلى التحقيق ومن التحقيق إلى التعليق) ولله در القائل:

أطلب ولا تضجر من مطلب ... فآفة الطالب أن يضجرا
أما ترى الحبل بتكراره ... في الصخرة الصماء قد أثرا

ويكفي أهل العلم شرفاً ثناء الباري عليهم: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ وقال تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ فبه يسود الوضيع ويتضع الشريف ويعز الذليل ويذل العزيز:

تعلم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل =

الزمان، فلعله يجرعك من بعد مرير الحرمان[1]، فقد يتغافل الليث حتى يدنو الصيد من غابه، ويتجمع لوثوب يتبعه عض أنيابه[2]:

وما الدهر في حال السكون بساكن ولكنه مستجمع لوثوب

= العلم غذاء النفس الشريفة، وصيقل الأفهام اللطيفة، ووسيلة خلود الذكر في عالم الحياة:

هذب النفس بالعلوم لتبقى وترى الكل فهي للكل بيت
إنما النفس كالزجاجة والعقل سراج وحكمة الله زيت
فإذا أشرقت فإنك حي وإذا أظلمت فإنك ميت

قال ابن المعتز في فصوله القصار: (مات خزنة الأموال وهم أحياء وعاش خزان العلم وهم أموات). ولابن يسير في خلود أهل العلم في عالم الذكر:

إن الأوائل قد بانوا بعلمهمو خلاف قولك قد ماتوا وقد ذهبوا
ما مات منا امرؤ أبقى لنا أدباً يكون منه إذا ما مات يكتسب

وقال ابو الفتح البستي:

يقولون ذكر المرء يحيى بنسله وليس له ذكر إذا لم يكن نسل
فقلت لهم نسلي بدائع حكمتي فإن فاتنا نسل فإنا بها نسلو

(١) إشارة إلى قول مهيار الديلمي:

بلوت هذا الدهر أطواره عليَّ طوراً ومعي تاره
وبصرتني كيف أخلاقه تجارب كشفن أخباره
فصرت لا أنكر إحلاءه يوماً ولا أنكر إمراره

| وقوله:

يذنب دهر ويستقيل ويستقيم الذي يميل
والعيش لون يوماً ولون كلاهما صبغة تحول
وربما حنت الليالي ثم لها مرة غفول
فأسر فان الدنا طريق أسهل ميل وشق ميل

ولبشار بن برد:

الدهر طلاع بأحداثه ورسله فيها المقادير
محجوبة ينفذ أحكامها ليس لنا عن ذاك تأخير

(٢) إشارة إلى قول النابغة:

وقلت يا قوم إن الليث منقبض على براثنه للوثبة الضاري

وقال بشار

سكنت سكوناً كان وهناً بوثبه عماس كذاك الليث للوثب يلبد

عماس: شديد

لا تركن على نفسك أو على صديق صادق، لا تستعن في أمورك بغير الخالق، فهو صورك من العدم، وأخرجك من الظلم، أيسهل عليه تكوينك من ماء الأصلاب[1]، ولا يسهل عليه أن يفتح لك من الإعانة الأبواب:

من استعان بغير الله في طلب فإن ناصره عجز وخذلان[2]

لا تكبت الحساد بغير المعالي، لا تكن بما فاتك من الرزق إلا غير مبالي، من قنع باليسير فهو اليسار[3]، ومن أراد الهيبة فهي الوقار، ما أذاق

---

(١) من مراتب الإيمان العالية مقام تفويض الأمور إلى من بيده ملكوت كل شيء والإستعانة بمالك الملك رب العالمين، ومعنى الاستعانة طلب المعونة وهي إزالة العجز والمساعدة على إتمام العمل الذي يعجز الإنسان عن الاستقلال به، ولبعض رجال الطريقة.

تذكر جميلي منذ خلقتك نطفة ولا تنس تصويري لشخصك في الحشا
فسلم إلي الأمر واعلم بأنني أنفذ أحكامي وأفعل ما أشا

وللسيد الأديب صدر الدين علي بن أحمد معصوم المكي الحسني:

وإن تضف يا صاح حالاً فوض الرحمن أمرك
وادع في سهر وجهر يا جميل الستر سترك

(٢) البيت من قصيدة لأبي الفتح البستي أولها:

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لا ثبات له فإن معناه في التحقيق فقدان

إلى آخرها وهي طويلة مشهورة.

(٣) من احسن ما جاء في القناعة قول بعضهم:

إذا المرء عوفي في جسمه وملكه الله قلباً قنوعا
وألقى المطامع من قلبه فذاك الغني وإن مات جوعا

وقال آخر:

حسب الفتى من عيشه زاد يبلغه المحلا
خبز وماء بارد والظل حين يريد ظلا

ولأبي العتاهية من ارجوزته المزدوجة المعروفة بذات الامثال:

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت

وفي الخبر: من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما ملك الدنيا =

الدهر صبر الغلبة غير الصابر، من عمل لآخرته فهو أربح تاجر[1]، إصنع المعروف[2]، ولو إلى غير معروف، ولا تحزن على ما أنفقت فهو مخلوف، يا من هو لزمام الملك مالك، لا تحرج على ما تخرج من مالك، لا يضق صدرك إذا صدِّر من لا يستحق التصدير عليك، ونفق في سوق السوقة من يكسد ما لديه بما لديك:

أما ترى البحر تعلو فوقه جيف وتستقر بأقصى قعره الدرر[3]

=بحذافيرها، وجاء أيضاً: حسب المؤمن من لقيمات يقمن صلبه، وقال بعضهم:

عجبت للمالك القنطار من ذهب يبغي الزيادة والقيراط كافيه
وكثرة المال ساقت للفتى أشراً كالذيل عثر عند المشي ضافيه

(١) قال منصور الفقيه:

إذا كنت تزعم أن الفراق فراق الحياة قريب قريب
وإن المقدم ما لا يفوت على ما يفوت مصيب مصيب
وأنت على ذاك لا ترعوي فأمرك عندي عجيب عجيب

(٢) دخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على عائشة وهي تتمثل بقول الغريض:

إرفع ضعيفك لا يحل بك ضعفه يوماً فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثني عليك فإن من أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال عليه الصلاة والسلام: ردي على قول اليهودي قاتله الله لقد أتاني جبريل برسالة من ربي (أيما رجل صنع إلى أخيه صنيعة فلم يجد له جزاء إلا الثناء عليه والدعاء له فقد كافأه).

ويقال صنائع المعروف تقي مصارع السوء. ويرحم الله القائل:

ولم أر كالمعروف أما مذاقه فحلو وأما وجهه فجميل

وقال الحطيئة:

من قدم الخير لم يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

(٣) من أبيات لقابوس بن وشمكير أولها:

قل للذي بصروف الدهر عيرنا هل عاند الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف وتستقر بأقصى قعره الدرر
وفي السماء نجوم ما لها عدد وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وقد طرق الشعراء هذا المعنى كثيراً، ومنه لابي تمام:

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت عيدان نجد ولم يعبأن بالرتم =

لا تباشر أمورك بالعجل، فربما ندمت بعد الزلل، ملازمة الذكر[1] حياة القلوب، ما تورث الغموم سوى الذنوب[2]، لا تنطق بما يكلِمُ

= بنات نعش ونعش لا كسوف لها والشمس والبدر منها الدهر في رقم

ولابن زيدون:

لا يهنأ الشامت المرتاح خاطره إني معنى الأماني ضائع الخطر

هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر؟

والمعنى الذي أراده المؤلف هو أن من شيمة الأيام تقديم الناقص وتأخير الفاضل وحط الشريف ورفع الحقير قال ابن الوردي:

هكذا الدنيا ومن عاداتها تحفظ العالي وتعلي من سفل

وذلك لمناسبة بين الظرف والمظروف وعلة بعد الشريف عن المشروف كما قيل:

قالت علا الناس إلا أنت قلت لها كذاك يسفل في الميزان ما رجحا

وما دام الأمر كذلك والدهر غير معتب فينبغي للعاقل أن لا يتأثر من حمق الدهر وسوء تصرفه

دهر على قدر الوضيع به وغدا الشريف يحطه شرفه

كالبحر ترسب فيه لؤلؤه سفلا وتطفو فوقه جيفه

(١) قال تعالى: ﴿اذكروا الله ذكراً كثيرا وسبحوه بكرة واصيلا﴾ وقال: ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾.
قال صلى الله عليه وآله وسلم: لكل شيء شفاء وإن شفاء القلوب ذكر الله وما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله قال: ولو أن يضرب الرجل بسيفه حتى ينقطع. رواه البيهقي عن ابن عمر وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله سئل: أي الرجل أفضل عند الله يوم القيامة قال: الذاكرون الله كثيراً قال قلت: يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله قال لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويخضب دماً لكان الذاكرون الله أفضل منه.
وأخرج الطبراني من حديث معاذ بن أنس: قال صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى: ﴿ لا يذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الملأ الأعلى ﴾.

(٢) لا جرم أن ركوب مطايا الآثام ومقارفة الذنوب من أكبر بواعث الغموم لأن الإنسان إذا مرضت نفسه، واعتل وجدانه، وارتكست أخلاقه، وساءت أفعاله لازمه الضنك والضيق وساورته المخاوف والآلام مع ذل العبودية لشهواته البهيمية وآماله الوهمية قال عليه الصلاة والسلام: (من أشرب قلبه حب الدنيا وركن إليها التاط منها بشغل لا يفرغ عناه وأمل لا يبلغ منتهاه وحرص لا يدرك مداه)، وقال بعض أهل الطريقة: إتباع الشهوات ينكس الرؤوس ويذل النفوس ويلبس لبوس البوس، وقال آخر: ما دامت نفسك بشهواتها =

القلوب من كلامك، واشكر من سعى في قضاء مرامك[1]:

فإذا امرؤ أسدى إليك صنيعة من جاهه فكأنها من ماله[2]

اكتم أعمالك الحسنة[4].

= تحترق، فأنت معها ابداً تحت رق، ولله القائل:

إذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
ومن أشمت الأعداء جهلا بنفسه فقد وجدت فيه مقالاً عواذله
ولن يقرع النفس اللجوج من الهوى من الناس إلا وافر العقل كامله

(١) احق الناس بالنعم اشكرهم لما أوتي منها، وفي الخبر لا شكر الله من لم يشكر الناس، «فاشكر لمن أعطى ولو سمسمة».

(٢) البيت لأبي تمام وقبله في مدح اسحق بن ربعي كاتب ابي دلف العجلي:

إن الأمير بلاك في أحواله فرآك أهزعة غداة نضاله
فمتى أقوم بحق شكرك إذ جنت بالغيب كفك لي ثمار نواله
فلقيت بين يديك حلو عطائه ولقيت بين يديه مر نواله
وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعة من جاهه فكأنها من ماله

(الإهزاع: الاسراع

(٣) صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسمية الرياء بالشرك الخفي، ولا سلامة منه إلا بكتمان الأعمال الصالحة، قال بعض الأتقياء: «شرك الرياء يدب دبيب النمل في كل إنسان إلا من عصمه الله تعالى بالإيمان»، الرياء من أحوال العجب والغرور وقلَّ والله من يسلم من هذه الأمور لنقص البشرية وغرة الحرية، وربما كان التظاهر بالصلاح مجلبة للفساد، شرك للإصطياد، كما قيل:

إني على ما أراكم لا أحذركم جراءة اللص والأكراد والفسقة
لكن أحذركم من ينبري لكمو في معرض الزهد لكن همه السرقة
صلاته الرمح والتسبيح أسهمه وصومه سيفه والمصحف الدرقة

ولأبي العلاء:

يحسن مرآي لبني آدم وكلهم في الذوق لا يعذب
ما فيهم بر ولا ناسك إلا إلى نفع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

لا تعاقب بغير برهان وبينة[1]، بئس الطباع الحقد[2]، الأدب في جيد المعالي كالعقد، توقَّ مكر من ليس بمعاتبك على معايبك، لا تأكل طعاماً قبل هضم سابقه فقد يوردك حمام مشاربك[3]، أقبح المِلل المَلل[4]، وأشرفها

(١) من أعظم الظلم وأقبحه الأخذ بالظنة والعقوبة بغير برهان وبينة قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة﴾ الآية (وأحق الناس ـ بإجبار نفسه على العدل في النظر، والقول، والفعل، ـ الوالي الذي ما قال أو فعل كان أمراً نافذاً غير مردود) وقد قيل: ليس للسلطان أن يغضب لأن القدرة من وراء حاجته، وقيل: شر المال ما لا ينفق منه، وشر الأخوان الخاذل وشر السلطان من خافه البريء، وشر البلاد ما ليس فيه خصب، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم (من أكبر الكبائر استطالة المرء في عرض رجل مسلم بغير حق).

(٢) الحقد: من الأدواء الفتاكة، والعلل الأخلاقية الخبيثة، داء الحسد، قال ابن المقفع: (الحاسد لا يبرح زارياً على نعمة الله، لا يجد لها مزالا ويكدر على نفسه ما به فلا يجد لها طعما، ولا يزال ساخطاً على من لا يتراضاه ومتسخطاً لما لا ينال فوقه فهو مكظوم هلع جزوع ظالم أشبه شيء بمظلوم، محروم الطلبة، منغص المعيشة دائم السخطة، لا بما قسم له يقنع، ولا على ما لم يقسم له يغلب، والمحسود يتقلب في فضل الله مباشراً للسرور ممهلاً فيه إلى مدة لا يقدر الناس لها على قطع وانتقاص، ولو صبر الحسود على ما به وأضمر ما ينتابه خير له لأنه كلما هر خسأه الله وكلما نبح قذف بحجر وكلما أراد أن يطفيء نور الله أعلاه الله ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾، ولله در القائل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

(٣) من الوصايا ـ التي حث عليها حكماء الطب ـ التحذير من إدخال الطعام على الطعام، فكم من شخص أكل فأفرط قبل أن تستكمل المعدة هضم ما فيها فابتلى بالتخمة ومرض المعدة وآل به ذلك إلى الحتف والهلاك ويرحم الله القائل:

لا بارك الله في الطعام إذا ... كان هلاك النفوس في المعد

ولبعض الحكماء يوصي ولده:

إجعل غداءك كل يوم مرة ... واحذر طعاماً قبل هضم طعام
واحفظ منيك ما استطعت فإنه ... ماء الحياة يراق في الأرحام

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (أصل كل داء البردة) البردة كهمزة التخمة أخرجه السيوطي، ومن كلام الإمام علي كرم الله وجهه: (كم من أكلة منعت أكلات) وناهيك بقول الله تعالى: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾.

(٤) المِلَّة بالكسر الشريعة والدين، والمَلل بالفتح السآمة والضجر.

الصفح عن الخطل:

إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلته عذرا

المفضل على أترابه محسود[1]، الغافل عن ذكر الموت في سلك من لا عقل له معدود، لا تكثر من عداوة الرجال[2]، لا تستحقر كيد

---

(١) في هذا إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام: (كل ذي نعمة محسود) ولله در القائل:

إن العرانين تلقاها محسدة ولن ترى للئام الناس حسادا

فكم لقي الأدباء والنوابغ وأفذاذ الرجال من أذى الحساد وكيدهم ومكرهم وعنتهم ما نغص عليهم حياتهم وأقض مضاجعهم، ومن أروع ما قيل في الشكوى والألم من الحساد ومكرهم قول ابن زيدون:

ألا هل أتى الفتيان أن فتاهمو فريسة من يعدو ونهزة من يسطو
وأن الجواد الفائت الشأو صافن تخونه شكل وازرى به ربط
وان الحسام العضب ثاو بجفنه وما ذم من غربيه قد ولا قط

إلى أن قال:

عدى سمعه عني فأصغى إلى عدا لهم في أديمي كلما استمكنوا عط
بلغت المنى إذ قصروا فقلوبهم مكامن أحقاد أساودها رقط

إلى آخرها وهي طويلة مفعمة بالزفرات المحرقة والشكوى الصارخة من شرور الحساد ودسائسهم.

وللبحتري في المعنى:

كم حاسد لأبي العباس مشتغل بنعمة في أبي العباس تشجيه
يروم وضعاً له والله يرفعه ويبتغي هدمه والله يبنيه

(٢) من كمال الرجل ورجحان عقله مسالمة الناس واجتناب ما يؤذيهم فإنما المسلم من سلم الناس من يده ولسانه وفي الأثر: (انكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن سعوهم بأخلاقكم) وقالوا: ينبغي للعاقل، أن يتجنب كل شيء يعاب عليه ليحبه الناس كما أن عليه أن يختار لصحبته اتقاهم لخالقه وأبرهم لصديقه فإن الناس على ثلاث طبقات طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه، وطبقة كالدواء لا يحتاج إليه إلا أحياناً، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبداً. ولله القائل:

وبغضاء التقى أقل ضيراً واسلم من مودة ذي الفسوق
ولن تنفك تحسد أو تعادي فأكثر ما استطعت من الصديق =

الضعيف[1] فربما له فيك مجال، من حاذر عدوه، أصاب السلامة رواحه وغدوه، لا تغترر من حاسدك ببلق النية، فلعل تتبعه وابل الوبال والمنية:

فرب تقطب من غير بغض وبغض كامن تحت ابتسام

المجادل بالحق غلّاب، من أكثر الحيل انقطعت دونه الأسباب، من زرع الإحسان[2]، حصد الحمد بكل لسان، بالغ في أن نار الفتنة تخمد[3]،

= ولبعضهم:

إذا أنت عاديت الرجال فلا تزل على حذر لا خير في غير حاذر
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بحافر

(١) ينبغي للعاقل أن لا يحتقر عدوه وإن كان ضعيفاً: (إن البعوضة تدمي مقلة الأسد)، ولله الفقيه عمارة اليمني حيث يقول:

إذا لم يسالمك الزمان فحارب وباعد إذا لم تنتفع بالأقارب
ولا تحتقر كيد الضعيف فربما تموت الأفاعي من سموم العقارب
فقد هد قدماً عرش بلقيس هدهد وخرب فأر قبل ذا سد مأرب

ولابن نباتة:

أسر إليك مقال النصيح ولست إلى النصح بالمفتقر
عليك إذا طاعنتك الرجال بضرب الرؤوس وطعن الثغر
ولا تحقرن عدواً رماك وإن كان في ساعديه قصر
وينفع في الروع كيد الجبان كما لا يضر الشجاع الحذر
فإن الحسام يحز الرقاب ويعجز عما تنال الإبر
شب الرغب بالرهب وامزج لهم كما يفعل الدهر حلواً بمر
وعش جابراً عثرات الزمان فما فيه غيرك شيء يسر

(٢) من أشرف المحامد وأفضلها عمل البر واجتلاب المودة بالإحسان.

أحسن فحسبك أن تسمى محسناً ما أحسن الإحسان ممن أحسنا
واغنم من الذكر الجميل أجله فأجل ما ادخر الفتى حسن الثنا

الإحسان يقطع اللسان.

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

وفي الحديث الشريف: من أحسن الحسن الخلق الحسن.

(٣) جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها).

وتواضع لكي تحمد[1]:

والكبر والحمد ضدان اتفاقهما مثل إتفاق فتاء السن والكبر

قبائح الناس تغافل عنها، فقد يكون عندك أقبح منها، عاشر بالمستحسن، وفارق بالتي هي أحسن، صن نفسك عن ذكر الرذائل بلسانك، ففيه تعظيم لك بل لشأنك، يعز على المرء أن يفارق طباعه[2]، وعلى البخيل أن يلزم الشجاعة:

لا تطلبن من البخيل شجاعة إن البخيل يخاف أسباب الردى
أنى يجود بنفسه يوم الوغى من لا يجود بماله يوم الندى؟

---

(١) من تواضع رفعه الله، ومن حكم ابن المقفع «التواضع يورث المحبة، أكرم الأخلاق التواضع، الكبر مقرون به سوء الظن» قال الشاعر:

تواضع تكن كالبدر ينظره الورى على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يرفع نفسه إلى طبقات الجو وهو وضيع

وللاديب ابن جناح:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً فكم تحتها قوم همو منك أرفع
فإن كنت في عز وحرز ومنعة فكم طاح من قوم همو منك أمنع

(٢) قد يستطيع الإنسان أن يتخلق بخلاف تحيزته وطبيعته وقتاً ما، ولكنه لا يستطيع الثبات على ذلك (إن التخلق يأتي دونه الخلق) ولهذا أمثلة وشواهد لا تحصى ومن بديع ما قيل في هذا المعنى للحسين بن عبدالقادر الكوكباني:

لا ترجي نقله عن طبعه إن نقل الطبع صعباً لن يراما
ذنب الكلب كما هو بعدما أودعوه باطن القراص عاماً

وهنا يقول المؤلف: كما انه يصعب على المرء مفارقة طباعه كيفما كانت كذلك يعز على البخيل أن يكون شجاعاً وكيف يجود بروحه من يظن بماله ولبعضهم في ذم البخل وقد أجاد:

الدهر يقصر تارة ويطول والمرء يصمت ساعة ويقول
ليس الكثير من الكلام بجيد إن الكثير من الكلام فضول
لا تقطعن مع البخيل طريقه إن الطريق مع البخيل تطول
لا تقعدن مع البخيل بمجلس إن البخيل على الفراش ثقيل
لا تقبضن من البخيل يمينه إن البخيل على اليمين عجول

الدهر عدو الأفاضل[1]، والعمر ظل زائل، لا يخلو جسد عن حسد، ولا تخلو كبد عن كبد[2]، الشفقة سجية من سلك نهج الايمان[3]، الراحمون يرحمهم الرحمن[3]، الأنفة طباع الأحرار[4]:

---

(١) هذا يشير إلى قول المتنبي:

أفاضل الناس أغراض لذي الزمن ... يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
وإنما نحن في جيل سواسية ... شر على الحر من سقم على بدن

(٢) الكبد هنا المراد به الإنسان، والكبد بالفتح المشقة قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾.

(٣) لا جرم أن سجية المؤمن العطف والشفقة والحنو والرحمة فإنها لا تنزع الرحمة إلا من شقي ولله القائل:

قد قضت العقول أن الشفقة ... على العدو والصديق صدقه
وأفضل العالم عند الله ... من ساعد الناس بفضل الجاه
ومن أغاث البائس الملهوفا ... أغاثه الله إذا أخيفا

(٤) قال عليه الصلاة والسلام: الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، ولبعض الأدباء:

إن كنت لا ترحم المسكين إن عدما ... ولا الفقير إذا يشكو لك الألما
فكيف ترجو من الرحمن رحمته ... وإنما يرحم الرحمن من رحما

ويقال. استنزلوا الرحمة بالرحمة ولله القائل:

إرحم أخي عباد الله كلهمو ... وانظر إليهم بعين اللطف والشفقه
وقِّر كبيرهمو وارحم صغيرهمو ... وراع في كل وجه وجه من خلقه

وفي الحديث: ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا:

(٥) من أكبر ما تمتاز به الرجولة عزة النفس، وإباء الضيم، والأنفة من النقائص والتمدح بالفضيلة ومكارم الأخلاق: «العزة لله ولرسوله وللمؤمنين» فأباة الضيم حماة الأنوف: هم الأتقياء وهم العلماء وهم الملوك وهم الفاتحون وهم الشعراء المبدعون.

هم الألى أجروا ينابيع الندى ... هامية لمن عرى واعتفى
هم الألى إن فاخروا قال العلا ... بفي امرء فاخر كم عفر البرا
هم الذين دوخوا من انتخى ... وقوموا من صعر ومن صغى
هم الذين جرعوا من ما حلوا ... أفاوق الضيم مرات الحسا
هم الشناخيب المنيعات الذرى ... والناس ادخال سواهم وهوا =

لا تتقاعد عن فرص الأعمار[1]،

وخذ صفوة الدنيا فإن قصيرها يؤول إلى التكدير في آخر العمر

زيارة الأرحام، تمد لك في الأيام، الرياسة خساسة، الظلم يبنى من ركن النهابر[2] أساسه، قيد النعم بالشكر العميم، وأصبر على مرير التعليم:

ومن لم يذق مر التعلم ساعة تجرع كأس الجهل طول حياته

حب المؤمن دليل الصلاح، أحسن الذخرة السلاح، لا تصرف همتك لعلم الكهانة والنجوم[3]، يضعك إلى الحضيض الأوضع من التخوم:

= ويعجبني قول الحطيئة في رثاء قيس بن زهير بن ذبيان وقد مات جوعاً أنفة من السؤال

إن قيساً كان ميتته أنفاً والحر منطلق
في دريس لا يغيبه رب حر ثوبه خلق

وكان قيس بن زهير من أذكياء العرب المشاهير ومن شعره.

إذا أنت أقررت الظلامة لامرىء أتاك بأخرى شعبها متفاقم
فلا تبد للأعداء إلا خشونة فمالك منهم إن تمكن راحم

وفي المثل: المنية ولا الدنية.

قال معاوية بن أبي سفيان: لقد هممت يوم صفين ان انهزم فذكرت قول عامر بن الأطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقدامي على المكروه جهدي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

فهل ألزمه الصبر في هذا الموقف غير الأنفة وعزة النفس وكم لهذا من نظاير وأمثال.

(١) إشارة إلى قول ابن النبيه:

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلب أوائله لكنه ربما مرت أواخره

(٢) النهابر المهالك وكثبان الرمل، والحفر بين الآكام واسم واد في جهنم ومنه الخبر: كل مال جمع من نهابر أذهبه الله في نهاوش وقد ضمنه بعضهم فقال:

كذا كل مال أصله من نهابر فعما قليل في النهاوش يذهب

(٣) قال عليه الصلاة والسلام: من صدق كاهناً أو أتى منجماً فقد كفر بما أنزل على محمد، وما =

تُدبِّرُ بالنجوم ولست تدري وربُّ النجم يفعل ما يريد

من تعدى فالدهر مكاف له كافي، ومن أعضله الأمر فما غير الصبر له شافي؛ إحفظ جندك فهم قلائد جيدك، ولا تبخل عليهم بما تحت يدك إلى مقابل تأييدك:

ومن أضاع جنده في السلم لم يحفظوه في لقاء الخصم

من أهانك تركت مقامه[1]، ومن عرف بحقك نشرت أعلامه، الحليم من لم يفش بأسراره، والقهمد[2] من لم يفارق مجلس استحقاره:

= أحسن قول الشاعر:

إذا كان علم النجم بالغيب مخبراً فقل لي ما شأن المنجم معدم
فما هو إلا علم شك وشبهة وظن وأحكام الظنون توهم

ولأبي العلاء المعري:

أأرباب النجوم أحلتمونا على شيء أدق من الهباء
كنوز الأرض خافية عليكم فكيف علمتم ما في السماء

(١) كتب الإمام زيد بن علي عليه السلام إلى هشام بن عبدالملك عقيب كلام جرى بشأن الخلافة انتقص فيه الإمام زيد:

مهلاً بني عمنا عن تخت أثلتنا سيروا رويداً كما كنتم تسيرونا
لا تجمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

وقال إبراهيم بن المنذر:

فإنك لن ترى طرداً لحر كإلصاق به طرف الهوان
ولم تجلب مودة ذي وفاء بمثل البر أو لطف اللسان

وأنشد أبو بكر بن دريد:

وكنا كغصني بانة ليس واحد يزول عن الحالات عن رأي واحد
تبدل بي خلا فخاللت غيره وخليته لما أراد تباعدي
ولو أن كفي لم تردني أبنتها ولم يصطحبها بعد ذلك ساعدي

(٢) القهمد: الدنيء اللئيم:

إذا ما أهان امرؤ نفسه فلا أكرم الله من يكرمه

ومن لم يفارق منزل الضيم لم يزل يروح ويغدو موجع القلب باكيا
ومن يبق في دار الهوان يعش بها أخا مضضٍ لا يبرح الدهر شاكيا

قد تستحيل العداوة مودة[1]، إلا عداوة الحسد فلا.. وإن طالت المدة، مجالسة الأضداد تردي[2].

---

(١) لعوامل الحياة وتقلبات الأيام أثر كبير في تقلب القلوب واختلاف أحوال الناس في كل مظاهر الحياة، ومنها الحب والبغض والصداقة والعداوة، ولهذا جاء في الخبر: أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما، ومن حكم ابن المقفع (ربما تحولت البغضاء مودة والمودة بغضاء) وقال آخر: كم قاطعك من راضعك، وقابحك من مالحك، ونافقك من وافقك، وناصبك من صاحبك، وحادك من وادك، وقال الشاعر:

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق فكان أعرف بالمضرة

وهناك عداوة الحسود لا عناج لها ولا علاج لدائها اعاذنا الله منها لأنها كامنة كمون النار في العود لا يرضى صاحبها غير زوال نعمة المحسود.

(٢) من لم تجانسه احذر أن تجالسه ما أحرق الشمع إلا صحبة الفتل

ومن الحكمة قولهم: المجالس يجانس، وللمؤلف رحمه الله من رسالة كتبها إلى صديقه السيد الأديب قاسم بن يحيى المطاع وقد رآه يعاشر بعض اللؤما (كما في طيب السمر) إعلم أيها المرفوع قدرا، المتبلج في سماء المعالي شمساً وبدرا، أن المحب غيران، وأن للصديق تأثيراً يهتدي به الحيران، وقد أخذتني عليك غيرة اوجبت الزجر، وجئتك لما رأيتك ماشياً في الظلماء بنور الفجر، فإن كنت على يقين من المودة، فأعرض لنائم الدهر منك المخدة، ولا تغتر بالعدو وإن لمعت ثنيته، ولا تستبط مصرع الغافل وإن بعدت منيته، واختر لصحبتك من يرتضى، فمصباح اللئيم مظلم وإن أضا،إلى أن قال: ولا تعتمد على المرفوض فترفض، وإياك وجوار المخفوض فإنك به تخفض، وفي المزمل والمكبل والمعصم، قنوع لمن استمسك بذيل التأمل واستعصم، فلا يقرب الحر إلا من كانت سمته سمته، فقد قال عمر رضي الله عنه: ولينكح الرجل لمته، فاسمع النصيحة فإني قد محضتها، واقتف سبيلي في ترك سجايا اللؤما فإني قد رفضتها، وخل منادمة فلان فإنها هفوة، واعرض عن مواصلته فإنها أعظم جفوة، وأنا أعلم أن لك نفساً شريفة عالية، محبة للمعالي وأما للنقائص فقالية، وقد قال ارسطاطاليس، من جملة كلامه النفيس: النفس الوضيعة لا تجد ألم الهوان والملام، والنفس الشريفة يؤثر فيها أيسر الكلام، هذه نصيحتي فيما جرى، واختر لنفسك ما ترى، وقد =

الفضايل مع عدم الجد لا تجدي[1]، التدبير عنوان الشرف، العزم والحزم لا يورثان الأسف، نعم الأخلاء من يذهب حقده لدى الشدائد، ويحثك على ما يقود لك الفوائد؛ الكامل لا يقنط من خطب نازل:

ففي السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف إلا الشمس والقمر

الدنيا مبنية على أشياء أمرها محسوس، صحة وسقام ونعيم وبؤس، من لا دين له فلا أمانة لديه، ومن لا علم له فلا جلالة عليه، من طلب الرزق امتنع من موافاته، ومن أعرض عنه قصد لملاقاته[2]:

= نهيتك عن شربة بالوشل، فلا تتناول طرسي هذا بكف الأشل، وتتلق ما ألقيته عليك بروعة وفشل وها أنا أقول لك قول محبة، خير الأمور أحمدها مغبة والسلام.

قوله في المزمل والمكبل والمعصم قنوع الخ. يعني أن من جاور المخفوض يخفض وإن كان مرفوعاً وإن مجاورة الناقص لها أثر في حط القدر كما أن مزملاً جاور البجاد في قول امرىء القيس:

كان ثبيراً في عرانين وبله كبير أناس في بجاد مزمل

جر بجره وإلا فحقه أن يرفع لأنه صفة لكبير المرفوع وإلى هذا أشار بعض البلغاء فقال:

إذا ما الليالي جاورتك بناقص وقدرك مرفوع فعنه تحول
ألم تر ما لاقاه في جنب جاره كبير أناس في بجاد مزمل

كما أن مكبلا لما جاور الحديد في قول امرىء القيس ايضاً:

وإنك قسمت الفؤاد فنصفه قتيل ونصف بالحديد مكبل

جر بجره أيضاً وإلا فحقه أن يرفع لأنه خبر عن قوله ونصف الذي هو مبتدأ ثانٍ معطوف على المبتدأ الأول وهو قوله فنصفه.

وكما أن المعصم لما جاور الرأس في قول الشاعر:

فتركنه جزر السباع ينشنه يأكلن قلة رأسه والمعصم

جر بجره وإلا فحقه النصب لأنه معطوف على قوله قلة الذي هو منصوب على المفعولية.

(١) يعني أن الكمال إذا لم يرافقه الحظ لا ينفع وهو ينظر إلى قول ابن دريد:

لا ينفع اللب بلا جد ولا يحطك الجهل إذا الجد علا

ومثله قول الآخر:

لا تطلبن بغير حظ رتبة قلم البليغ بغير حظ مغزل
سكن السما كان السماء كلاهما هذا له رمح وهذا أعزل

(٢) كأنه أراد المؤلف الإلمام بقول الشاعر: =

كالطيف يأبى دخول الجفن منفتحاً وليس يـدخله إلا إذا انـطبقـا

مـا مات من خلف ولـداً نجيبا، ولا اسـتـراح من لم يتخذ لـه حبيبا، لا تقتد من الناس بالطغام، واقنع باليسير من الطعام:

تنـافس في طيب الـطعـام وأنـه سـواء إذا مـا جـاوز اللهـوات

إلبس الثيـاب الجميلة[1] إذا التبس عليك حـال رجـل نـظرت خليله، إدخر آلةللحرب ومالا، فأنت لا يعزب عنك ما يصلح لـك وما لا...، مـا تملك قلوب الأكياس، إلا ببذل ذهب الأكياس[2]، لا تغترر بسلامة مرتكب

= هو الرزق لا حل لديك ولا ربط ولا أدب منه الغناء ولا خط
وأرزاقنا مقسومة ومثالنا طيور لها في كل ناحية لقط
فطير يطير الجو يطلب رزقه وآخر يعطي الطيبات ولا يخطو
وما الرزق والأعمار إلا مواهب وأرض بها خصب وأرض بها قحط

وهـذا يستقيم إذا حملناه عـلى الإجمال في الـطلب أما تـرك الـطلب البتـة فـلا يمكـن بحـال والكتاب والسنة ينطقان بوجوب الطلب قال تعالى:﴿فامشوا في مناكبهـا وكلوا من رزقه﴾ ولله القائل:

إذا الرزق عنك نأى فاصطبر ومنه اقتنع بالذي قد حصل
ولا تتعب النفس في وصله فإن كان ثم نصيب وصل

(١) من كمال المروة تحسين اللباس قال الإمام مالك رحمه الله:

حسن ثيابك ما استطعت فإنها زين الرجال بها تعز وتكرم
ودع التواضع في الثياب تخشناً فالله يعلم ما تسر وتكتم
فرثاث ثوبك لا يزيدك رفعة عند الإلّه وأنت عبد مجرم
وجديد ثوبك لا يضرك بعد أن تخشى الإلّه وتتقي ما يحرم

فينبغي للعـاقل أن يتجمـل ما اسـتطاع مع مـوافقة السنـة وإنما الأعمـال بالنيـات فقد جـاء التحذير من ثوب الشهرة، ولله القائل:

إياك والشهرة في ملبس والبس من الأثواب أسمالها
تواضع الإنسان في نفسه أشرف للنفس واسما لها

(٢) الأكيـاس جمع كيس وهم الحذاق: والمعنى أنها لا تمتلك قلوب أهـل الحـذق والـدرايـة بمثـل العطا، ويقال: الجود أنصر من الجنود، وكان النظام يقـول «من حق المال عـلي أن أطلبه من =

الآثام[1]، فلعلك تعتبر به بعد حين من الأيام، لا تركن على من ظهر لك بعض خيانته، وأعفف عن التائب من جنايته[2]:

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائبا إليك ولم تغفر له فلك الذنب

= معدنه، وأصيب به الفرصة عند أهله، ومن حقي عليه أن يقيني السوء بنفسه، ويصون عرضي بابتذاله، ولا يفعل ذلك إلا أن أسمح به ألا ترى ذا الغنى ما أدوم نصبه، وأقل راحته، وأخس من ماله حظه، وأشد من الأيام حذره، وأغرى الدهر بثلبه ونقصه، ثم هو بين سلطان يرعاه، وذي حقوق يسبونه، وأكفاء ينافسونه، وولد يريد فراقه، قد بعث عليه الغنى من سلطان العنا، ومن أكفائه الحسد، ومن أعدائه البغي، ومن ذوي الحقوق الذم، ومن الولد الملل، وذو البلغة قنع فدام له السرور، ورفض الدنيا فسلم من المحذور، ورضي بالكفاف فتنكبته الحقوق.

(١) من السنن الثابتة أن من انهمك على الجرائم ولم يقلع عنها لا بد وأن تسوء عاقبته وتختل أحوال معاشه لأنه قد أفسد غريزته: بمآثمه ودنس فطرته برذائله فلا يهتدي إلى صواب وكثيراً ما يكون موضع عبرة ولله الحقوق:

فيا شامخاً أقصر عنانك مقصراً فإن مطايا الدهر تكبو وتعثر
ستقرع سناً أو تعض ندامة بديك إذا خان الزمان وتبصر
ويلقاك رشد بعد غيك واعظ ولكنه يلقاك والأمر مدبر

وما أحسن قول «ولي الدين يكن» من قصيدة له عارض بها «سل يلدزاً» قال فيها:

من كان يستحلي الشرور يموت من تلك الشرور
إن الزمان يغر ثم يذيق عاقبة الغرور

(٢) العفو والتسامح من أمهات مكارم الأخلاق ولباب ما حضت عليه الشرائع السماوية واقتضته النظم الإلهية وأدركت حسنه العقول الإنسانية والغرائز البديهية قال تعالى معلماً لخاتم أنبيائه وسيد رسله: ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «إن الله عفو يحب العفو» ولا شك أن الطباع السليمة والغرائز الكريمة والنفوس الشريفة تحن إلى هذه المحامد وتصبو إليها ويرحم الله القائل:

قالوا غداً نأتي ديار الحما وينزل الركب بمغناهم
وكل من كان مطيعاً لهم يصبح مسروراً بلقياهم
قلت فلي ذنب فما حيلتي بأي وجه أتلقاهم
قالوا أليس العفو من شأنهم؟ لا سيما عمن ترجاهم

وقال الزمخ:

إذا ما جنى الجاني محا العذر ذنبه وصار الذي لا يقبل العذر جانيا

أحسن الأوقات: السحر والأصيل، الانسان لا يعرف مقدار الصحة إلا وهو عليل، ما ذل من خضع لوالديه، وما أصاب من أنفق جميع ما لديه، إذا ابتسم لك الدهر غنمت إقباله، وإذا غضب عليك السلطان فأمل نواله[1]، إذا اشتدت الرزية فرجِّ الفرج السريع،[2] وإذا لم يسعدك الدهر فإسعاد الناس منيع:

وإذا جفاك الدهر وهو أبو الورى طراً فلا تعتب على أولاده

من نظر إلى العواقب، صفت له المشارب، مطاوعة الهوى هوان، الحرص أقبح خصال الانسان، لا تذل ولو لعظيم، ولا تتضرع إلى غير الخلاق الرحيم، لا تأكل مال الأيتام، واحمد الله إذا ابتلاك بالأسقام، لا تهجر من غير سبب صديقك، فربما لم يزل يذكر عقوقك، وكسر الزجاج لا يجبر، وداثر المودة لا يعمر، وأمس لا يرجى منه الرجوع، والحليب لا يمكن عوده الضروع، فإياك من أن تنثر عقود الود المنضدة، فإنما القلوب أجناد مجندة، وقد يعود الرضا، ولكن دون ما مضى:

ويمكن وصل الحبل من بعد قطعه ولكنه يبقى به أثر الربط[3]

---

(١) من أغرب الأشياء أن يكون غضب السلطان المفضي غالباً إلى إهلاك المغضوب عليه مصدراً للنوال ولعله يشير بهذا إلى قول ابن قيس الرقيات في عبدالله بن جدعان:

والذي إن أشار نحوك لطماً تبع اللطم نائل وعطاء

(٢) جرت عادة الله تعالى:

إن الأمور إذا التوت وتعقدت نزل القضاء من الكريم فحلها

قال عز من قائل ﴿إن مع العسر يسرا﴾ وقال الإمام علي كرم الله وجهه: عند تناهي الشدة تكون الفرجة، وعند تضاؤق حلق البلاء يكون الرجاء. ولله القائل:

إذا الحادثات بلغن المدى وكادت تذوب لهن المهج
وحل البلاء وقل العزاء فعند التناهي يكون الفرج

(٣) البيت لأبي الفتح عبد السلام المالكي المغربي وللشهاب الخفاجي في معناه: =

من أدرك الكمال[1]، نفر عنه المال، وهجره السلوان، وقارنته الأنكاد والأحزان:

كالطير لا يحبس من بينها إلا التي تطرب أصواتها

لا تزرع القبيح تحصد العنا[2]، وأحسن الأخلاق تقطف ثمرات

= يا واصلين حبالاً كانت تشد المودة
لا تقطعوها ببعد قد غير النأي عهده
فإن تقولوا وصلنا من بعد ذا القطع شدة
يبقى وحقك فيها من ذلك القطع عقده

(١) من المقررات أن أهل الكمال والإدراك هم أعظم الناس تعباً في الحياة وذلك إن المدرك الكامل يشاهد حقايق الأشياء وبواطن الأمور وأن القسمة الإلهية قل أن تجمع للشخص بين السعادة المادية والمعنوية كما قيل:

من يبتغ بالفضل معاشاً يمت جوعاً ولو كان بديع الزمان
تروم الحجى ثم تبغي الغنا يا قل ما تجتمع الضرتان

ولبعضهم

لو كنت أجهل ما علمت لسرني جهلي كما قد ساءني ما أعلم
كالصعو يرتع في الرياض وإنما حبس الهزار لأنه يترنم

ومنه ما أشار إليه المؤلف:

تقصد أهل الفضل دون الورى مصائب الدنيا وآفاتها
كالطير لا يحبس من بينها إلا التي تطرب أصواتها

وللمتنبي:

ما العيش إلا في ظلال النوك ممن عاش كدا

(٢) من عرف ثمار الأعمال كان حقيقاً إلا يغرس مرا، فإنه لا يجني من الشوك العنب ومن غرس الشر حصد الندامة ولله القائل:

الشر مصراع له سطوة يستنزل الجبار من عرشه
وأنت إن لم ترج أو تتقي كاليت محمولاً على نعشه
إذا طغى الكبش بلحم الكلي أدرج لحم الكبش في كرشه
ونابش الموتى له ساعة تأخذه أنبش من نبشه
لله في قدرته خاتم تجري المقادير على نقشه

المنى[1]، لا تهزأ بلابس الأطمار[2]، فإنما ثوبه ليل تحته الأنوار:

كيف لا تبلى غلائله وهو بدر وهي كتان

وبالجملة فكن مجتنباً لما لا أتعرض لقبيح ذكره، وافعل ما لا يمكنني استيفاء شكره، فأنت هُديت عارف بالأرجح، وغير خاف عليك نهج الأصلح، ولا تتعرض الناس بالأذى، واتَّسم بكذا وكذا وكذا [3].

---

(١) أفضل ما يرزق العبد مكارم الأخلاق، مكارم الأخلاق تجدد ملابس المجد الخلاق ويرحم الله القائل: لو أنني خيرت كل فضيلة ما اخترت غير مكارم الأخلاق
كل الأمور تبيد عنك وتنقضي إلا الثناء فإنه لك باقي

(٢) لا تزدري عاقلاً لحقارة رياشه، ولا تعظم جاهلاً لبزازة قماشه فالمرء مخبوء تحت لسانه.

واعلم بأن التبر في عرق الثرى خاف إلى أن يستثار بنبشه
وفضيلة الدينار يظهر جاهلاً من حكه لا من ملاحة نقشه
ومن الغباوة أن تعظم جاهلاً لصقال ملبسه ورونق رقشه
أو أن تهين مهذباً في نفسه لدروس بزته ورثة فرشه
فلكم أخي طمرين هيب لفضله ومفوف البردين عيب لفحشه
وإذا الفتى لم يغش عاراً لم تكن أسماله إلا مراقي عرشه
ما أن يضر العضب كون قرابه خلقاً ولا البازي حقارة عشه

وقال آخر:

أبا جعفر ليس فضل الفتى إذا راح في فضل إعجابه
ولا في فراهة برذونه ولا في نظافة أثوابه

(٣) أجمل المؤلف رحمه الله خاتمة هذا الباب ورب كناية تربى على إفصاح، ولحظ يدل على ضمير، وقليل يغني عن كثير، ولا بأس أن نختمه بهذه الأبيات والمرجو ممن بيده الحول والقوة ان يحسن ختامنا بمنه وكرمه:

من طالب الناس بأموالهم يبغي الغنا لا بد أن يفتقر
من عاون الظلم وأشياعه سقوه بعد الظلم كأساً عقر
من حفر البئر ليهوي به أخاه فالهاوي به المحتفر
من سل سيف البغي يبغي النجا لم ينج قط يا صاح مما حذر
من عاب مخلوقاً على فعله سرى إليه العيب جهراً وسر
العيب موجود إذا رمته فأحذرك أن تكشف ما قد ستر
من لم ينل من كفه سائل فالمال في كفيه لا يستقر
اليمن ثوب من ثياب السخا والشؤم مصروف إلى المحتكر

الفصل الثلاثون
في التذكير

عباد الله: بالغوا في تحصيل الزاد، فكأنكم بالرحيل وقد حان مع قلة الاستعداد، وتأهبوا للموت، وتيقظوا لداعي الفوت، واعتزلوا أباطيل الهوى، ودعوا التشبيب بسفح عالج واللوى، واخلعوا عن مناكبكم خِلَع الضلال، واطرحوا من فوق أظهركم أثقال الآمال:

ودعوا عنكم أباطيل المنى ليست الدنيا لنا دار مقام

كأنكم بصرصر الحمام قد هبت[1]، فهصرت أغصان نفوس من منامها ما هبت، وألقت زهراتها من أكمام النعيم، وأذوت من نضير حديقتها منظرها الوسيم، وجرت ذيولها على قصور عامرة، فأعادتها رسوماً داثرة، وبهجوم هادم اللذات، وقد أعدم منكم الذات:

---

(١) الصرصر الريح المهلكة والمراد المنية وحضور الأجل والمعنى أنه ينبغي للعاقل أن يتزود للنقلة ولا يغتر بطول الإقامة فإنما الدنيا مجاز إلى الآخرة.

لا بد للإنسان من ضجعة لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبه وما أذاق الموت من كربه

فبين البرايا والخلود تباين وبين المنايا والنفوس لزام

أين قيصر وكسرى؟[1]، أين من ملك نهياً وأمرا؟ أين جامع الأموال؟ أين المتمسك بذيل الآمال؟ أين من شمخ بما نال كبرا؟ أين من زاد على أقرانه قدرا، أين من بات في عيش رغيد؟ أين من ملك الإماء والعبيد؟ أين من بنى الحصون؟ أين من كانت تنظر إليه العيون؟ أين من كان وكان؟ أين الأحباب والإخوان؟ أين من نال من شهوته غاية المنى؟ أين من غرس وقطف وخرب وبنى؟

أين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الأستار والكلل[2]

---

(١) القيصر اسم ملك الروم وكسرى ملك الفرس: ومن كلام أبي العلاء المعري في (ملقى السبيل) لا تك ذا طيش، وأعجب لما وهب من العيش، ما فعل آدم وبنوه كم أدرك الثمر مجتنوه، يبدي التوفر أخو المعيشة، والجبل مثل الريشة، المنزل لأمر معروش وبالقدر تثل العروش:

أين مضى آدم وشيث وأين من بعده أنوش
لا ملك إلا لرب عرش تثل عن أمره العروش
خف من الخوف كل طود حتى كأن الجبال ريش
تطيش نبل الرماة منا وأسهم الحتف لا تطيش
ولم يزل للمنون جيش تفل من ذكره الجيوش
يحث بالنعش حاملوه وشد ما سارت النعوش
لا حبذا الإنس والخطايا وحبذا النسك والوحوش

(٢) البيت من أبيات مبكية في الوعظ أنشدها بعض العلوية بمجلس المتوكل العباسي في خبر طويل وأولها:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم فأودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا أين الأسرة والتيجان والحلل
فأفصح القبر عنها حين ساءلها تلك الوجوه عليها الدود تقتتل
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

هتف بهم داعي المنايا[1]؛ فأظهر منهم الخبايا، وكشف فيهم عن مقصورات الخيام، وأرجع حقيقة نعمهم أضغاث أحلام، وأدرجهم بعد حلول الايوان، في أطمار رثاث من الأكفان، وأودعهم ضيقات الألحاد، وأقعدهم على خشن التراب بعد لين الوساد، وأخلى ديارهم، ومحا من الأرض آثارهم:

ثم أضحوا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور[2]

كيف إذا قطعت من آمالكم العرى، وأصبح سقيمكم منبوذاً بالعرا، وغبتم عن الأهل والجيران، وصاح بكم الحمام: ﴿كل من عليها فان﴾،

---

(١) لأبي العتاهية في المعنى:

كم رأينا من عزيز طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل صائح الدهر الصدوح

وقال أبو العلاء: إن ابن آدم لشحيح، سوف يمرض من القوم صحيح، تعصف بعقله ريح، فإذا هو لقي طريح، ثم يحفر له ضريح، إن ذلك لهو التبريح:

يا أيها الممسك الشحيح سيمرض السالم الصحيح
ما لك لم تنتفع بعقل هل عصفت بالعقول ريح
إن شيد القصر في سرور فبعده يحفر الضريح
يطرح الهم بالمنايا من جسمه في الثرى طريح

(٢) البيت من قصيدة بليغة لعدي بن زيد العبادي أولها:

أيها الشامت المعير بالدهر أأنت المبرء الموفور؟
من رأيت المنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير؟؟
أين كسرى كسرى الملوك أنو شروان؟ أم أين قبله سابور؟
وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم لم يبق منهمو مذكور؟

ومنها:

وتذكر رب الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه فقال وما غبطة حي إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والأمة وارتهمو هناك القبور
ثم أضحوا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

وجفاكم الصديق، وأعرض عنكم الرفيق، واستوطنتم القبور[1]، وأخرجتم عن القصور، وخلوتم بأعمالكم، وتصرف الوارث بأموالكم، وأتى إليكم منكر ونكير، وساءلاكم عن النقير والقطمير:

وأصبحت عرصات الحي بعدكُم قفراً وجاورتم بعد النوى العملا

يا ابن آدم، ما أحقك على ما ضيعت بالندم، لا تغتر بصحتك، وتعتمد على قوتك، وتغفل عن الموت بمنادمة أترابك، وتمرح تيهاً في أبراد شبابك:

لا تغترر بشباب رائق خضل فكم تقدم قبل الشِيب شُبان

إنتبه من رقادك، واجتهد في كسبك لمعادك، وتأهب للرحيل، واستعد للانتقال عن المقيل، وكن من دنياك على حذر، ولازم الذكر لنزول الأجل[2] فأنت على خطر:

وأفق عن السكرات قبل مذاقك السكرات حين تمد ثم تقبض

جانب سبيل اللهو، وخل السلوك في طريق الزهو، واحذر في قصير أيامك، من الارتكاب لطويل آثامك، واعتزل أيام التصابي، وألقِ من على عاتقك سيوف الجهل النوابي، واعتبر بمن سلف، وانظر إلى الأجداث كم

---

(١) من أعظم الحدث سكنى الجدث:

يدوم القديم إله السما ويفنى بأقداره ما حدث
وما أرغب المرء في عيشه ولكن قصاراه سكنى الجدث

(٢) يا ابن آدم كم تحرس وتحترس، والموت أسد يفترس، إن كنت بجبل أو واد، فإن الأودية مثل الأطواد، يسمعها من الله داع، جل رب العظمة والابتداع:

أيحترس المرء من حتفه وما حاد عن يومه المحترس
هل الناس إلا نظير السوا م وآجالهم أسد تفترس
يحل الربى ويحل الوهود ولا بد للربع أن يندرس

كفت من كف بالجود وكف، ولازم حسن الأعمال، واحترس عن قبيح الأفعال:

فعما قليل أنت لا شك صائر إلى ملك فافطن لما أنا قائل

واجعل الندم شعارا، ولا تجنح إلى زخرف الدنيا اغترارا، وقدم بين يديك عملا صالحا، ولا تكُ عن طريق الرشاد جانحا، واذكر نزول السقام، وتدبر في بلوغ الروح التراقي عند سكرات الحمام:

فيا ليت شعري كيف أنت إذا القوى وهت وإذا الكرب الشديد علاكا

يا مطلقاً جياد شبابه في ميدان البطالة، يا مرسلاً سهام لسانه بفواحش المقالة، يا من إذا دعي إلى الخير أقعده التواني، وإذا نودي إلى الشر نهض إليه لنيل الأماني، يا مرافقاً للغفلة[1]، لا تغتر إن منحك الموت مهلة:

إذا ما المنايا أخطأتك وصادفت حميمك فاعلم أنها ستعود

---

(١) قال ابن حمديس الصقلي:

غرتك دنياك التي لها سراب يخدعك
يضرك الحرص بها والزهد فيها ينفعك
لا تأمنن منية إن عصاها تقرعك
مغربك القبر الذي يكون منه مطلعك
وللحساب موقف أهواله تروعك
يراك ذو العرش الذي ناديته ويسمعك
فثق به ولا يكن لغيره تضرعك

ولأبي العتاهية:

بين عيني كل حي علم الموت يلوح
كلنا في غفلة والمـ ـوت يغدو ويروح

ولأمير الشعراء أحمد شوقي:

إنما الدنيا شجون تلتقي وحزين يتأسى بحزين
ضحك الدنيا احتشاد للبكا وأغانيها معدات الأنين

كيف الأمن والأيام في اندراج؟ أم كيف الراحة في دار مآلك منها الاخراج؟ لا يطمعك السراب الكاذب، ولا يستميلك الأمل الخائب، ولا يقعدك عن التخلص التسويف، ولا تخلِق في اللعب حلة الإمكان بالتوقيف:

فالمرء يجعل قدر الشيء يمكنه حتى إذا فاته إمكانه عرفا

لا تسود الصحف بالذنوب، وارع في أسرارك علام الغيوب، وارفض حالاً لا ينفعك في المعاد، وقدم بين يديك ما يؤنسك في الألحاد، فأنت لا شك لاحق بالسلف، ووارد مورد الفوت والتلف، وظاعن بعد الإقامة وهالك بعد السلامة، ومعدوم بعد الوجود، وزاد في الجدث للحشرات والدود، وراجع إلى التراب[1]، ومجاورة لجيرة الترب بعد الأتراب، آهاً لك إذا رحلت عن الديار!! غير ملازم في خلاصك البدار، ونازلك قابض الأرواح، وبت بصارمه حبال الحياة عن طنب الأشباح، وقصد منازلك لإخراجك منها، وبارزك بين نسوتك لاستلابك عنها، وأدرجت في أكفانك، وحف سريرك بإخوانك، وانتشرت عليك لآلي الدموع فما نفعت، وظهرت أصوات الثكالى وارتفعت، وحان تحول الحال، وحملت على الأعواد[2]

---

(١) (كل من عليها فان) صاحب القصر الكبير ورب الكوخ الصغير سيان: الملك وحارس بابه والوزير وخادمه والقائد وجنوده: ساكن القصر يسعى للقبور والطريد كذلك للرموس هذا يأكله الدود وذاك كذلك فالعزة لله وحده:

سكن يبقى له سكن ما بهذا يؤذن الزمن
نحن في دار يخبرنا ببلاها ناطق لسن
دار سوء لم يدم فرح لامرىء فيها ولا حزن
في سبيل الله أنفسنا كلنا بالموت مرتهن
كل نفس عند ميتتها حظها من مالها الكفن
إن مال المرء ليس له منه إلا ذكره الحسن

(٢) المراد بالأعواد: النعش

والرجال، وأسرع صديقك في مواراتك، ووضعت أثقال الجنادل على خفيف ذاتك، وأودعت حفرة ضاقت، وأذهلتك مساءلة الملكين عن ذكر الأوطان وعاقت، وأحصرت في جوابك، واشتد ألم الجوى بك، وبقيت وحدك رهينا، وفقدت على ما أنت عليه معينا:

وعليك أطباق الثرى قد أطبقت لا تستطيع إلى الرجوع سبيلا

وذهب الوارث إلى حصر أملاكك، وتركوك مرتهناً في أشراكك، وفرقوا ما جمعته لنفسك، كما فرقت أعضاؤك في رمسك، ولهوا عن ذكرك، بعد أن أسلموك إلى قبرك، واندرس حزنك من قلوبهم، وبلي جديد ما أبدوه عليك من كروبهم:

فكما تبلى وجوه في الثرى فكذا يبلى عليهن الحزن

فلقد سعى من ألقى من فوقه إزار الأوزار، واستحق بحسن معاملته دخول الجنة لا النار، طوبى لأهل الجنة، فقد نالوا بعملهم الصالح أعظم منة، يتمتعون بأثمار مختلفة، وتقر أعينهم برغائب نعيم مؤتلفة:

قَرَّ عيناً من قر في جنة الخلد فلا يبتغي سواها قرار

لا يمسهم الحزن، ولا ينتهي إلى أمدٍ حالهم الحسن، ولا يخافون تحويلا، وذللت لهم القطوف تذليلا، ونالوا نِعَماً مخلدة، لا تزال كل حين متجددة، يطوف عليهم ولدان للأقمار مقايسون، بكأس ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

---

* كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

ولشوقي من قصيدة طويلة في الرثاء:

كل أعواد منبر وسرير باطل غير هذه الأعواد
تستريح المطي يوماً وهذي تنقل العالمين من عهد عاد
لا وراء الجياد زيدت جلالا منذ كانت ولا على الأجياد

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

خاتمة الكتاب

هـذا ختام ما وسوست به ألسنة الأقلام في صدور السطور، ومنتهى ما نفثت به من المنظوم والمنثور، وأطلعت من ثمرات الآداب على غصونها، وأظهرت من نفايس مكنونها، ونقطت من خيلان المداد سوالف الأوراق، وأملت المهارق بما أملت من أحاديث الأشواق؛ والله المسؤول حسن الختام في أعمالنا وأعمارنا، وستر القبيح من سيرنا وأسرارنا، والتجاوز فيما زلت به اللسان، والعفو عما اقترفنا من اعتقاد الجنان:

والصفح عما أخلّينا وما نطقت به اللسان وما زلت به القدم

فهو ولي الغفران، ومالك زمام الإحسان، والصلاة والسلام على خير من بعث إلى الأمة، وجلا بنور شرائعه ظلم الظلم المدلهمة، سيدنا محمد الأمين، وآله الطيبين الطاهرين وصحبه الميامين.

وفرغ من نظم ثمين قلائده؛ وترتيب فرائده، مؤلفه الأسير من كسب الذنوب، والراجي من ربه إسبال جلباب الرضى منه على عورات العيوب، أحمد بن محمد بن الحسن بن أحمد الحيمي الكوكباني أورده الله تعالى موارد المغفرة السنية، وبلغه الأمنية قبل إدراك المنية، وأدخله بكرمه جنته التي ملأت الأسماع أوصافها البديعة، وأذاقه حلو ثمارها التي هي

غير مقطوعة ولا ممنوعة ـ (في يوم الأحد) ثالث عشر شهر ربيع الآخر أحد شهوور سنة تسعة وتسعين وألف سنة من هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وذلك بمحروس مدينة شبام كوكبان، التي هي غادة تبلج وجهها عن عيون النرجس وطرُر الريحان؛ وتدبجت حللها بنضار البهار ولازوردي البنفسج، وتبسم ثغرها بثنايا الأقحوان المفلج:

فالروض يلقاك بابتسام والريح تلقاك بالقبول

وتجملت بوشي الزهر وحلي الندى، وتلفعت بأنيف الملابس والردا، وتنمنم بسوالف واديها عذار النبت الأخضر، وتأججت بين ضلوع أغصانها جمرات الشقيق الأحمر، وصقل فرند غديرها، وعز في الآفاق نظير نضيرها، ورقت في حافاتها النسمات العليلة؛ وزفت عرائس قصورها في ملابس جميلة:

سقى سفحها إن قل دمعي سحابة مطنبة بالقطر منهلة النقط
ويا أسطر النبت التي قد تسلسلت بصفحتها لا زلت واضحة الخط
ولا زال ذاك الخط بالطل معجما ومن شكل أنواع الأزاهر في ضبط
لويت عناني في حماها عن الحمى وهمت بها لا بالمحصب والسقط
منازل أحبابي ومنبت شيعتي وأوطان أوطاري بها ورضى سخطي

لا زالت خيام السحب مطنبة في ناديها، ولا برحت شمس العلوم والأداب بادية من حاضرها وباديها، ولا انفكت تحنو المزن عليها حنو الأمهات للجنين، ودامت الديمة الوطفا على صدرها الرحيب ناثرة لؤلؤ دمعها المعين:

همت في ذراها أدمع الطل والندى وبات بها زهر الربى باسم الثغر
يضوع أريج المسك منها إذا انثنت مدبجة الأرجاء من بلل القطر

وبات بها شادي الهزار مردداً أفانين تغريد على فنن نضر

ولا انفك يبرز من بطنها كل من هو لتاج المجد تكليل وتفصيل، ومن هو في حلبة الكمال مشهور في السبق فلا يفتقر إلى إجمال وتفصيل، فلطالما أنتجت من غابها قرعوشاً[1] سابقاً لاقتناص أوابد المعالي، وغطريفاً ما لسانه غير الصوارم وأنامله سوى العوالي، وصنديداً تناقلته أصلاب أظهر الأماجد، ونجيباً بلغ بعزمه الأسنا الأسنع من بواسق المحامد:

وهذب حتى لم تشر بفضيلة إذا التمست إلا إليه الأصابع

وما ذاك إلا لأنها عشي الذي تربيت في جوفه الوسيع، وتطوقت بالنعم في أرجائه فتعلمت على غصون الأقلام فنون الصدح والترجيع، وكناس أرامي، ومعقل عقيلة أيامي، ومجمع أترابي، وروضتي التي يسبق بها غصن شبابي:

أرض رضعت بها ثدي شبيبتي ومزجت لذاتي بكاسات الصبا

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم،
والحمد لله أولاً وآخراً، وباطناً وظاهراً،
اللهم إنا نسألك كشف الكروب، وغفران الذنوب، وستر العيوب،
بحق محمد الأمين، وآله الميامين،

آمين.

---

(١) القرعوش: شبل الأسد.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الدار العلمية
للنشر والتوزيع

توزيع
دار المتاحل
للطباعة والنشر والتوزيع